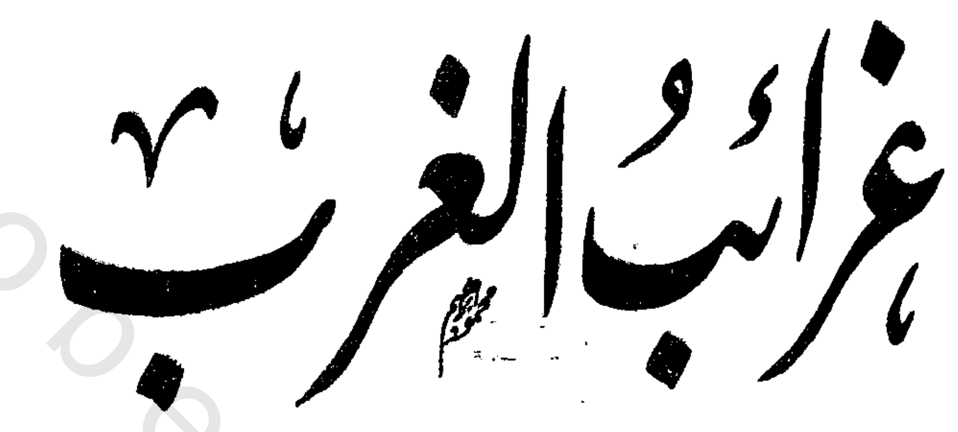


كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني

الناشر
شركة نوابغ الفكر

الطبعة الاولى
1433هـ-2012

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

على ، محمد كرد، غرائب الغرب : كتاب اجتماعى تاريخى اقتصادى ادبى
تاليف / محمد كرد على
طـ1 القاهرة: شركة نوابغ الفكر2012
800ص ، 24 سم
تدمك :1-12-5318-977-978
أ- العالم - تاريخ
- العنوان

ديوى: 909

رقم الايداع: 2012/13511

الرحلة الثالثة

العربية والإفرنسية

٧٠

لما رست بنا الباخرة سفنكس في ميناء الإسكندرية منصرفنا من دمشق إلى باريز (يوم ١٥ تشرين الأول) ١٩٢١ خرجت سيدة باريزية عائدة من سياحة لها قصيرة في القطر المصري فذكرت عند أول حديث ما شاهدته ودهشت به في القاهرة من انتشار اللغة الإفرنسية بين طبقات الشعب وجمهور الغربيين النازلين في تلك العاصمة فقلت لها لا تعجبي فإن علاقة الفرنسيس مع العرب قديمة جدًا يرد إلى أكثر من ألف سنة وبعبارة أصح ترجع إلى القرن الأول للهجرة أيام دخل العرب الجنوب الغربي من أوربا فاتحين واستولوا على شبه جزيرة أبيريا أو إسبانيا.

ولقد سردت على السائحة بعض ما علق في الذهن من علاقة الأمتين إحداهما بالأخرى فرأيت أن لا يفوت هذا الموضوع قراء المقتبس أقدمه بين يدي نجواهم بعد طول العهد بمحاورتهم وعساني أغنم هذه الفرصة السانحة وأحدثهم بما يقع لي في هذه السياحة الثالثة يضيفونه إلى (غرائب الغرب) التي طالما حدثتهم بها لا تزلفا ومصانعة بل حب الفائدة والاطلاع ورجاء أن ننسج في حضارتنا على منوال من سبقونا اليوم أشواطًا في ديار الغرب ونستعيد بعملنا حضارتنا التي أدهشت ابن القرن العشرين وما هي إلا ابنة القرن الثامن والتاسع والعاشر ونشفع عمل الأجداد بما يتلقفه الأحفاد عن أهل الحضارة الغربية الحديثة.

بدأت اللغة الإفرنسية بالانتشار في القطر المصري في القرون الحديثة على عهد دخول نابليون الأول وقد صحبه جمهور من العلماء قاموا بأعمال علمية لا تزال ترددها مصر بالشكر وجميل الذكر على وجه الدهر. ولما افتتح محمد علي جد الأسرة السلطانية الحاضرة القطر المصري واحتاج إلى تنظيم شؤونه كان أعوانه على ذلك علماء فرنسا فأعانوه في تنظيم ري القطر المصري وإصلاح جبايته وإنشاء مدارسه وتأليف جيشه البري والبحري.

وما برحت تلك الروح الشريفة التي بثها علماء فرنسا في مصر على عهدي نابليون ومحمد على سارية في أعصاب مصر حتى يومنا هذا حتى كانت سبب سعادتها وعلى الرغم من احتلال الإنكليز القطر المصري منذ أربعين سنة وحرصهم على نشر لسانهم شأن كل أمة راقية لم يبرح العمل الذي قام الفرنسيس بوضع أساسه في وادي النيل بتسلسل ويجود وجمعياتهم ومجامعهم العلمية ومدارسهم شاهد عدل على ذلك.

ولقد تركت مصر منذ اثنتي عشرة سنة وكان يصدر فيها عشر جرائد يومية باللغة الإفرنسية وتصدر بها جريدة واحدة باللغة الإنكليزية ولكن وجهها الثاني باللغة الإفرنسية ومن هنا يدرك القارئ مبلغ تعلق المصريين باللغة الإفرنسية وكذلك من فيها من النزلاء اليونان والطليان والأرمن والسوريين وغيرهم من أمم البحر المتوسط. فإذا شاهدنا المصريين منذ أول نشأتهم الحديثة يغشون المدارس في فرنسا أكثر من إنكلترا وغيرها من أمم الحضارة الحديثة وإذا شاهدنا لغة فرنسا منتشرة أي انتشار في القطر المصري فلا عجب إذا ادعينا والدليل معنا أن مصر ولأمراء حسنة من حسنات المدنية الإفرنسية كما هي بزراعتها حسنة من حسنات النيل المبارك. ومثل ذلك يقال عن سورية بل عن البلاد العثمانية جمعاء والأمة العثمانية كانت أشد الأمم الشرقية علاقة بفرنسا وعنها أخذت علومها

وبروح حضارتها وسياستها تشبعت منذ عهد سليم الثالث. وكذلك فعلت فارس في القرن الماضي.

تلطفت فرنسا في بث لغتها بطرق مختلفة وأهمها المدارس الدينية والعلمانية التي أنشأتها الجمعيات وأمدتها بالمال وحمتها على ما يجب وأرخصت أثمان كتبها وجرائدها وجعلت عاصمتها مثابة المتعلمين والمسترشدين منذ القديم ولا سيما من سكان الشرق الأقرب فاستحكمت على الزمن علائق الحب بين الأمتين العربية والإفرنسية وأن ما نراه اليوم من الحركة الاجتماعية السياسية في مصر والشام وآسيا الصغرى إن هو إلا من آثار الجامعات الإفرنسية ونور سرى في عقول العرب والترك في هذه الديار فانبعثت منه هذه الشعلة التي نراها ويعجب بها الغرب قبل الشرق. فنور الشرق إلا بعد لعهدنا ظهر في جامعات السكسونيين ونور الشرق الأقرب تجلى من معارف الفرنسيس اللاتين.

ومن الأدلة على توطد الصلات القديمة بين العرب والفرنسيس ومنها كان انتشار لغة هؤلاء بيننا أن العرب أطلقت على أمم أوربا اسم الافرنج أو الفرنجة وهو تحريف (فرنك) Les Franes.

وما الفرنك في الحقيقة إلا الفرنسيس أنفسهم إذ كان للغتهم الكفة الراجحة بين لغات أوربا في الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر فقد ذكر ميشو [١] المؤرخ في كتابة الحروب الصليبية إن الافرنج في سورية لم يكونوا يتكلمون في الحرب الصليبية بغير اللغة الإفرنسية وكان اسم فرنسا في الحروب الصليبية يمتزج بجميع الحوادث العظيمة في تلك الحرب ويسمون المستعمرات التي وراء البحار في هذا الشرق بفرنسا الشرق.

(١) Michand: Histoire des Croisades.

وهذا ولا جرم مبدأ جعل اللغة الإفرنسية لغة دولية رسمية بين أمم الحضارة منذ الزمن الأطول فكانت المفاوضات والاجتماعات والعقود والعهود السياسية والتجارية تجرى باللغة الإفرنسية بينهم وخلفت هذه اللغة اللاتينية في أوربا في هذا المعنى وكان لها المقام الأول إلى النصف الأول من القرن الماضي وقد كانت فرنسا هي المرجع الأول في السياسة الأوربية ولم يكن ذلك بصنع رجال السياسة من أبنائها فقط بل بصنع علمائها وما توفروا عليه من خدمتها أمثال باسكال وموليير وفولتير ومونتسكيو الذين اقاموا دعائم مجدها ودعوا ساسة الأمم إلى الاعتماد عليها في السياسة والتجارة والاصطلاح عليها في المخاطبة والمكاتبة لما فيها من الخصائص ولأنها من بين اللغات الأوربية أكثرهن وضوحًا ومنطقًا وبيانًا ولأن النثر الفرنساوي تام في ذاته لا مثيل له في آداب الأمم الأخرى بشهادة كثير من الألمان والإنكليز.

نعم كانت الإفرنسية وما زالت شائعة عند أبناء الطبقات المستنيرة والشريفة في روسيا وفنلندا والدانمرك وألمانيا والنمسا وإيطاليا والمجر وهولاندا وأسوج ونروج وأسبانيا والبورتقال بل وفي إنكلترا. دع رومانيا واليونان والتشكو سلافاكيا واليوغوسلاف ومصر والجزائر وتونس وغيرها ولم تضعف العناية بها إلا بانتشار فكرة القومية بين الشعوب المتحضرة فأضحت كل أمة تعني بلغتها الوطنية قبل كل لغة وتنقل إلى لغتها جميع ما تحتاجه من العلوم والصنائع عن أشهر علماء الأرض ومع هذا ظل للافرنسية المقام الأول بين لغات الغرب وإن كان الناطقون بالإنكليزية والألمانية أكثر عددًا.

في الأرض مائتان وثمانون مدرسة جامعة، من صنوفها تنبعث منها أشعة المدنية وفرنسا يصيبها من هذا المجموع سبع عشرة [(١)] في أرضها وأربع في البلجيك تدرس بالإفرنسية وأربع في سويسرا كذلك فلغة يتعشقها أهل الطبقات المستنيرة في الأرض وتخدمها في كل العلوم خمس وعشرون جامعة هي لغة حية يحتاج الناس إليها بحسب قربهم وبعدهم عن بلادها وعلائقهم الحاضرة والغابرة بأهلها.

مواطن اللغة الإفرنسية
٧١

انتشار لغة الأمة تبع لحاجة الناس إليها ولسياسة أهل تلك اللغة وتفوقهم في مضمار الصنائع والتجارات. إن تاريخ نشوء اللغة الإفرنسية لا يتجاوز العشرة قرون فمن المؤرخين من يرى أن ذلك يرد إلى معاهدة فردون التي عقدت سنة ٨٤٢ ولكن هذه اللغة لم تؤلف حقيقة إلا في القرن الحادي عشر وكلما كانت سياسة فرنسا تقوى تزداد لغتها انتشارًا ويعتمد عليها في كتابة العقود والعهود والمخاطبات فأصبحت على الزمن لغة علم وسياسة ودامت محتفظة بهذه المكانة إلى أواسط القرن الماضي.

جاء في تاريخ اللغة والآداب الإفرنسية [(٢)] إن هذه اللغة لأسباب سياسية كثيرة ولكثرة مالقيت فرنسا من المصائب واللانتباه العام في روح القومية في شعوب أوربا المختلفة كل هذه الأسباب جعلت من المستحيل

---

(١) أنشئت جامعة باريز في سنة ١١٥٠ وجامعة مونبلية نحو ١١٨١ وجامعة كرونوبل ١٣٣٩ وأكس مارسل ١٤٠٩ وبزانسون ١٤٨٥ وبوردو ١٤٤١ وكان ١٤٣١ وكلرمون ١٨٠٨ وديجون ١٧٢٤ وليل ١٥٣٠ ونانسي ١٥٧٢ وليون ١٨٠٨ وبواتيه ١٤٣١ ورين ١٧٣٥ والجزائر ١٨٤٩ وستراسبورغ ١٨٧٢ وتولوز ١٢٣٠.

(٢) Petit de Julleville: Hisoire de la langue et de la literature française.

بقاء الامتياز الذي كان لفرنسا في القرن الثامن عشر. وإذا بقيت لغة السياسة فذلك أشبه بالسلطان في احتفاظه بالأستانة لأن خروجه منها يولد منافسات كثيرة ولم تعد اللغة التي يضطر الرجل المهذب أن يحسنها كما يحسن لغته.

وما برح الناس من مدريد إلى بطرسبرج يعتبرون تعلم اللغة الإفرنسية من دواعي الظرف والبهجة والفائدة ولئن نازعت اللغة الإنكليزية الإفرنسية في عالم التجارة وأصبح الناس في أكثر المواني البحرية يفهمونها وكذلك انتشرت الألمانية وأضرت في بعض المحال باللغة الإفرنسية وكذلك عم التكلم باللغة الإيطالية في البحر المتوسط فإن الإفرنسية مازالت منتشرة في مستعمرات فرنسا القديمة مثل سان بير ومكلون والكوان لوب والمارتينيك والرينيون ولوزيان وعدد النازلين في تونس والجزائر من أصل فرنساوي ٣٢٢ القاعدا الجيش. وقدر وإسكان كندا الفرنسيس بنحو مليون ونصف وكذلك سكان دومينيك وسانت لوسي وموريس وسيشل.

ومن المتعذر تقدير عدد المتكلمين في أوربا الغربية باللغة الإفرنسية أو باللهجات الإفرنسية ولا يفوتنا النظر أن كل من يسكنون أرض فرنسا لا يتكلمون بالإفرنسية فإن مليوني نسمة من سكانها يتكلمون بلهجات أخرى من أصل جرماني أوسلتي أو إيطالي أو لغة أخرى ومنها جزيرة كورسيكا وفوق ذلك فإن نحو أربعة ملايين نسمة يتكلمون باللغة الإفرنسية خارج حدود فرنسا منهم ٢٠٨٧٧ في البلجيك و٩٠٠٠ في بلاد ماليدي في بروسيا الرنانية و٢١٧ ألفا في الألزاس واللورين و٦٤٣ ألفًا في سويسرا وفي تورين في أودية الألب بضع مئات الألوف يتكلمون الإفرنسية أيضًا وكذلك سكان جزائر الإنكليز النورماندية فإنهم يتكلمون بلهجة نورماندية

بحيث إنه يمكن تقدير من يتكلمون باللغة الإفرنسية في أوربا الغربية بأربعين مليونًا وزيادة.

وهذا العدد قليل بالنسبة للشعوب التي تنمو سكانها نموًّا كبيرًا كالشعوب الأنكلوسكسونية والشعوب السلافية ولذلك رأينا كثيرين من فلاسفة فرنسا ورجال الاجتماع فيها ينادون بتلافي هذا النقص إبقاء على مجد أمة عظيمة عاشت بمعنوياتها كثيرا كما عاشت بمادياتها ومنهم الفيلسوف فوليه في كتابه نفس الشعب الإفرنسية(١) قال: إلى الموانع الحربية والاقتصادية الناشئة من قلة السكان يجب أن نضيف تقهقر لغتنا من العالم فقد كان يتكلم بها في العالم الأوربي ٢٧ في المئة من السكان واليوم لا يتكلم بها في العالم كله سوى ٤٦ مليونا (فرنسيس وسويسريون وبلجيكيون وكربليون وكناديون) في حين يتكلم بالألمانية مئة مليون وبالإنكليزية ١١٥ مليونًا و١٤٠ مليونًا من الخلق لغتهم الرسمية هي الإنكليزية. قال: والتجارة لا تكون خاصة إلا بين الشعوب التي تتكلم لغة واحدة فمن الأسف إن عدد الذين يتكلمون بالإفرنسية ينقص اهـ.

هذا ما قاله عالمان حجتان بشأن انتشار اللغة الإفرنسية ونحن نرى أنها آخذة بالانتشار كثيرا في المستعمرات الإفرنسية وفي البلاد التي لها علاقة سياسية أو تجارية مع الفرنساويين ولكن المسألة الصعبة هي في حل معضلة تناقص نفوس الفرنسويين بالنسبة لجيرانهم وبهذا كتب التفوق لهم فقد قيل كثرة العيال أحد اليسارين.

ومن أجمل ما قاله أحدهم مؤخرا أننا إذا لم نغلب معاشر الفرنسويين بكثرة عديدنا فسنغلب على الدوام بنبوغنا وعبقريتنا. أما لغتهم فتعد في

(١) A. Fouillée: Psychologie du people français.

الطبقة الأولى بين لغات الغرب وإن عرضت لها بعض العوارض كما يعرض للأفراد والأمم فإنها بالذكاء واتخاذ الأسباب تزول وتضمحل.

وبينا أنا أنشئ هذه السطور جاءت الصحف تحمل خطبة للمركيز روبير دي فاليرا أحد أعضاء المجمع العلمي الباريزي (في اللغة الإفرنسية والحرب) قال في جملتها: منذ وجد البشر وأخذوا يتكلمون نشأت لهم ثلاث لغات واستحقت أن تدعى عامة وهي اليونانية والرومانية والإفرنسية فقد قالوا إن اليونانية ترشحت من غناء الأرباب والزيزان Cigales فأصبحت لغة الجمال أما لغة الرومان فقد تألفت من جهاد المطامع التي كانت تنبعث من عمل المقننين والجنود فأصبحت لغة الحكم والسلطة وكانت اللغة الإفرنسية لغة الظرف والعقل المسالم بتساوق نغمتها ووضوح عبارتها. وهذه خاصية غريبة عرفت بها على الدوام ولا شك أن ذلك أتانا من تمازج العنصر السلتي باللاتيني ونعم التمازج وذكر أن شارلكان كان يقول بأنه لو أحب أن يخاطب المولى لخاطبه بالأسبانيولية ولو أحب أن يخاطب النساء لخاطبهن بالطليانية وإذا أحب أن يخاطب حصانه يخاطبه بالألمانية ولكن إذا أحب أن يخاطب الرجال فيكلمهم باللغة الإفرنسية قال فاللغة الإفرنسية هي من بين اللغات اللغة البشرية وبها انتشرت معظم الحقائق على الأرض وبالإفرنسية أعطيت أجمل الوعود وجرى العمل بها.

قال جان جاك روسو أن لغات الجنوب هي ابنة الفرح ولغات الشمال ابنة الحاجة. وقالت مدام دي ستايل أن اللغتين الإيطالية والأسبانيولية هما موزونتان للإيقاع والتلحين بل هما كالغناء الرخيم. والإفرنسية لائقة بالمحاضرات والتخاطب ومناقشات النواب. والنشاط الطبيعي في الأمة الإنكليزية قد أورث لغتها حالة في التعبير تقوم مقام السجع في اللغة. واللغة الألمانية أكثر فلسفة من الإيطالية وأكثر شعرًا متينًا من الإفرنسية

وأكثر ملائمة للقوافي في الشعر من الإنكليزية ولكن يبقى لها نوع من اليبوسة جاءتها على الغالب في كونها لم تستعمل في المجتمع ولا في الجمهور.

علائق العرب بالفرنسيس
٧٢

إن البحث في علاقة العرب بالفرنسيس يحتاج إلى محاضرات طويلة فنقتصر من لباب هذا الموضوع على هذا القدر معتمدين على ما قاله سيديليو صاحب كتاب تاريخ العرب وهو من الذين أنصفوا العرب جدًّا في التفلسف في تاريخهم كما أنصفهم كثير من علماء الغرب ممن لم يتأثروا بالعوامل الدينية والسياسية ولا أعمتهم الأغراض التجارية والاستعمارية.

حدثنا التاريخ أن العرب استولت من أرض فرنسا على إقليم سبتمانيا في الجنوب الغربي من غاليا (فرنسا) على ساحل البحر المتوسط وعلى مدينة ناربون وجعلوها قاعدة أعمالهم الحربية واستولوا أيضًا على مدينة كاركاسون ونيم واتون وبون وسانس وأفنيون وبوردو [١]. ولما أراد الأمير عبد الرحمن أن يستولى على تور قام له بين هذه المدينة وبين بواتيه رجل اسمه شارل مارتيل من أمراء تلك البلاد وصده عن بلاده فتراجع العرب ولو ظفروا في تلك الواقعة لانتشر الإسلام في فرنسا وسرى منها إلى سائر أقطار أوربا.

(١) Sédillot: Histoire générale des arabes.

ثم استولى العرب على مرسيليا وأرل بل وعلى أقليم البروفنس في جنوبي فرنسا ووصلوا كما قلنا إلى بواتيه وهي على ٣٣٢ كيلو مترا من جنوبي غربي باريز حمى شارل مارتيل شمال فرنسا من غارة العرب (٧٣٢ - ٧٣٩م) وترك للعرب إقليم سبتمانيا حيث أقاموا أماكن دائمة وعقدوا عهودا مع أهل البلاد وأدخلوا كثيرا من كلماتهم في الاصطلاحات اليومية في الحياة وكان رجال الكهنوت في تلك البلاد يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين لأن هؤلاء لا يستنكفون أن يستولوا على أملاكهم الكنائسية. وقد أخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسيحيين والمسلمين فتزوجت إحدى بنات الدوج داكيتين من أمير عربي.

ولما رجع العرب عن إقليم سبتمانيا سنة ٧٥٩ احتفظت العرب هناك بأملاكها وبيوتها وعلى عهد شارلمان توطدت العلائق بين العرب وشارلمان ملك فرنسا وتبودلت الهدايا بين هذا وبين هارون الرشيد.

وبينا كان التوحش ضاربا أطنابه على غاليا وجرمانيا كان العرب قابضين على زمام الأحكام في جنوبي فرنسا من جبال البيرينات إلى جبال الألب يحملون من مستعمراتهم إلى بورغونيا وسويسرا في الشمال وإلى التيرول ولومبارديا في الجنوب ما تعلموه من العلوم في مدارسهم.

وفي ذاك العهد انتقلت إلى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل عربية صرفة ويذكر سيديليو أن التعابير الباردة جاءت اللغة الإفرنسية من العربية أكثر من اللاتينية وإن كان في الإفرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية فمن العدل أن يقال إنه كان مثل ذلك

من اللغة العربية قال فالعرب أساتذتنا في العلوم بل في سائر المعارف البشرية.

ومع أن علاقات العرب بالأسبان كانت أكثر من علائقها مع الفرنسيس فإن عبد الرحمن الثالث الأموي كان على اتصال دائم مع أمراء من أسبانيا وفرنسا وألمانيا والممالك السلافية (الصقالية) وكان القصر الملوكي في تولوز (فرنسا) صورة من صور قصر الخلافة في قرطبة يتبارى فيه الشعراء ولما انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ أدخل ما أخذ عن العرب تبدلًا حقيقيًا في باريز من حيث الأخلاق واللغة.

أما الحروب الصليبية (١٠٩٥ – ١٢٩١) فقد ساعدت على هذه الحركة الاجتماعية كل المساعدة واختلط الفرنسيس خاصة بالعرب في الشام ومصر ولا سيما في حملة سان لويس الذي بقي عدة سنين في الشرق وكان لفريدريك الثاني المعاصر لهذا الأمير حرس من العرب ويستقبل في قصره أبناء ابن رشد الفيلسوف وكان علم الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ في كتب العرب.

ولما انجلى العرب عن أسبانيا (١٤٠٣ – ١٥٧١ – ١٦٠٩م) جاءت قبائل عربية كثيرة إلى فرنسا من جديد ونشرت فيها أسماء بيوت جديدة وكذلك كان من فتح الجزائر فإنه أدخل في الإفرنسية ألفاظًا عربية كثيرة ولا شك إن هذه الصلات التي لم تنقطع مدة قرون بين العرب والفرنسيس قد نقلت إلى الإفرنسية عددًا وافرًا من التعابير والمصطلحات الشرقية.

ومن البديهي أن العرب كانوا سادة البحر المتوسط في القرن السابع وبعده فأعطوا الطليان والفرنسيس الألفاظ البحرية وكان الطب العربي أساس علم الطب عند الفرنسيس أخذوه مع كثير من الألفاظ العربية.

وكان ملوك فرنسا من أهل العنصر الثالث يقلدون العرب في كل شيء والعرب نقلوا إلى الغرب علوم أتينة وورومية وعنهم وبلغتهم وصلت إلى أوربا بل إلى أهل المدنيات الحديثة. ويقول الأب لامنس [1] في كتابه ملاحظات على الألفاظ الإفرنسية المشتقة من العربية أن نحو تسعمائة لفظة أخذتها اللغة الإفرنسية عن العربية وأدخلتها في معجمها واستعمالاتها.

هذا مثال صريح من اختلاط الأمتين منذ القديم وكان من أثره تأثير لغة العرب في لغة الفرنسيس ونقل كثير من العادات الشرقية العربية إلى أواسط أوربا وغربها والفرنسيس ولا سيما سكان الجنوب أشبه بالعرب في طبائعهم ومناخ بلادهم. لا جرم أن طول العشرة تؤثر في كل مظاهر الحياة في الأمم ولما كانت الشعوب اللاتينية أقرب ببلادها من بلادنا في أوربا وآسيا أفريقية كانت سابقة الأمم إلى الحضارة ومنها انتقلت هذه إلى جرمانيا وبريطانيا وغيرهما. فكان تأثرنا بها وتأثرها بنا أكثر من غيرنا من أمم الشرق الكبرى كالصين والهند فسبحان المعز المذل المحول المقلب.

الأمراء العلماء

٧٣

دعاني صديقي الأستاذ المسيو كابريل فران من رجال المشرقيات في باريز إلى حضور محاضرة له يلقيها في مجمع الأبحاث الأوقيانوسية. وهذا المجمع العلمي يبحث في كل ما له علاقة بالشؤون البحرية أنشأه من ماله ألبر الأول أمير موناكو وهو من فضلاء رجال البحر خدم العلم

---

(١) Lamneus: Ranarques sur les mois français dérinés de Jarabe.

البحري خدما جلي، ومما قام به إنشاء مسابير (جمع مسبار) لمعرفة أعماق البحار قاس بها إلى تسعة آلاف متر في المحيط الباسيفكي وأخذ ينفق عن سعة زائدة على هذا المجمع وغيره مما يخدم علم البحار وخص بذلك فرنسا لأنه تعلم في مدارسها وتأدب بأدبها وبلاده صغيرة لا تحتمل هذه العناية ومساحتها عبارة عن بضع مئات من الكيلومترات، وأهلها بضعة ألوف من الخلق فقط لا يزورهم إلا قاصدهم.

وأول ما يذهب الذهن إليه عند دخول هذا المعهد الفخم هو معرفة تاريخ إمارة موناكو وأميرها وأفضاله على العلم يخلد بذلك اسمه ويخدم البشر.

ترى ماذا عمل أغنياء الترك وأغنياء العرب للخير العام منذ أربعة أو خمسة قرون إلا إذا كانوا استحلوا أكل الأوقاف وعرقوا لحم الفلاح، ونهبوا أموال الأمة بالطرق المحرمة في العقل والنقل، ومع هذا يحترمهم بعض الأغمار ويسجد لسلطانهم عبيد الدنيا وإن لم ينالوا من أفضالهم ونوالهم وكان من حقهم أن يجبهوهم ويرذلوهم لأنهم كالحلمة الطفيلية في جسم أمتهم يغتذون من دمائها ولا يعطونها واحدًا من مئة ممَّا يجب عليهم إعطاؤه.

يجاد عليكم بأموالكم ... وتعطون من مئة واحدا

وخلاصة محاضرة المحاضر العلامة البحث في البحرية في الشرق، ولاسيما في الصين والهند وجاوه وسواحل بلاد العرب وبحر القلزم والأبيض والظلمات وذكر أيادي العرب على علم البحار في القديم وبعض الأسفار البحرية التي قام بها الملاحون من أجدادنا في القاصية وأثمرت الثمرات المطلوبة إلى أن تطرق في الكلام إلى ذكر ابن ماجد الملاح البصري الذي قام بأعمال بحرية كبرى في عهد الملاح البورتقالي

فاسكو دي غاما الذي كان أول ملاح مهد سبل السير في البحار على الغربيين وقال إن الملاح العربي اجتمع بالملاح البورتقالي وأظهر له نواقص سفينته وعلمه ما لم يكن يعلم.

ولابن ماجد هذا كتاب في الملاحة دخل دار الكتب العربية بدمشق نسخة منه وتكلم عليها في أحد أجزاء مجلة المجمع العلمي العربي، وظفر المحاضر بنسخة منه في مكتبة باريز وهو الآن آخذ بطبعها بالعربية كما ألفها مؤلفها لأنها حوت من الحقائق عن طرق البحار قبل إيجاد البخار ولا سيما في المحيط الهندي وما يلزم للإبحار فيه وما يعترض في طريق سالكه من الجزر والتيارات والأهوية وغيرها ما هو العجب العجاب.

وبعد أن أفاض على هذا النحو تعرض لذكر الخليفة المأمون العباسي وعدد ما له من اليد البيضاء على العلم، وذكر كيف جمع العلماء على اختلاف نحلهم من أقطار البلاد التي كانت مشهورة بارتقائها في عهده للبحث في العلوم والصناعات وعلمهم بعمله التسامح وكيف لما غلب ملك الروم طلب إليه أن يسلمه كتب العلم التي عنده وهو عمل مدهش لم يعهد ملك ولا لحكومة إن طلبت مثله من عدوها في القديم ولا في الحديث، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه في خدمة الإنسانية.

وقال إن عملًا واحدًا ممَّا عمله المأمون أفضل مما ينسب لوالده الخليفة هارون الرشيد من ليالي ألف ليلة وليلة.

ذكر هذا والحماسة قد بلغت منه مبلغها حتى سرى من كهربائيتها شظايا نالت قلوب الحضور في ذاك البهو البديع، وبعد أن استرسل على هذا النحو في الكلام على مدنية العرب، وأن على الأوربيين أن يعرفوهم أكثر مما عرفوهم تفضل وذكر اسم كاتب هذه السطور وذكر له عمله

العلمي في بلاده، ثم علق آمالا على دمشق وسورية وخدمة علمائها للعربية والمدنية ورد على من قال من الإنكليز أن الغرب والشرق لا يجتمعان وقال بل يجتمعان ويتمازجان وينتفع أحدهما بأخيه كما هو حاصل الآن وكلما تعارفا زالت الوحشية وزادت الفائدة والعائدة وختم المحاضرة بعرض بعض صور السفن الشرقية القديمة والحديثة بالفانوس السحري وانفض الجمع وكان من طبقات مختلفة.

قلت وكلام العالم المحاضر على الشرق والغرب خاصة كلام من ذاق وفهم وعاشر وسامر. ومعظم أرباب الفهم من علماء المشرقيات في الغرب على هذه الصورة في تقريب القلوب، ورفع غشاوات الجهل والتجاهل، والأمم لا تتحد إلا باتحاد المقاصد وبالتساند والتعاضد والشرقي محتاج إلى الغربي والغربي كذلك وهذا لا يتم إلا بالاختلاط، وأخذ المتأخر عن المتقدم ما تشتد حاجته إليه من العلوم والصناعات.

احتفال الفرنسيس بالأدب والعلم

٧٤

في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢١ احتفل المجمع العلمي الفرنساوي تحت قبة مازارين المشهورة وهي مقره في مدينة باريز بقبول المسيو جوزيف يديه عضوا في المجمع العلمي خلفا للمسيو أدمون روستان المتوفى منذ ثلاث سنين وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من العلماء والأدباء والسادة والقادة والأوانس والعقائل من أهل هذه العاصمة لا يقل عددهم عن ثمانمائة إنسان وكان في جملة الحضور المسيو ميلران رئيس الجمهورية الإفرنسية بصفته أحد

أعضاء مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية لا بصفته رئيسا للجمهورية، وجلس على كرسي الرئاسة المسيو بارتو مدير المجمع العلمي. وناظر الحربية والمسيو فريدريك ماسون أمين سر المجمع الدائم، وجلس أعضاء المجامع الخمسة في مقاعدهم ناحية.

تكلم العضو الجديد أولًا فذكر طرفًا من منشأه. ثم أفاض في بيانه ما شاء وشاءت الإجادة وعدد أيادي سلفه الشاعر روستان على الأدب، وما كان من إحسانه في شعره ورواياته الشخصية التي أدخلت في التمثيل الفرنساوي روحا جديدة أقر بها أكبر النقاد والباحثين من أهل العلم حتى من كانوا يقاومون سرًا شهرة الشاعر ويضعون العثرات في سبيل نبوغه.

ولما استرسل على هذه الصورة من تحليل روح سلفه الشعرية والأدبية، وأورد شيئًا قليلًا من قصصه وأشعارة ومراميه السامية جاءت النوبة للمسيو بارتر فأجاب العضو الجديد معددًا له خدمة العلمية ونشأته ومن تخرج به من الناشئة منذ عشرين سنة وهو أستاذ في مدرسة دار المعلمين العالية ثم أستاذ في كوليج دي فرانس، ثم تطرق إلى ذكر الشاعر روستان وأشار إلى حسنات أخرى له وحلله من وجهة ثانية تحليلًا كيماويًا أدبيًا ببيان هو آخر ما وصل إليه البيان الفرنساوي بعد معالجة أهله له عشرة قرون.

دهشت وأيم الحق بما تلا العالمان من خطابيهما اللذين تمثلت لي فيهما الآداب الفرنسوية بأجمل مظاهرها والبلاغة الحقيقية التي أخذت بأهداب الموضوع من عامة أطرافه فكان اللفظ في كلامهما على قدر المعنى والتفنن في الإبداع بالغا الغاية في النيقة، وقد حوى كلامهما من جمال الأسلوب وسحر البيان ما يشهد لهذه الأمة بأنها سابقة الأمم الغربية بأسرها في البيان والتبيان.

سمعت ما تلاه الخطيبان وقرأته في المساء بحرفيته بإمعان وكنت أود لو أعربه لقراء المقتبس لولا أن فيه جملا تحتاج إلى شرح حتى يدرك المقصد منها من لم يتأدب بآدابهم من أبناء العربية على أن ترجمته بلساننا تستغرق أعمدة أربعة أعداد من هذه الجريدة على الأقل.

تمثلت لي في هذه الجلسة التي دامت نحو ثلاث ساعات حالة الأمم الغربية في الثبات وتسلسل الفكر وتقديس الخلف لما قام به السلف فهذه المجمع المؤلف من أربعين عضوًا ويسمونهم «المخلدين» ما زال يعمل على إحياء اللغة وخدمتها منذ نحو ثلاثة قرون يجتمع في قصره المنيف محافظا عليه كما كان على عهد إنشائه وله من ريع أملاكه ثروة طائلة وكلهم يسيرون سيرًا واحدًا ويضربون إلى هدف واحد في خدمة لسانهم ولا يزون من أمتهم إلا التنشيط ولا من الحكومات التي توالت عليهم إلا العطف والحرمة. تمثلت هذا وتمثلت مجمعنا العلمي العربي في دمشق وما لقي من الحكومة العربية ومن بعض السخفاء لأول مرة من ضروب المقاومة والسخرية فقلت وهذا أيضًا سر من أسرار الخالق في خلقه يقضي على الأمم المريضة بعقلها في أيام محنتها وسعادتها أن تنكر المحسوسات وتجادل في البديهيات وتستعدي الصاحب والعشير. والجاهل عدو نفسه.

لم أكد أفرغ من هذه التصورات حتى حملت الصحف نبأ مفاده أن رئيس الجمهورية غادر باريز إلى مونبليه في جنوب فرنسا ليحضر الاحتفال بمرور سبعة قرون على جامعة مونبليه الطبية فاستغربت هذه المصادفة لأن جامعة مونبليه هي ابنة العلم العربي فلنا فيها حصة معاشر العرب لا في بنائها ولا أملاكها ولا في عروضها وخرثيها وكتبها وأدواتها بل في وضع أساس علم الطب فيها وغيره من العلوم المادية التي كان

فيها العرب أيام عزهم سادة الأمم كافة وكانت الأرض تقتبس منهم ويفاخر الأذكياء بالأخذ عنهم.

نعم إن علماء العرب والإسرائيليين الذين قرأوا على عرب الأندلس العلوم الطبيعية على ما كانت معروفة به في القرن الثاني عشر للميلاد هم الأولى أدخلوا إلى مونبليه كما حملوا إلى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وغيرهما بضائع العلوم المختلفة التي خاض فيها العرب وبرزوا وهذا الرأس المال قليلًا كان أو كثيرًا هو الذي نماه أبناء الغرب فارتقى إلى الصورة التي نراها عليها اليوم ولولا العرب لتأخرت مدنية الغرب قرونًا كثيرة بعد وربما ظل إلى اليوم كأنه في ظلمات القرون الوسطى.

كثير من باباواتهم وكرادلتهم وأساقفتهم وقساوستهم كانوا يأتون الأندلس ويحضرون العلوم المختلفة على علماء العرب ويرجعون إلى بلادهم يبشرون بها ومنهم من ارتقى إلى كرسي البابوية بفضل ما لقفه عن العرب وكم من كتاب عربي في علم شريف كالعلم الطبيعي والرياضي والفلك والكيمياء اتصلت بأهل الغرب ترجمته اللاتينية ككتب «كرمونة» الطلياني وفقد اليوم أصلها العربي وياللأسف أما الإسرائيليون الذين كانوا يومئذ في أوربا محقرين مضطهدين فقد كان لهم عند عرب الأندلس مكانة وأي مكانة فجاء منهم نوابغ أيضًا خدموا العلم وأخذوه عن العرب وبشروا به في بلاد الغرب.

فإذا قال بعضهم اليوم إن علم الطب الذي أخذته جامعة مونبليه عن العرب منذ سبعمائة سنة كان مؤلفًا من تقاليد شرقية ومن بقايا الكتب التي نجت من حريق مكتبة البطالسة ففي قوله الفخر أيضًا لنا ويكفي أن كلام أبقراط وجالينوس لم يبلغهم إلا من طريقنا وبلغتنا فترجمه أطباء يهود من العرب وعلق عليه ابن سينا وابن رشد والرازي وابن زهر. وجميع المادة

الطبية التي أخذها الغربيون عنا كانت مدة القرون الوسطى بل دامت إلى القرن السابع عشر مادة تدريس الطب فكانت مونبليه تقرأ بها العربية لتفهم العلوم المكتوبة بها!

فإذا فاخرت جامعة مونبليه اليوم بتعداد نوابغ رجال الطب والعلم فيها وعددت غناها بأبحاثها العلمية ومبادئها وحياتها وأنها أول جامعة في أوربا أحدث فيها قصر للتشريح وحديقة للنبات فإن هذا الفخر ينالنا منه ولا شك نصيب عند المنصفين ولكن ما الشأن الآن فينا وماذا ينفع الفخر إذا لم نكن نحن اليوم بأخذنا عن الغربيين ما أسلفه أجدادنا إليهم من العلم عاملين على أن نمثله بل نمضغه ونهضمه ونخرج به علمًا جديدًا فلا نكون مقلدين بل مقلدين أو مجتهدين معًا. وعقل البشر ما سدت عليه منافذه وفضل الله لم ينحصر في شرقي ولا غربي بل فيمن يعلم ويعمل. فهل يتعلم قومي يا ترى حتى ينبغ فيهم أمثال أعضاء المجامع العلمية في باريز وأساتذة جامعة مونبليه حتى يضعوا اسمنا في قائمة الأمم المتحضرة الحديثة.

كتب مؤخرًا أحد كتاب أسوج كتابًا سماه سر الحكمة الفرنساوية عدد فيه أهم الصفات التي اشتهر بها الفرنساويون فقال (١) الذكاء وسرعة الفهم (٢) العشرة اللطيفة والإنسانية (٣) فكرة الأسرة (٤) الفردية وحب الذات (٥) تصلب الرأي (٦) حب الاقتصاد (٧) احترام المرأة.

صفحة من تاريخ فرنسا (١)
٧٥

عرفت معظم أمم أوربا بالتنقل في البلاد من القديم، وزاد فيها هذا الخلق مع الحضارة زيادة كبرى. وكلمَّا استفاضت الحضارة كان التنقل أكثر وأفيد. ومن الناس من يحب الهجرة، فإذا نزل بلدًا ليصرف فيه ابتغاء الكسب أشهرًا أو أعوامًا، يستميله حب ذاك البلد فيقيم فيه، وربما اتخذه بعد ذلك وطنه، ونزل في سبيل حبه عن مشخصاته ومقوماته، وتلبس بعادات الأمم التي نزل عليها، وتعلم لسانها وأصبحت عاطفته مع الزمن عاطفة أهلها. والشعوب الأنكلوسكسونية أكثر حبًا للهجرة والاستيطان في أرض الغير من الشعوب اللاتينية ولاسيما الشعب الإفرنسي منها الذي عرف بأنه أقل الشعوب هجرة وسياحة لجمال بلاده وحبه لها ولأنها بلاد عريقة في المدنية حوت كل شيء. ومنذ عهد الحروب الدينية لم يعهد أنه هجر أرض فرنسا عشرات الألوف من الفرنسيس صبرة واحدة كما فعلوا يومئذ وراحوا يهاجرون إلى أرض وجدوا فيها منفذًا لحريتهم الوجدانية.

لا يكفي الإنسان أن يعيش ويسمن وأن ينتقل من مسكنه فمن فطرته أن يتحرك وينتقل. هو في حاجة إلى الحركة واستعمال رجليه ليذهب إلى القاصية يرى غيره ويحادثهم ويأخذ عنهم أمورًا ويقايضهم لا في أصناف السلع والبضائع فقط بل يتبادل وإياهم الأفكار والعواطف. ينتقل ليستعمل

---

(١) اعتمدنا على كتاب زهرة التواريخ الإفرنسية لهانوتو Hanotaux: La fleur des Histories françaises أو على كتاب التاريخ العام للأفيس ورامبو Lavisse et Ram Band: Histoire generale وعلى تاريخ الحضارة لسينوبوس Seignobses: Histoire de la civilisation.

قوته العاقلة وينمي موارده ويوسع دائرته. البشر سواء كانوا منظمين أهل أوضاع وشرائع أو همجًا لا يدخلون تحت نظام وسواء دعوا قبيلة رحالة أو أمة ساكنة شأنهم شأن الفردقان الشعوب تنهض وتضرب في طول الأرض وعرضها لترى ماذا كان فيها وما يكون.

كان الغاليون أجداد الفرنسويين مولعين بالحوادث يركبون الأخطار لنيل الفخار ولم يكن العالم القديم في نظرهم من السعة بحيث يكفيهم في حملاتهم ورحلاتهم ولا عجب فهم من نسل أولئك الشعوب الرحالة التي انتقلت من سهول آسيا وكانت العالم القديم من عامة أطرافه وقد نقلوا إلى أخلافهم هذا الدم المتحرك في أجسامهم ومن القبائل من يحب الاعتصام وراء جباله ومنهم من يحب الاستكانة على سواحله والفرنسيس يحبون الأرض والبحر على السواء. وقد تجلت فكرة التنقل تجليًا غريبًا في الحروب الصليبية فلم يستهو ذلك الفرنسيس فقط بل استهوى معظم أمم أوربا وكثرت العوامل التي قادت إلى هذه الحروب وأدت إلى غزوة الغرب للشرق على تلك الصورة دهرًا طويلًا. وكيف كانت الحال فإن من هذه الحروب بدأ انتشار الفرنسيس في الشرق وعرف أهله وعرفوهم.

ولما رجع الفرنسيس في إحدى الغزوات الصليبية من سورية دعتهم في الطريق مدينة سالرن إلى الأخذ بناصرها وتخليصها من أيدي العرب الذين كانوا أخذوا بمخنقها فهب منهم رجلان مهذبان من أهل نورمانديا وهما ولدا تنكريد دي هوتفيل: روير لافيزي وروجر فأعانوا القوم على تحريرهم ثم انصرفوا ولما كانوا قد تذوقوا جمال تلك البلاد المنيرة عادوا إليها وأسسوا فيها ملكا طال عهده قرنين وبواسطتها عرف في صقلية وإيطاليا الجنوبية اسم فرنسا وأخلاقها وعلومها كما عرفت في الشرق كله أو شرق البحر المتوسط وأصبحت بلرم ومسينا ونابل الإيطالية اليوم مدنا أفرنسية أمس وترى في بعض بيع صقلية الهندسة الغوطية إلى جانب

الهندسة اليونانية القديمة ومعها الهندسة العربية والهندسة البيزنطية وقد تركوا أسماء أفرنسية وشارات أفرنسية في تلك الأرض التي هي أول ما استعمره الفرنسيس.

أتت عدة قرون والمسألة الإيطالية والصقلية والنابولية كانت مما يهتم له ساسة الفرنسيس ودام ذاك إلى عهد حروب إيطاليا التي جمعت مصالح الشعبين الإفرنسي والإيطالي وأجمعا على مقصد واحد في المدنية وقاما بما سمي «النهضة». إن النورمانديين وهم ملوك البحر لم يقتصروا على دائرة خاصة في تطوافهم وفتوحهم بل كانت سفنهم منذ أوائل العهد الأطول للقرون الوسطى تمخر عباب البحار الأسبانية والبورتقالية وتجتاز جبل طارق وتسير مع شواطئ أفريقية فغرفوا جزائر آسور وكناريا والرأس الأخضر وقيل إنهم أسسوا مراكز تجارية لهم في شاطئ الذهب وشاطئ العاج حيث قامت في العهد الحديث مستعمرات أفرنسية مهمة حتى لقد ادعى بعضهم إن هذه الرحلات البحرية التي وصلها النورمانديون الفرنسيس قد سبقوا بها خريستوف كولمبس فاتح أميركا إلى معرفة العالم الجديد ورأوا أرضًا وهم يشقون العباب على سفنهم الشراعية.

ومن المحقق أن أحدهم جان دي بيتانكور احتل سنة ١٤٠٢ جزائر كناريا باسم ملك فرنسا ولكن حرب المئة سنة في فرنسا قطعت الرغبة في مثل هذه الأعمال. ولمّا كشف فاسكو دي غاما الملاح البورتقالي طريق رأس الرجاء الصالح وخريستوف كولمبس الجنوي قارة أميركا، فكشفا بذلك طرق العالم الجديد الكبرى كانت فرنسا مستعدة للدخول في هذا العراك.

كانت المدنية إلى ذاك العهد محصورة في عبر البحر المتوسط فقط، وقامت المدنيات القديمة، وعاشت على ضفافه وفي القرون الوسطى

كانت رومية مركز الدائرة العقلية والأدبية في الأرض وموانى البحر المتوسط برشلونة ومارسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وسيطات التجارة مع بلاد الشرق.

وعلى عهد النهضة انبعثت المدنية الحديثة من شبه جزيرة إيطاليا التي ورثت مباشرة تقاليد بيزانطية وتراثها وما لبث القوم في أوربا أن عرفوا بوجود أراضي واسعة وراء ما عرفوه من الشرق ومن بلاد الهند التي طالما طمع فيها الطامعون وأيقنوا أن وراء البحار جزائر وقارات ثمينة وسكانا ودعاء ينزلون بلادًا كثرت فيها مواد القوى الطبيعية وأصبح معينها فائضًا لا ينضب. ولما عاد أرباب الرحلات الأول من تلك الأصقاع النائية ذكروا لقومهم عظمة البلاد التي رأوها متجلببة بجلبات الغنى والسعادة وحدوثوهم عن الأنهار العظمى وما تظل من البقاع البكر وعن وفرة المناجم وغناها وعن سهولة العيش في تلك المشاهد الغريبة.

ولم يمض زمن طويل حتى قامت الأساطيل التي كانت حصرت وكدها في التطواف فقط في الأبعاد المحدودة في البحر المتوسط تطوف في بحر الظلمات والبحر الغربي كما كان الأوربيون يعرفونه. ففتحت في العالم طرق عريضة للعمل واستسهلت المخاطر والرحلات الطويلة التي تحتاج إلى كثير من الأقدام واقتحام العظائم واقتضى لتلك الثروات الجديدة رجال جدد وعقول جديدة. فعلى شواطئ ذاك المحيط قبالة تلك القارة التي ظهرت من العدم إلى الوجود نشأت ونمت بطول العراك والنشاط العظيم شعوب قوية بعيدة مجرى الهمم طموحة إلى العلاء والنماء فكان للأسبانيين والبورتقاليين المقام الأول المحمود في هذا الشأن ثم للفرنسيين والإنكليز ثم جاء الهولانديون والألمان وكلهم من سكان شواطئ بحر الظلمات وبحار الشمال فكانوا على استعداد لاجتياز البحار إذ كانت هذه أملاكهم وعلى ضفافها بلادهم وكانوا عرفوا طرقها

أيام تشرد بعض أبنائهم في أسفارهم البحرية فأخذوا يقذفون بأنفسهم في تيار هذا المعترك فما عتموا أن احتلوا أرض خريستوف كولمبس التي أحرز أمريكو فيسبوسي الملاح القلودنسي شرف نسبتها إليه (أميركا) فأنشأوا فيها أممًا جديدة، وأحدثوا مدنيات هي بنات علومهم وآدابهم، وهكذا قبضوا على قياد المسائل العظمى بين البشر.

وبينا كان الفتور يعرو الأمم البحرية ويضجرهم العمل حتى أوشكوا أن يتركوا خوض البحار ويزهدوا في البحر المتوسط وخوض لججه قام مهندس أفرنسي مسوقا بنابل من نبوغه وقريحته إلى فتح ترعة السويس، فوصل الشرق بالغرب وعادت قوى الأمم إلى نشاطها، وأخذت كل أمة تفكر بإيجاد مملكة لها على البحر كما لها مملكة في البر. وكان للفرنسيس في ذلك شأن عظيم. ففي سنة ١٥٠٣ اكتشف ملاح نورماندي فرنساوي البرازيل وفي سنة ١٥٠٦ وصل ملاح فرنساوي آخر إلى الأرض الجديدة وفي سنة ١٥٢٩ وصل آخر إلى صومطرا وقد طاف أمثال هؤلاء الملاحين جميع شواطئ أفريقية، واستعمر الفرنسيس الأرخبيل الفرنساوي، ثم استولوا على كندا، ومع كل هذا فإن البورتقاليين والأسبانيين ثم الإنكليز والهولانديين قد كتب لهم النجاح في مستعمراتهم أكثر من الفرنسيس. فإن هؤلاء لم يستطيعوا لاختلاف كلمتهم في الداخل أن ينشئوا ممالك باقية لهم كما فعلت الأمم البحرية الأربع.

بدأت فرنسا باستعمال السنيغال وسيراليون وشاطئ العاج ورينيون وجزيرة موريس في أفريقية وبعض أجزاء الهند في آسيا وجزائر الأرخبيل وكويان ولوزيان وكندا وذلك في أوائل القرن الثامن عشر: وأظهر بنوها استعدادًا للاستعمار من المفاداة والجرأة والعمل حتى صح أن يقال أن كل حفنة من تراب تلك البلاد جبلت بدم أفرنسي لأنها كانت تكره نزول

الغرباء عليها، حتى إذا انتصف القرن كان ريع تلك المستعمرات عظيمًا جدًّا.

وكان من نتائج اشتغال فرنسا بحروب لويس الخامس عشر أن فقدت مستعمرتين عزيزتين عليها كندا والهند، وذهب عمل أبطالها وعقل علمائها ومنظميها أدراج الرياح. ولما شغلت بالثورة لم تضع الأزمة أوزارها حتى لم يبق لفرنسا بحرية يعتد بها وفقدت زهرات من مستعمراتها.

وفي القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيس بالانتشار في الأقطار وصحت عزائمهم على الاستعمار فبدأوا باستعمار الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ فافتتحوها عقيب حروب هائلة مستخلصين لها كما قال هانوتو من شعب صعب القياد لا يخضع ولا ينقاد، ثم خفق العلم الفرنساوي على خاليدونيا الجديدة وأرخبيل تاهيتي في المحيط، وأخذت فرنسا الكوشنشين من مملكة أنام سنة ١٨٦٣ وعلى عهد الجمهورية الثالثة الحالية تم امتلاك الجزائر بالاستيلاء على تونس. وانضمت إلى مستعمرة الرينيون الحقيرة بلاد مدغسكر وأراضي الأرخبيل المحيطة بها ثم كومور ومايوت وتوسي بي وأضيفت إلى خاليدونيا الجديدة بلاد الهبريد الجديدة، وانضم إلى الكوشنشين كمبودج وأنام والتونكين إلى حد مكونج، لا جرم أن أهم مستعمرات فرنسا هي على مقربة منها في شمالي أفريقية، فإذا تم لها استصفاء مراكش مع ريفها خفق علمها على جزء عظيم من بلاد العرب في الغرب الأقصى والأوسط والأدنى، واتصل ذلك بمستعمراتها في داخل أفريقية وغربيها فتنشر بذلك تجارتها ولغتها وأخلاقها وأمجادها وتكثر بأهالي تلك البلاد سوادها.

إذا ألقينا رائد الطرف على تاريخ فرنسا نجدها ظهرت في مظاهر الحياة في حالتي بؤسها ونعيمها ولما تمت لها وحدتها واستدارت رفعتها واتسعت في القاصية مملكتها رأت كما قال مؤرخوها أن المرء لا يعيش منفردا بل هو يريد أن يحب ويحب وأن الكامل من صدر عن كرم ودعته الحاجة إلى التفكر في خير الناس وأكثر الشعوب قوة من إذا آنست من نفسها ذلك رأت دافعًا منها يدعوها لأن تعمل ما حولها وأن تنشر في الخارج شيئًا من مواردها وأن تفيض ذروًا من فضل نشاطها الذي غرسته الطبيعة فيها، قالوا: ولطالما تكرر لفرنسا بل ربما أتت ذلك مئة مرة في خلال القرون الماضية أن أثبتت شجاعتها الأدبية بأن خفت إلى معاونة الشعوب الضعيفة والمغلوبة ومن خانها نكد الطالع وسوء البخت فافتقرت وتقطعت أوصالها فقدمت إليهم معاونتها المادية وبذلت نحوهم عواطفها وكثيرًا ما كانت تهب دفاعًا عن عاطفة أو تأييدًا لفكر وقد انتقدتها الأمم الأخرى على هذه الأخلاق وعدوا ذلك فضولًا منها ودخولًا فيما ليس من شأنها وكثيرًا ما كان ذلك يضر بها ويجلب نفعًا لغيرها ولكن هذا الخلق على ما يظهر طبيعي في الفرنسيس فقد فطروا على حب الدعاية وبث الدعوة لما جبلوا عليه من حب التآلف والميل إلى الأنس والتعارف.

حب العشرة حاجة من حاجات القلب والسعي في التقرب ممن لا يعرفك هو مبدأ حبه لك وحبك له ومن عادة الذكاء الإفرنسي أن اشتدت حاجته إلى التفاهم والاتصال بالغير ولذلك زعموا أن من أول امتيازات اللغة الإفرنسية أن كان فيها من الوضوح والجلاء ما ليس في غيرها من لغات الغرب. وما دام الفرنساوي لم يستول على قلوب من يحفون به لإشراب قلوبهم ما يعتقده حقًّا فإنه يفتش على أساليب فعالة لإفهامهم ما يراه هو بنفسه فالرجل الفرنساوي إذا كانت له عقيدة لا يكون سعيدًا إلا

إذا شاركه في ذلك من يحب من الناس ولذلك كثرت أسماء الفرنساويين في قائمة المجاهدين في سبيل بث فكر أو نشر مذهب في كل قرن وتجلى ذلك في القرون الوسطى فامتزج في أجدادهم حب الإيمان بحب التنقل في البلدان فكانوا يحجون الأراضي المقدسة ويزورون المعتقدين بحسب عرفهم. وكان لرومية والقدس وسان جان دي كومبوستل ولورد وغيرها نصيب وأي نصيب من تلك الزيارات كما تزور الأمم اليوم باريز ورومية وآثينة لأنها مهد مدنيات عظمى. وكانت هذه الرحلات في القرون الوسطى من أعظم الأسباب في التواصل والتعلم والتحسن فيلتقي الناس على الطريق ويتفاهمون ويقص بعضهم على بعض أمورًا ويأخذ أحدهم عن الآخر أشياء. ومن الأغاني القديمة نشأ في الفرنسيس الميل إلى طرد العرب من أرض فرنسا بعد أن استولوا منها على شطر عظيم. من التغني بتلك الأغاني أولع قومهم بالحج إلى بيت المقدس وقبر المسيح وأثرت فيهم مواعظ رجال الكنيسة والرهبان الذين رأوا أن ينشئوا في عالم النصرانية مذهبًا أدبيًا واحدًا باسم الكثلكه الرومانية بتلك الأغاني استعدت الأفكار للقيام بحملات في القاصية ولا سيما على المسلمين وبذلك نشأت الفتوة والفروسية فيهم والقسورة عندهم هم الذين يفادون بمالهم وراحتهم وحياتهم ليقوموا على الأرض بعمل عظيم من الشجاعة والعدل وطيب السريرة ثم فسد هذا المثال من الرجال ولكن كان في إبان انتشاره من أشرف ما تطمح إليه النفس البشرية من مظاهر الشرف والفخار على رأي هانوتو إذ كان واحدهم يرمي إلى مقصد عال من خدمة الدين والعطف على اليتامى والمنهوكين والأخذ بأيدي المقهورين والعاثرين. وسرت العدوى عدوى التجنن بالصليب في فرنسا كما وصفها كتابهم واستولت على أفئدة السذج وكان داعية ذلك بابا أفرنسي الأصل اسمه أوربانوس الثاني وراهب وهو بطرس الناسك وهما اللذان أوقدا جذوة الحروب الصليبية وجمعا الناس في فرنسا لغزو الأراضي المقدسة

وسكانها فهرعوا ألوفًا ألوفًا وقضوا في الوصول إليها زرافات ووحدانا وبعد سنتين فتحوا أنطاكية ثم بيت المقدس وغيرهما وكان معظم الأمراء الذين استولوا على شطر من سورية من الفرنسيس ولكن عرضت لهم معايب ومصاعب اضطرتهم بعد سنين طويلة إلى أن يرجعوا أدراجهم ولو كتب لهم البقاء لكانت دعوتهم في البلاد التي غزوها سرت من ذلك الحين بيد أن قواتها خانتهم ومن وراءهم من الأمم لم تمد إليهم أيدي المعونة ورفعت فرنسا صوتا مرات في حمل الأمم الغربية على مناصرتها فلم تفلح فلما جف لديها معين الإقناع لم تر إلا الرجوع ونادت بالرحيل.

ثم جهزت حملة ثانية بدعوة القديس برناروس وبمعونة ملكهم لويز السابع الفرنساوي وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا فأخفقت أيضًا وهكذا اشترك الفرنسيس في الحملات الصليبية الثمان التي حملها الغرب على الشرق. وكانت السابعة والثامنة بقيادة أعظم ملوكهم القديس لويس الذي كان يرى أن يهاجم القوة الإسلامية في أهم حصونها أي في مصر وتونس لا في فلسطين وسورية فاستولى على دمياط ومصر وغلبه المسلمون في المنصورة وأسروه في تلك الوقعة ولم يطلق سراحه إلا بإرجاع دمياط ثم جهز حملة قوية سنة ١٢٧٠ على تونس وهلك هناك بالطاعون ولكن الفرنسيس لم ينسوا تونس فجاؤها سنة ١٨٨٠ يجددون ذكر ملكهم الشجاع التقى في نظرهم الذي عبد أمامهم الطرق إلى فتحها.

وبعد قرنين استخلص العرب من الصليبيين بلادهم في سورية وأبلى الفريقان في ذلك بلاءً حسنًا وبذل الفرنسيس خاصة دماء وشجاعة وبسالة وإقدامًا. وقد عادت هذه الحروب على شعوب أوربا بالفوائد العظيمة فحركت دمها ومازجت بين عالمين وعرفت قصور مدنيتها وأدركت أمورًا من مدنيات قديمة واتسع أمامها مجال العمل والإقدام وكان في تجدد الحملات الصليبية تجدد النهضة وكان الاشتراك بها يعد من الكمال

البشري لأن الإنسان قلما فادى بحياته في سبيل غاية كل هذه المفاداة المخلصة وكان لفرنسا المقام الأول في هذا الباب لما أحرزت من المجد فانتشر أبناؤها على شواطئ البحر المتوسط وتنقلوا من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب وبينا كان الفكر الديني هو العامل الأقوى في الفرنسيس على عهد القرون الوسطى جاء دور النهضة العلمية ويطلقون اسم «النهضة» على العصر الذي جاء بعد القرون الوسطى مباشرة وليس معنى ذلك أن القوم قطعوا ما بينهم وبين الماضي من الصلات وطلقوا الغابر ليأخذوا بأهداب الجديد الحاضر فإن ذلك صعب والتاريخ كالطبيعة لا يعمل طفرة ولا ركضًا وعمله تدريجي. وقد اختار من سبقوا من الكتاب أن ينعتوا ذلك العصر بعصر النهضة لأنهم كانوا مأخوذين بلطفه الذي يشبه الربيع فإن البذور التي رقدت طويلًا في الأرض أخذت فجأة تقوى وتنمو فانبعثت المدنية كما تزهر الأشجار في آذارها وكان العامل الأقوى في هذه النهضة استمتاع الناس بحياة حرة أكثر من العصور السالفة وتمتعهم بعيش طيب فيه البذخ والرفاهية. مظاهرات إلى ارتقاء الفكر ارتقاءً محمودًا وإلى الإبداع في التصوير والنقش.

خلصت القوميات في أوربا من قيودها. وإذ كان عمل الجماعة أقوى وأثبت أو أشد إحكامًا مما كان عليه في القرون الوسطى أصبح الميدان فسيحًا لعرض الأفكار الحرة والمقاصد التي تحتاج لتعمل إلى زمن ولم يعد الأشخاص فقط ولا جماعات خاصة ولا المدن ولا النواحي تعمل وتستحصل مشتركة بل كان العامل في ذلك الشعوب والأوطان وكانت المدنية ترمي بحد ذاتها إلى مقاصد فتحت لها منافذ واسعة إلى العالم والمستقبل وأخذت الأمم يختلط بعضها مع الآخر ويتبادلون الأفكار والاكتشافات وقد استفاضت في حوض البحر الأبيض خصوصًا تجارة مهمة عقيب الحرب الصليبية وسكنت بعض السكون نفحة الطوائل

والشارات بين جميع الشعوب البحرية سواء كانوا كاثوليكا أو روما أو مسلمين. وكانت بين مدن البندقية وبيزا وجنوة ونابل وبلرم ومارسيليا وبرشلونة وبين الأستانة والأسكندرية وتونس والجزائر صلات مستديمة وكان تعليم الملاحين في البحر المتوسط متحدًا ويتكلمون لسانًا واحدًا وكانوا حيث يحلون يعثرون بآثار فخيمة من عظمة القدماء وهم اليونان والرومان. وأخذ الناس في كل مكان يتغالون في أوربا بإقامة البيع وإعلاء قبابها ونصب التماثيل وأعمال العمران من ملاعب وميادين وحجار وموان وعمد وأروقة وأهرامات. وأنشأ أهل الشمال يجلبون صنائعهم الهندسية وعلومهم العملية يمزجونها بما لدى سكان الجنوب فظهر من ذلك نور أخذ بالأبصار أو كاد وحصل من ذلك صنائع سموها بضائع النهضة وكانت النهضة إيطالية باديء بدء ولكنها تأثرت بمؤثرات سكان الشمال فنشأ في إيطاليا من نوابغ المهندسين والمصورين أمثال ليونارد دي فنسي وميكل آنج ورافائيل لم ينبغ في جميع الأمم الأوروبية أمثالهم في عصرهم ولا في الذي بعده.

ولم تكف في قيام صنائع النهضة مسجة (ملعقة) البنائين ولا ريشة المصورين ولا مقراض النقاشين. بل زاد ولوع الناس بالتعلم والحكم على الأشياء بفهم وأخذوا يتطلبون من كل مكان الكتب وكانت نادرة ثمينة بحيث بنيطونها إلى سلاسل في خزائن الكتب القليلة التي كانت تجعل فيها وكان تطلب الكتب عامًا والأسفار إلى ذاك العهد تنسخ ببطء واحدًا بعد واحد لتحفظ في قلايات الأديار ويخص بمطالعتها الملوك وكبار السادة والأعيان أو أغنياء الرهبان، أما الطلبة ومحبوا الاطلاع فكانوا يكتفون بتلقيها وتلقينها بالكلام أو بالتصوير.

والعالم طامح إلى التعلم والمعارف. وفي هذه الأثناء اخترع غوتنبرغ الطبع فكثرت المؤلفات والكتب وتناولتها الأيدي بسرعة فوحدت الأفكار

والذكاء البشري ووسعت العقل فتوسع العالم. وبينا كان غوتنبرغ يخترع الطبع كان فاسكو دي غاما وخريستوف كولمبس يكتشفان أميركا. فاشتركت فرنسا في هذه النهضة المباركة العجيبة، ونزلت في الميدان الذي فتح أمام الذكاء الغربي وبينا كانت البندقية وجنوة وبيزا في إيطاليا آخذة بالانحطاط كانت بوردو ولوريان ونانت والهافر من بلاد فرنسا آخذة بالاحتفادة والارتقاء. فكانت فرنسا في الصف الأول بين الممالك المتحدة الموحدة وكانت لها ميزة على الأمم الغربية لأن ملوكها جلبوا إليها من حروب إيطاليا كل ما استطاعوا اقتطافه من ثمرات النهضة وذلك لاختلاطهم بسكان شبه جزيرة إيطاليا قبل غيرهم.

هذه صفحة جليلة من تاريخ الفرنسيس وتنقلهم في البر والبحر وما أبدوه من مظاهر الشجاعة في الدهر الغابر بحسب عرفهم وتصورهم وعلى ما تقتضيه درجة ارتقائهم وتطورهم وكيف غزوا الشرق يوم تدنيهم باسم المدنية. واستعمروا بعض أقاليمه يوم نهوضهم باسم المدنية. فسبحان مبدل الأفكار، ومكور الليل على النهار.

قصر فونتينبلو
٧٦

عمر الملوك منذ ألف البشر اجتماعهم قصورًا كثيرة ذكرها التاريخ ولكن قل فيها ما تعاورت الأيدي على تنميقه مثل قصر فونتينبلو على ٥٩ كيلو مترًا من باريز، ونظن كثيرًا من القصور التي اشتهرت في القديم إذا جعلت إلى جنبه تعد أكواخًا وبيوتًا ضئيلة، قصر تبهجتك عظمته لأن فيه ما حوت العظمة من المعاني في المباني. قصر تتجلى فيه الصناعة والهندسة والتفاني في الإبقاء على آثار الأجداد، إن كان ظاهره كسائر

القصور باهت لأنه بني بحجر وآجر غير رونقهما الدخان وتطاول الأزمان، فإن في الداخل مالًا يكاد يتصوره العقل من آثار الصناعة والتفنن، زرته في اليوم الثامن عشر من كانون الأول ١٩٢١ والشمس مشرقة تحدج بأشعتها أعاليه وساحاته وغاباته فما أبهج وما أعظم.

لا يزيد سكان المدينة التي قامت بالقرب من هذا القصر على خمسة عشر ألف نسمة وكان يأتيها السياح من العاصمة ومن الآفاق بالمئات يقضون ساعات أو أيامًا على مقربة من عادياتها التي تدل على أن العظمة تسلسلت في فرنسا منذ زهاء خمسة قرون، وأن ما اشتهر بنيها من سلامة الذوق وقوة الإبداع حقيقة لا يتمارى فيها اثنان.

ذكرت فونتينبلو في التاريخ لأول مرة في القرن الثاني عشر وكانت قلعة بادئ بدء وأقام فيها لويز السابع بيعة ووسع سان لويز القصر وأقام فيها شارل الخامس دار كتب وهي التي نقلت بعد إلى باريز وكانت النواة التي منها ألفت دار كتب الأمة في عاصمة الفرنسيس. ولقد كان فرانسوا الأول هو الموجد الحقيقي لقصر فونتينبلو فخاطب كبار الرسامين والنقاشين والبنائين من الطليان فلم يجبه منهم إلا أناس كانوا يعدون في الطبقة الثانية بعد ميكل آنج وليو ناردي فنسي ورافائيل وظل هنري الثاني يداوم على العمل الذي بدأ به سلفه فرنسوا الأول.

وكان هنري الرابع بعد فرانسوا الأول أكبر بأن لقصر فونتينبلو. فعمل في بنائه منذ سنة ١٥٩٣ إلى سنة ١٦٠٩ وأنفق فيه مليونين ونصف مليون ليرة وجاء لويز الثالث عشر وعمل أيضًا في بناء القصر، وكان لويز الرابع عشر يأتي فونتينبول كل سنة وأصلحت ماري انطوانيت بعض جهات من القصر. ولما نشبت الثورة الفرنساوية ترك القصر زمنًا. ولما قبض نابليون الأول على زمام الملك أنفق فيه اثنى عشر مليون فرنك وأصلحه. وفي

هذا القصر كتب هذا الإمبراطور صك تنازله عن الملك سنة ١٨١٤ وفي قاعة كتب القصر اليوم مسودة هذا الصك وفيه ودع حراسه فسمي المكان الذي خرج منه صحن الوداع وقال في مفكراته عن قصر فونتينبلو، وهذا ولا شك منزل الملوك بل منزل العصور.

وما زال القصر منذ وجد يزوره ملوك أوربا ويأتون إليه في الأوقات الرسمية ويغشاه رجال فرنسا من ملوك ورؤساء جمهورية زائرين متصيدين.

يتألف القصر من عدة أبنية مختلفة بنيت كما رأيت في مختلف العصور بدون رسم خطة معينة، ولذلك دعي بمجمع القصور وفيه نموذج من مدنيات خمسة عصور في البناء والفرش والآنية والرسم والبقش وكل قصر بل وكل شعبة من قصر صرفت في تزيينها القرائح وبذلت في إيجادها الأموال، فترى فيه سرر الملوك والملكات. وغرف زينتهم ومطالعتهم وجلوسهم وأماكن حظياتهم ووصيفاتهم وكتمة أسرارهم وغرف انتظارهم زوارهم وقاعات استقبال العظماء في المواسم وجوفان موسيقاهم ومحال رقصهم ومناضدهم ومقاعدهم ومتكآتهم وساعاتهم وأدوات تسليتهم وخزانة الكتب التي وضعت في ممشى طوله ثمانون مترًا في عرض ستة أمتار وزيادة وفيها نحو ثلاثين ألف مجلد مذهبة وكثير من الخطوط القديمة والعاديات في النقش والرسم ما لو أردت وصفه لاستغرق عدة صفحات.

أما الغابات المحيطة بالقصر فهي من أجمل ما خلق الخالق وتعاورته الأيدي بالتحسين وساحتها ١٧ عشر ألف هكتار ولها ألفا كيلو متر من المماشي والطرق و١٦١٦ هكتارًا للمتنزهات و٤٠٠٠ هكتارًا من الصخور وفيها من أشجار السنديان والزان والصنوبر والسندر، والسنديان أكثر

الشجر وهي من العظمة والضخامة على جانب لا تشتغل الفأس فيها إلا مرة كل ثلاثين سنة وريعها نصف مليون فرنك، ولكل ناحية من هذه الغابة مزايا وفضائل أفردها القوم بالتأليف وغالوا في درسها والبحث فيها ولا سيما أحجارها وأشجارها. ومن أشجارها ما دعوه باسم آلهة القدماء تنويهًا به وجعله المفكرون متنزههم والشعراء مدعاة قرائحهم والعاملون سلوى نفوسهم. وأدهش ما يدهشك في القصر. والغابة في فوفنتينبلو تسلسل الفكر في الفرنسيس وتفانيهم على اختلاف الأدوار التي أتت عليهم من ملكيات مطلقة ومقيدة وجمهورية في الاحتفاظ بالقديم والعمل على تحسينه وتزيينه لتذكر الأحفاد ما عمل الأجداد. فلا عجب إذا كانت فونتينبلو بهجة النفوس وهي خلاصة قرائح كثيرة وأيد لا يعلم عددها. فونتينبلو إحدى العاديات التي تفاخر بها فرنسا وحق لها أن تفخر لأنها تنم على عظمتها وثروتها.

الموسيقى الغربية

٧٧

مدعاة السرور، مجلبة النشأة مسلاة الحزين، مفرجة الكروب، مهونة الخطوب، عنوان الحياة الداخلية، مظهر الأخلاق القومية، مصورة الفواعل النفسية أصدق عامل على التحمس والتحسس، أقوى دافع إلى النهوض. معلمة أنفع الدروس الشريفة، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف، دافعة عن مزالق الشباب وطيش الحلوم، فيها يتجلى العقل البشري الفعال بإشارات وأي إشارات، تعمل عملها في الأفئدة والوجدانات.

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ولذلك تجد لها في كل صقع من أصقاعهم نغمة ورنة، وفي كل مملكة من ممالكهم وترًا خاصًا، بل أوتارًا تهز القلوب، وتعمل عملها فتقوى الضعيف، وتجبر الكسير، وتهيب بالمستمع إلى ميدان المضاء وتمكن فيه أواخي الحزم والعزم، وتطرد عنه الوساوس والهواجس، وتجعله في الذروة يشرف على التصورات البشرية، فيتدبرها في سره، ويهيم ويتعلم، ويطرب ويسلو.

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة، فلا مجتمع دينيًا كان أو مدنيًا. ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص. ولا مطعم ولا فندق، إلا وللموسيقى في الغالب دخل كبير فيه يتعلمونها صغارًا، ويرضعون حبها مع اللبن، لأن الحاجة إليها مغروسة في الفطرة البشرية، والدافع إليها الطبع أولًا ثم التطبع، فكيف بهما إذا اجتمعا، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الأسرة وصاحبة البيت، والطفل والابنة، والفتى والفتاة، والسيد والمسود، والموسر والمعسر، والعامل والماهن، والكبير والصغير، والقائد والجندي، تساووا في حبها، وأجمعت كلمتهم على عموم نفعها. والأخذ بحظ منها.

قال لي من طاف أميركا الشمالية وتوغل في ريفها وقراها إن أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه. وقالت مدام دي ستايل إنك لا تجد في سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحراثين من لا يعرف الموسيقى في ألمانيا ففي أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ما تسمع ذلك في إيطاليا إلا قليلا والأولاد والطلبة يطوفون يوم الأحد في الشوارع يمجدون الله وينشدون الأناشيد الحماسية.

آلات الموسيقى متحدة في الغرب ولكن الصور التي تخرجها مختلفة وإن أسمعوك في بلد ما هو من صنع غيرهم فتسمع في كل أمة ألحان رجال الفن في أمة أخرى. وأمم الغرب مهما تباعدت في المقاصد وتباينت في المصالح لا تجدها إلا متفقة في تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنابز مداه في صدورهم فليس لهم شيء أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر عن يد صناع ولحن يلحنه نفس نفيس.

الشرقي أمام الموسيقى الغربية كالمقلد بالسمع. أو كمن يسمع بأذن غيره يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها لأن موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ولأنه ألف نغمات أخرى. وإن لم يفهمها ولكنها قريبة من مصطلح قومه مؤتلفة مع مناخه ومحيطه. ودرجة رقيه وتاريخه. فالعربي يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والألف. والفارسي يحب الموسيقى العربية لتمازج تاريخ أمته بالعرب. وكلما قويت الروابط بين الأمم. وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم. والمبعدات بين القلوب. زاد طرب الجار من نغمة جاره.

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في إيطاليا والنمسا والمجر وسويسرا وألمانيا وإنكلترا وفرنسا وهولاندة والبلجيك وأسبانيا فكان طربي بالموسيقى الأسبانية أكثر من غيرها لأنها تترشح من الأنغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الأسبان، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية، لأنها ترشح من موسيقانا، وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون في البلاد، مشتدة روابطهم، متحدة كلمتهم.

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى

المصرية لأنها أرقاها وقد بلغت بالنسبة إلى سائر البلاد مرتقاها. تأثرت مرة لنغمة فارسي كان ينشدني قصيدة من نظمه في الحرية. وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترنم بنغمتها الوطنية، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية. ولكن ما ذهبت إليه النفس من التذكارات، فعل فيها فعله فأخرجها عن كثافتها، وسمعت مؤخرًا مغنية أسبانية في مسرح الأولمبيا في باريز تتغنى بالأسبانيولية وتبيع بنفسجًا ترشقه على الحضور فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجمل ما رأته العين في الغرب، وطربت به حقيقة. وما ذلك إلا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى، وما يتذكر الإنسان من الوقائع والحوادث.

كانت لنا في بر الشام موسيقى راقية فكادت تندثر لزهد الناس في هذا الفن لأنه دليل ارتقاء الأمة، والأمة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقري، وكان المشتغلون بها الفن مرذولين ممتهنين، فبينا نجد الموسيقار والمنشد في الأمم الأخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعمًا مرفهًا إذا مات مشي في جنازته العظماء – كما فعل الفرنسيس بجنازة سازة ساين الموسيقار – وعدوه من المفضلين على أمتهم ومجدوه وقدسوه، ترى مثيله في أرضنا مهانًا لا يؤبه له، إن أخذ بفنه عاش فقيرًا ومات خاملًا حقيرًا، وكم من نابغة في الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية أن يلحق به العار. وزهد نفسه طوعًا أو كرهًا بما يحبه، وكان في مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب، ولأن صاحبه لا يعد في الطبقة التي هو حرى أن يعد فيها.

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطًا من العدالة كل من يغني عندنا ولا سيما إذا كان غني بالأجرة [1] ويتسامحون مع من يغني مع جماعة من أصحابه وكانوا يعدونه فنًّا يفقر صاحبه ولكن الغرب على العكس من ذلك، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بأدبه، ويرزق عشرات الألوف منه فإذا مات، مات عن ثروة طائلة وخلف لأهله مجدًا وغنًى.

لغة عامة

٧٨

بعد انتظام سير القطارات والسيارات والمركبات الكهربائية في البر والسفن في البحر والطيارات في الجو اشتد اختلاط الأمم بعضها ببعض وأصبح الشرقي لا يستغنى عن الغربي ولا الأوربي والأميركي عن الأسياوي والأفريقي والبشر في حاجة تزيد مع الأيام مساسًا إلى التخاطب والتكاتب والتعامل والتواصل للاتجار والاستثمار والعلم والسياسة وغير ذلك من مقاصد الحياة والاجتماع. أمسى البشر في حالة من احتكاك أبناء اللغات المختلفة لا سبيل معها إلا إلى التفاهم لأن حياتهم مناط ذلك وهذا يشعر به حق الشعور من ساح في بلاد بعيدة ونزل على أمم وعناصر متباينة. إن من يحسن الإنكليزية أو الإفرنسية من لغات الغرب ومن يعرف العربية أو الفارسية من لغات الشرق مثلًا قد تسهل عليه السياحة أكثر من غيره في الغرب أو في الشرق ولكن هذا غير كاف للاختلاط والتعارف والكسب والتعلم وكم من دانيمركي أو هولاندي أو أسوجي أوفنلاندي أو برهيمي أو بورتقالي أو مجرى أو عربي أو فارسي أو تركي أو جاوي

---

(١) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للأدفوي المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

أو ياباني أو صيني لا يحسن غير لغته فإذا جئت تتجر معه أو تأخذ عنه شيئًا من مظاهر الحياة التي لا تجدها عند أمتك تخفق لعدم فهمك وفهمه.

أكثر الطبقات المستنيرة في الأمم تعرف لغة أو أكثر غير لغتها فالإفرنسي المتعلم قد يعرف الإنكليزية أو الألمانية والإيطالي قد يحسن الإفرنسية والألمانية والياباني قد يتمكن من الإنكليزية. ولكن العبرة لا بالفرد بل بالمجموع فإنك إذا كنت على بضعة كيلو مترات من الجنوب الغربي في فرنسا ودخلت أرض أسبانيا وكنت لا تعرف غير الإفرنسية لا نجد في الشعب من يكلمك إلا بالأسبانية وكذلك إذا اتجهت صوب الشمال فنزلت إنكلترا أو هولاندة أو السويد أو نروج فحالك كذلك إليك الحال في أوربا والخطب في أمريكا أقل لأن الأكثرية في شمالها تتكلم الإنكليزية وفي الجنوب يتكلمون الأسبانيولية والبورتقالية وفي كندا يتكلمون الإفرنسية والإنكليزية. أما أوربا وآسيا وأفريقية فهي برج بابل بتبلبل السنة سكانها وناهيك بهذا عائق عن التمازج والتعامل فقد اعتصمت كل أمة في حدودها وتناغت بحب لغتها ولا سيما بعد تقرير مسائل القوميات وجعلها في الأغلب المعيار الأول لأن يكون علمها واحدًا.

دعت الحاجة تيمورلنك في القرون الوسطى وكان جيشه مؤلفًا من عناصر تتكلم بلهجات شتى وهو في حاجة إلى توحيد مقصده فألف لغة الأردو أي الجيش ليتفاهم جيشه فرسخت هذه اللغة المصطلح عليها في الهند حتى كادت تكون أكثر لغات تلك البلاد انتشارًا وساعدته على فتوحه وارتفعت بها إشكالات عظيمة واخترع أحد ضباط الروس منذ بضع سنين لغة سماها «الاسبرانتو» أخذها من أصول اللغة اللاتينية على الأكثر لتكون واسطة التخاطب في العالم فنجح في بث اختراعه وعلى

كثرة ما لقى من معارضة المعارضين أربى عدد المتكلمين بلغته الجديدة على مليون متكلم يتعلمها المرء في ثلاثة أشهر كما أكد العارفون بها وأصبح الدعاة إليها كثيرين من رجال العلم في الغرب قائلين أن نحو لغة الاسبرانتو يتعلم في ساعة ومفرداتها خصوصًا لمن يعرف إحدى اللغات اللاتينية كالإفرنسية والإيطالية والأسبانية والبورتقالية يمكن حفظها في أسبوع ويكتب بها من يتعلمها عقيب الشهر من بداءته بها على أيسر وجه وفي ختام الثلاثة أشهر يتكلم بها جيدًا ويكتب بها فيجيد وقالوا إن من الفوائد المادية والمعنوية التي تنشأ من انتشار هذه اللغة أن تتحاب الأمم في الغالب لأنهم يتفاهمون في الحال على اختلاف مداركهم وطبقاتهم وكم من مشاكل حدثت لسوء التفاهم وكم بغضاء تاصلت ومنشؤها عدم الفهم والتفاهم.

وعلى ما في هذه اللغة الجديدة من السهولة يكون السبق فيها للشعوب اللاتينية أو لمن يحسن فهم إحدى لغاتهم وعدد هذه الشعوب في أوربا وجنوبي أمريكا يربو على مائتي مليون نسمة يؤلفون كتلة مهمة أمام اللغات الأنكلوسكسونية والسلافية والجرمانية التي يزيد المتكلمون بها كل يوم لوفرة سكانهم ومواليدهم أما الإنكليز والأميركان والجرمان مثلًا فيردون على الأغلب هذه الفكرة فكرة اللغة الواحدة ويقولون كان علماؤنا في القديم يتخاطبون ويتفاهمون قديمًا باللغة اللاتينية وناهيك بها من لغة ونحن اليوم نتفاهم مع الشعوب الأخرى بإحدى اللغات الحية كالإنكليزية والألمانية والإفرنسية ثم إن أحدنا قد يحسن التخلص بتعلم إحدى هذه اللغات في بضعة أشهر لسهولة طرق التعليم والتدريس وخير للإنكليزي أن يتعلم الإفرنسية مثلًا لغة حوت أجمل القرائح وهي لسان عشرات الملايين من الخلق من أن يتعب نفسه بلغة ملفقة كلغة الاسبرانتو لا نبوغ فيها ولا عبقرية.

قال أحد الدعاة إلى تعلم الاسبرانتو وهو من كبار رجال العلم في فرنسا بعد أن عدد مزاياها ولا يتوهمن واهم أن نشر هذه اللغة خيال في خيال أو تقويم باطل أو حلم حالم فإن عدد من يتكلمون بهذه اللغة ويكتبون بها الآن في العالم مليون إنسان فإذا بذلت العناية قليلًا بها لا تلبث النتائج أن تزيد والفائدة أن تعم. ولعله يأتي يوم وليس ببعيد يعجب فيه أبناؤنا توقفنا في الاصطلاح على لغة عامة سهلة التعلم وكيف لم نقبل على الأخذ بها بادئ الرأي. لا جرم أن صغار أحفادنا سيتجاوزون حد الاستغراب متى قرأوا الحجج الصبيانية التي يدلى بها المعارضون لفكرة اللغة الواحدة. إن دعاة التقليد وادعاء التجديد وأنصار الارتجاع وأحباب التقهقر والساخرين والمماحكين المدعين والمتعالمين ورثة من كانوا يهزأون بالقائل بدوران الأرض ويقبحون مكتشف حركة الدم ومخترع السكك الحديدية والسيارات والطيارات – أن المدافعين عن كل قديم مهما رث وبلى قد اخترعوا لهم اعتراضات صبيانية لقلة الفهم ولذلك نقيم لهم الأعذار فعدم الفهم معذرة وعلة. نعم أنهم لم يدركوا أن تعلم لغة بسرعة خارقة للعادة ليس في قواعدها شاذة ومفرداتها لاتينية معدلة قد يغير وجه العالم كل التغير وذلك يوم يستطيع البشر أن يتبادلوا العبارات باللسان والقلم وبهذا الإيجاد السهل المختصر ينشأ عهد جديد في صلات الإنسانية.

هذا ملخص ما قاله شارل ريشه أحد أعضاء المجمع العلمي في باريز وقال إن طبقة المتعلمين ممن يصرفون اليوم سنين طويلة في تعلم لغة أو لغتين غير لغتهم ثم هم لا يحسنونها يخلصون من هذا العناء الثقيل وتصرف كل أمة وكدها إلى تعلم لغتها الخاصة وتكون اللغة الحديثة معوانًا للكل ولا يؤثر ذلك في سير لغة من اللغات الحية المتعارفة بل تزيد العناية بها أكثر من ذي قبل. قلنا تزيد العناية بكل لغة بين أهلها

ولكنها لا تنتشر عند الأمم الأخرى فالناس إذا انتشرت الاسبرانتو لا يحرصون كثيرًا على تعلم غير لغتهم مهما بلغ من سمو آدابها وحوت من المعارف والفوائد وربما جاء زمن على الاسبرانتو أن تكتب بها كل العلوم وتكون لغة السياسة والتجارة العامة وينبغ فيها الشعراء والكتاب والممثلون والخطباء فإن لم تتراجع اللغات الحية بذلك يقل الراغبون فيها. على أن جامعة باريز نفسها أخذت تلقي دروسًا بالاسبرانتو على طالب تعلمها وتجد في بعض البلاد الهولاندية قد كتب على إحدى نوافذ دور البريد عندهم «هنا يتكلم بلغة الاسبرانتو» ويوشك أن تكون العناية عامة بهذه اللغة بين الأمم على كثرة المقاومين والمعارضين وستأخذ قاعدة بقاء الأنسب حكمها على شدة المعارضة والمقاومة في الأمور المفيدة مؤقتة لا تثبت إلا عشية أو ضحاها فسبحان من جعلنا شعوبًا وقبائل وجعل من آياته اختلاف ألسنتنا وألواننا.

البلجيك
٧٩

كنت أظن بعد أن أصيبت البلجيك في الحرب العامة بوطأة الألمان وخربت ليج وبروكسل ولوفين ونامور أن هذه البلاد أصبحت قاعًا صفصفًا ولما زرت عاصمتها بروكسل في شهر كانون الأول ١٩٢١ رأيت فيها ما أدهشني. رأيت في طريقي جميع القرى والجسور والمحطات التي خربتها المدافع الألمانية قد أعيدت إلى أحسن مما كانت ولم يبق لتلك الحرب الطاحنة إلا آثار في ماليتها لا يراها الغريب.

أظهر البلجيكيون في حربهم إلى جنب الحلفاء (فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وأميركا) أنهم من أول الشعوب في أمور الحرب كما هم من أول شعوب العالم بالصنائع والزراعة. ولقد أردت زيارة نموذجات من مدارس البلجيك لأزورها كما زرت كليتها الحرة في بروكسل فقيل لي إنها كلها تنسج على منوال المدارس الفرنساوية أما أنا فلم أصدق ذلك لأني رأيت للبلجيكيين أسلوبًا مخالفًا للألمان والإنكليز والفرنسيس في بعض مظاهر مدنيتهم فالأولى أن يكون للمعارف قسط من هذا الخلاف.

كان نابليون يدعو بلجيكا «ساحة حرب أوربا» وسماها الجغرافي اليزه ركلو «ساحة تجربة أوربا» وما من مملكة في العالم ضيقة النطاق إلى هذا الحد يبذل فيها أبناؤها مثل هذه الهمم والعزائم. فقد وقفت الأمة البلجيكية في مقدمة العالم من حيث سير الأفكار الاجتماعية وهذا وجه مكانتها. نشأ لها ذلك من دؤوبها على الأخذ بأسباب الارتقاء. وأن جميع المسائل الكبرى التي تهيج لها أعصاب العشوب العظمى هياجًا قل أو كثر لتحدث في البلجيك غليانًا دائمًا فيجد لها أبناؤها أساليب من

الإصلاح يحلونها بها أحسن حل [1]. فأصبحت البلجيك بحياتها المجتمعة وقوتها الداخلية والخارجية المزدوجة ونشاطها البطيء في الظاهر ولكنه منتج خصيب لأنه متواصل وشجاعتها العتيدة وصحتها المتينة وعقلها الرشيد - أشبه بمعمل اجتماعي بديع.

ولقد تنشأ من ذلك أعراض التسمم الزائل في ذاك الجسم إذ يصاب بشيء من تأثيراته بيد أن تركيب الشعب البلجيكي قد بلغ من القوة بحيث يحتمل كل ضروب التجارب بدون خشية. ومما لا جدال فيه أن الأفكار مهما كان نوعها إذا دخلت بوتقة العقل البلجيكي تتركب تركيبًا مقبولًا وتلبس صورًا حقيقية من المنافع. لا تصنع بلجيكا الماس بل ينحت فيها الماس الخام فيصبح حليًا في السوق تعمل منه كميات كبيرة. البلجيك بلاد معامل الحديد وتصفيحه وتحليله فهي معامل لكل فكر جديد كما هي معامل للحديد.

البلجيك بلد الصناعات والتجارة وأحسن الأقطار بزراعة تربتها فهي من أغنى بلاد الأرض وأن موقعها الممتاز بين ثلاث ممالك كبرى هي منبعث أشعة المدنية - إنكلترا وفرنسا وألمانيا - قد جعلها كالصلة والعائد بين هذه المدنيات والكلمة العامة الشاملة وهي تستدعي أعجاب الممالك الأخرى وتفوق عليها بخصب تربتها ففي أرضها البالغة ثلاثة ملايين هكتار تجد جميع أنواع التربة. ومعادن الحديد لا تبعد كثيرًا عن سطح الأرض. ولذلك زكت أرضها ونمت صناعتها وتفردت بتجارتها.

قالوا إن الأندلس «حديقة الزهور في أوربا» ويقال في البلجيك بما فيها من كل نافع تنتجه أنها «مبقلة أوربا». وليس في البلجيك إلا كل نافع وفيها اللطيف أيضًا. ونعني بذلك مناظرها الجميلة وجبالها التي يأتيها

---

(١) بلجيكا الحديثة لهنري شاريو Henri Charriqut: La Belgique moderne.

سياح الغرب كما يأتون سويسرا يلتمسون الراحة والهناء في ربوعها وحماماتها البحرية المقصودة وعلى ضفاف أنهارها البديعة. وفيها من آيات البناء والنقش والتصوير بدائع مدهشة وفي بروكسل وبروج ولوفين أجمل دور البلديات في أوربا وفيها من العاديات كل بديع جميع. في ثلاث ساعات يقطع القطار هذه المملكة وأنت تتنقل فيها من غريب إلى أغرب. بروكسل من أجمل عواصم العالم وأنفرس من أهم موانيها وإذا وافيت الفلاة والخلاء فكأنك رجعت بضعة قرون إلى الوراء.

إن الشعب البلجيكي مثال الشعوب الصغيرة بعددها الكبيرة بأعمالها فعدده ٧٥٧٢٠٠٠ ومساحة بلاده ٢٩٠٤٥٦ كيلو مترًا مربعًا عدامًا أضيف إليها من مقاطعتي أوبين ومالميدي بعد الحرب وصادراتها ٣٩٥١ مليونًا ووارداتها ٤٩٥٨ مليونًا وخطوطها الحديدية ٩٤٦٤ وينزل في كل كيلو متر من أرضها نحو ٢٦٠ شخصًا وهو أقصى ما بلغته أرض غصت بسكانها. وهي على البحر الشمالي تمتد على ضفافه من الشمال الغربي ٦٧ كيلو مترًا ويحدها من الشمال والشمال الغربي هولاندة على ٤٣١ كيلو مترًا ومن الشرق ألمانيا على ٩٧ كيلو مترًا ودوقية لوكسمبورغ الكبرى على ١٢٩ كيلو مترًا وتحدها فرنسا من الجنوب والغرب على ٦١٤ كيلو مترًا. وامتازت البلجيك بمهندسيها وتطريق الحديد وتوليد الكهرباء حتى إن معظم شركات الكهرباء في مصر والشام هي ملك شركات بلجيكية كما امتازت بمصوريها ونقاشيها وموسيقيها. ولها في الشعر والأدب مقام محمود منذ استمتعت باستقلالها السياسي سنة ١٨٣٠ ومن كتابها في أيام الثورات من كانوا يكتبون باللغتين الإفرنسية والفلامندية على السواء. وهاتان اللغتان هما لغة البلاد تتقاسمان السكان نصفين ففي الجنوب والغرب الإفرنسية مستحكمة وفي الشمال والشرق اللغة الفلامندية وهي أشبه بالهولاندية إحدى فروع اللغات الجرمانية.

إن اختلاف البلجيكيين في اللغة لم يفصل عراهم في الوطنية كما هو شأن كثير من الأمم يختلفون بلغاتهم ولكن كلمتهم واحدة في سياساتهم. فقد رأينا السويسريين يتكلمون أربع لغات ولا يحبون أن يقولوا أربعة عناصر بل جميعهم وطنيون سويسريون لا فرقًا بين الذي يتكلم الألمانية والإفرنسية والإيطالية أو الرومانشية. ورأينا الغاسكونيين والبروتنيين والبورغونيين والسافواياردين والباسكيين وغيرهم يتكلمون لهجات مختلفة وتجمعهم الجامعة الإفرنسية وشاهدنا الكاتالانيين والأندلسيين والجلالقة والبيكانيين يتخالفون في عاداتهم وطبائعهم ولهجاتهم ثم تجمعهم جامعة الأسبانية فيقال لهم كلهم أسبانيون.

ومن الغريب في البلجيك أن ترى شعبًا نازلًا في هذه البقعة الضيقة من الأرض ولا تمتزج أجزاؤه بعضها إلى بعض ولا يقاسي مشخصاته على حين تجمع بين هذين العنصرية وهم الفالونيون والفلامنديون المصالح المشتركة والخطوط الحديدية والطرق النهرية إلى غير ذلك من أدوات التمثيل والامتزاج. بعض المواد إذا جعلتها في بوتقة واحدة تنتهي بفعل الحرارة أن تتحول إلى مادة جديدة وتذهب مميزاتها بتة. وإن إقليمي الفلاندر وفالونيا اللذان تتألف منهما بلاد البلجيك لتمزجهما بوتقة مدنية واحدة محصورة فيختلطان ولكن لا يتمازجان ويظل كل عنصر سالمًا من مؤثرات جاره واجتماعهما صنعي لا طبيعي.

رأينا الشقاق بين أهل هاتين اللغتين على أشده في كل مكان بين الخاصة والعامة ولم يفت اختلافهما في عضد الوطنية ومع هذا لا ترى في البلجيك إلا فالونيين وفلامند بين مما دل على أن الدولة لا تتحول كما أن طبقة الشعوب كذلك فالوطن في الحقيقة كما قال توسيديد مجموعة مدن وبيوت وقلاع وأسوار بل الوطن هو الروح الحية في

المدينة وما تقرأه في قلوب الوطنيين إن هو إلا بقايا مما كان في قلوب الأجداد.

إلى اليوم ترى الخصام على أشده بين هذين الشعبين اللذين يؤلفان شعبًا واحدًا في معظم مظاهر الحياة ولكنهم في المسائل الوطنية لا فرق بين ابن الشمال وابن الجنوب فيتقاتلون بالمدى كما يتقاتل أبناء البلاد الحارة كالأسبان والطليان ولكن كلمتهم في الشدائد سواء على نحو ما رأيناها يوم الحرب العامة فكانوا مثال الوطنية كما هم أجمل مثال في المدنية.

وما برح الخصام بين الفلامندية والفرنسية مستحكمة حلقاته فقد تحررت البلجيك من هولاندة وأسبانيا والنمسا بالتأثيرات الإفرنسية واللغة الإفرنسية وما زال شعار الفلامندية منذ نحو قرن «حرية بلا لسان» وشعار مدينة أنفرس للنساء الفلامنديات:

لا تسمحن أن يجري الحديث بالإفرنسية
فإن لغتنا الوطنية تموت

وبعد فقد أحرز البلجيكيون على الرغم من تطاحنهم في مسائل الاشتراكية والدين واللسان مقامًا عاليًا في مظاهر الحضارة حتى صحت فيهم كلمة ستوارت ميل: «لا تعمل عمال كبرى برجال صغار» فالعظائم للعظام وعمل العظيم عظيم.

زرت قاعدتي البلجيك بروكسل وأفرس ورأيت منافستهما في طريق المدنية واختلاف صورهما كاختلاف لسانهما واختلفت إلى المتاحف والقصور وعجبت من تبريز أهلها في كل مرة كيف لم يجعلا ولو في إحدى الجامعات البلجيكية (بروكسل - لوفين - غاند - لبج) درسًا

للعربية تبلغ فيه عن الأقل مستوى الدانيمرك وسويسرا واسوج ونروج فهذه من الممالك الصغيرة التي لا تميل إلى استعمار قطر من الأقطار العربية ومع هذا تجد في جامعاتها نصيبًا من العناية بالعربية لغة المدنية القديمة.

في البلجيك زهاء سبعة آلاف مدرسة ابتدائية فيها نحو مليون من الأولاد الذكور والإناث ومع هذا تجد عشر أهلها أميين على حين لا تجد في هولاندة أكثر من ٢٣ في الألف وفي فرنسا ٤٧ في الألف. والأحزاب المتغلبة فيها ثلاثة أحزاب حزب الأحرار والحزب الديني وحزب الاشتراكيين وليس في بلجيكا كما تقدم روح بلجيكية كما ليس في ألمانيا روح ألمانية ولا في فرنسا روح فرنساوية ولا في إنكلترا روح إنكليزية. وما من شعب في الأرض يملك روحًا خاصة بل هو مزيج أرواح مختلفة ولكنها مؤتلفة.

رأيت في بروكسل صورة جميلة من الحياة أحب أن لا يفوتني تدوينها. رأيت رجلًا في الثانية والخمسين يمسك بيده ولدًا عند بائع القند والسكر عمره أربع سنين يبتاع له بقدر ما يستطيع أن يحمل ثم التفت إليّ أبوه وخاطبني بقوله يجب أن يقوى هذا الولد أتدري أي نمرة هو بين أولادي؟ قلت لا. قال: هو ابني الثامن عشر فدعوت له ولأولاده بالصحة والهناء. وفي ذلك دليل كبير على كثرة تغالي هذه الأمة بتكثير نسلها ومبلغ العناية بأولادها مما يشهده الغريب في كل دقيقة وهو سائر في الشوارع فيرى الأم تحمل طفلها وهي سائرة مبتهجة به وإذا ركبت في المركبات الكهربائية أو دخلت في محال الزحام يوسع لها ليرتاح طفلها وبقدر ما تجد في الشوارع من أبناء العاشرة أو العشرين مثلًا تجد من أبناء الأشهر أو السنتين والثلاث ولذلك كان مستقبل البلجيك باهرًا لتوفرها على النسل وكان أهلها كثيرين جدًّا إذا قيسوا بالأرض التي ينزلونها.

عمران هولاندة

٨٠

هولاندة أوندرلاندة أو الفلمنك أو بلاد القاع هي من البلاد الغريبة بتركيبها الطبيعي كلها بسائط لا جبل فيها اللهم إلا أكمات على الحدود الألمانية لا يتجاوز أعلاها ثلثمائة متر أي علو برج أيفيل في باريز أما من جهة البحر فإن سواحلها نازلة عن الشواطئ قليلًا ولذلك سميت بلاد القاع.

بلاد صغيرة إذا قست طولها من الشمال إلى الجنوب لا يتجاوز الثلثمائة كيلو متر ولا يكاد عرضها من البحر إلى تخوم ألمانيا يتجاوز المائتي كيلو متر ومجموع مساحتها السطحية ٣٨ ألف كيلو متر مربع منها ٣٣ ألف أرض تصلح للزراعة و٥٠٠٠ كيلو متر ماء. وتعد من حيث مساحتها السطحية المملكة السابعة عشرة ولكن عظمة الممالك لا تقوم بكبر رقعتها بل بما فيها من مواد العظمة الحقيقية وأدوات الحياة الطيبة.

ليس في الأرض مملكة تحارب المياه والمياه تحاربها مثل هولاندة ففيها على ضيق مجالها أربعة أنهر كبيرة وهي الرين والموز والاسكوت والأيسل. واقنية لا تكاد تعد تقطع القرى والمدن وتجرى إلى كل وجهة وبحيرات داخلية بل بحر داخلي ويسمى الزويدوزيه تبلغ مساحته ٣٥٠ ألف هكتار ويشغل جزءًا مهما من أرض البلاد فهولاندة تعيش بهذه المياه تحمل إلى تربتها الخصب وإذا غفلت عنها داهمتها من البر والبحر ولا سيما من البحر فأخربتها وهناك البلاء. ولذلك ترى الهولاندي أبدًا في حرب دائمة مع الحياة منذ العصور المتطاولة. ومن أجل وهذا قالوا: إن الخالق خلق العالم ماعدا هولاندة فإن الهولانديين أوجدوها وقالوا في

أمثالهم القديمة التي يتغنون بها: مِن لم يوقف سير المياه لا يستحق أن يملك أرضًا.

وكم من أرض كانت بحرًا فردمها الهولانديون فأصبحت مباقل ومباخس وكم من أرض طغا عليها البحر فأصبحت جزرًا أو جزيرات عراك منذ القديم بين الهولانديين والمياه وفي هولاندة «وزارة المياه» كما فيها وزارة مالية ووزارة مستعمرات مثلًا. خصوصية لها لا يشاركها فيها غيرها ولها في سطو البحر عليها وسطوها على البحر تاريخ خاص غريب.

في ثلاثة وثلاثين ألف كيلو متر مربع من الأرض ينزل نحو سبعة ملايين من الهولانديين ويعدون من أغنى شعوب أوربا وأكثرها عراقة في الحضارة وأشدها اختلاطًا بالأمم وتعلمًا للغات المختلفة وقد يحكم على المتعلم فيها أن يدرس الألمانية والإنكليزية والإفرنسية خلال التعليم الابتدائي والأوسط وقل أن تلقى متعلمًا لا يحسن التخاطب بلغة أو لغتين ماعدا لغته وكثير منهم يتعلم اللغتين الجاوية والمالايو لارتباط تجارة بلادهم بالهند الشرقية.

قالوا في الهولاندي إن بشرته قست وطبعه جف [١] بما يهب عليه من هواء البحر وندى المياه وأن الشعوب كالأطفال فكما أن الطفل الذي قاسى العمل يختلف عن الولد الذي عاش في النعيم والسعادة هكذا الأمم التي عاشت في الهناء والمجد ليست بتصورها كالأمم التي ارتقت في العمل وتحت التهديد وضربات الأيام والليالي. لا جرم أن ألفة التجارة بل الذوق الطبيعي في الهولاندي لها يفسر ولو بعض شيء ما تراه فيه من

(١) كتاب روح شعب وحياته أو هولاندة في العالم لهنري أسلين: Henry Asselin L'âme et la vie d'un people .. La Hollande dans le monde.

الحذر والاحتياط. فأخذ الهولاندي بأسباب الحيطة حتى لا يخدعه أحد من الناس قد جعل فيه طبيعة خاصة. ثم إن النزاع القائم بينه وبين المياه منذ الزمن الأطول ومدافعة الناس عن حدوده كحروب هولاندة مع أسبانيا وحروبها مع فرنسا وإنكلترا وحروبها الدينية التي كانت على أشد حالاتها في بلادها نشأ منها هذا الخلق في الهولاندي خلق الحذر والجفاء. وكان آخر المحن التي أورثته شيئًا من هذا القبيل تجنيد هولاندة ستمائة ألف جندي خمس سنين خلال الحرب العامة حتى نجت من شر الحرب إذ كان الألمان يمسكون بها من البر ويريدون أن يدخلوها في الغمار والإنكليز وحلفاؤهم يشدونها من البحر يريدونها على الاشتراك معهم فأنجاها الله بحيادها وفرط استعدادها.

الهولانيدي رجل عمل لا مثيل له في موضوعه ويعتبر الهولانديون في مقدمة تجار أوربا فإن روح التجارة تحمسهم أبدًا. للهولاندي رأس موزون بصير كل البصر في المسائل. عملي لا ينظر إلى ما بعد بل يتقن النظر إلى ما قرب منه ويعمل ما يعمل مدفوعًا بغامل الفكر في الحكمة أو الحساب أو لاستعداد فطري فيه يدعوه إلى أن يتلبس بالعدل فهو عادل والعدل يفضي به إلى المساواة التي يحبها.

اشتهر الهولانديون بنظاماتهم الاجتماعية وشركاتهم ونقاباتهم بحيث ترى بلادهم كلها مجموعة شركات واتحاد جماعات ونقابات في كل ضرب من ضروب الاجتماع والتعاون. الهولاندي كالصيني يحتقر الوقت بعض الاحتقار ويتجاهل الساعة خلافًا للإنكليزي الذي يقول الوقت نقد. وترى الهولاندي مع هذا يعيش جيدًا ويعمل جيدًا ويربح كثيرًا ولا يتعجل ويسرع خطاه. هو يصحو من نومه متأخرًا ويأتي إلى عمله في الساعة التاسعة أو العاشرة وينصرف في الخامسة أو السادسة ليستقبل ضيوفه أو يذهب إلى التمثيل أو يتعاطى شيئًا من غير أعمال النهار. فالهولاندي لا

يضبط نفسه بالساعات في العمل بل يعمل على هنيته عملًا متقنًا يفيد في مجموعة.

عرفت المرأة الهولاندية بإفراطها في حريتها وهي في ظاهرها ربة دار تعني بإصلاح داخليتها وتتولى نظام مسكنها ومطبخها على أنها في الحقيقة راقية بعلمها تميل كل الميل للمسائل العقلية وتحب الاطلاع على أعمال الفكر الإنساني تطالع كثيرًا وفي أربع لغات على الأقل ولها وقوف على أقوال الحكماء والأدباء والحركة العلمية وتشدو شيئًا كثيرًا في العلم والأدب. ولا تعرض بضاعتها من ذلك لأنها إلى السذاجة والعزوف عن الظهور.

ولقد فطر الهولانديون على الحرية فلا تسمع منهم ما تسمعه إذا لقيت أحدًا من الشعوب اللاتينية كقوله إنه سر للتعارف إليك وإنه ليفرح إذا لقيك في منزله ومحله فإن هذه الألفاظ لا أثر لها في حديثه فإذا قال لك الهولاندي إنه يسر أن يستقبلك في داره أو يحترمك فإن كلامه خال من كل رياء يمكنك أخذه على ظاهره لأنه الحق المجرد خال من المبالغة والحشو والظرف المألوف عند الطلياني والأسباني والفرنساوي.

زرت أحد علماء المشرقيات في ليدن وانصرفت من لدنه بعد ساعة لزيارة خزانة جامعتها فتقدم إلى أحد تلامذته وخاطبني باللغة العربية بقوله إن السيدة فلانة زوجة أستاذي تدعوك مع زوجها غدًا إلى تناول طعام المساء في دارها على أن لا تستصحب معك الترجمان. فمن يسمع لأول وهلة بطرز هذه الدعوة يحسبها جافة والحقيقة أن فيها كل الظرف خصوصًا والترجمان لا فائدة له لأن الداعي وعقيلته يتكلمان الإفرنسية. وطبقة التراجمة في الغالب من أحط الفئات في أوربا فلا يليق أن تجلس إلى مائدة أمثال تلك الطبقة الراقية العالمة.

وبعد فقد سبقت هولاندة غيرها من الأمم بحريتها ومعاهدها الحرة المنظمة وبينا كان الفرنسيس وغيرهم يقاتلون الملوك ورجال الدين والنبلاء لاستحصال حرياتهم كان الهولانديون قد تخلصوا من ظالميهم ممتعين بحريتهم حتى لقد جلا إليهم من فرنسا وحدها مئة ألف رتستانتي في الحروب الدينية عقيب أن أهلك الكاثوليك في فرنسا عقيب مذبحة القديس برتلماوس مئة ألف إنسان في خمسة أيام وهنأ البابا ملك فرنسا إذ ذاك على ما أتاه ورجاله من هذه المنقبة: وبينا كانت المراقبة شديدة على الأفكار في فرنسا كان روسو وفولتير وأمثالهما من الحكماء يطبعون كتبهم في هولاندة هربًا من ظلم الظالمين وسخافة المراقبين.

ومع هذا فقد كان شارلكان ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا وسيد سبع عشرة ولاية هولاندية هو الذي حكم على لوثيروس صاحب المذهب البرتستانتي في فورمس وتعهد بسحق الإصلاح الديني الذي كان سري في أنحاء أوربا وكان العدو اللدود للوتيريين الكالفيين من الهولانديين. وكانت شدة ديوان التفتيش الديني الذي أقيم في جنوبي هولاندة أي في أرض البلجيك اليوم لمصادرة العقول من جملة انفصال الهولانديين عن ابن شارلكان فيليب الثاني. والبرتستانتية هي المذهب السائد الآن في بلاد القاع و٦٢ في المئة من أهلها برتستانت أو أنجيليون و٣٥ كاثوليك و٢ من الإسرائليين فالبرتستانتية هي دين الحكومة وفي هولاندة كما في البلجيك أربع جامعات وهي جامعة ليدن وأوترخت وأمستردام وغروننغ ويكفي أن يقال إن ستة من علماء هولاندة نالوا جائزة نوبل مما لم تحصل عليه أمة من أمم الأرض. وفي هذا برهان على كثرة نوابغهم وعلمائهم في كل فن ومطلب. زرت أمهات مدن هولاندة والمسافة بينها قريبة في السكك الحديدية مثل ليدن ولاهاي وأوترخت وأمستردام وروتردام ورأيت كثيرًا من قراها وأكثر بنائهم بالقرميد والآجر لقلة مقالعهم وكم من

دار مررت بها وقد كتب عليها أنها عمرت في سنة كذا من القرن السادس عشر وحيثما طفت ترى عناية الأمة بالغة بأطفالها فتراهم ينزهونهم في البرد الكالح ودرجة الحرارة ١٨ تحت الصفر والوجوه باسمة مستبشرة. والهولانديون كثير نسلهم بحيث أكد أحد علماء الإحصاء أنهم سيبلغون ثلاثين مليونًا بعد عشرين سنة.

هولاندة والإسلام
٨١

الهولانديون قليل عديدهم ضيق نطاق أرضهم كثيرة فعالهم متسعة مستعمراتهم. شعب في الغرب عدده سبعة ملايين يقود في الشرق أربعة وأربعين مليونًا من البشر. ونعني مستعمرة الهند الهولاندية أوجاوة وما إليها من مئات من الجزائر. وقد شبهها أحد كتاب هولاندة بنطاق من الزمرد يتثنى على طول خط الاستواء. ومساحة هذه المستعمرة ٣٥.٣١ ميلًا جغرافيًا مربعًا أي مساحة قارة أوربا ما عدا روسيا الوسطى وروسية الشرقية [1] تزرع الشاي والقهوة والخيزران والقطن والأرز والمطاط وقصب السكر والقرفة والفلفل والصمغ والطبرخة «غوتابرشا» وجميع أثمار البلاد الحارة والمعتدلة وبقولها حاصلاتها وفيها من المعادن البترول والبنزين والكازولين والقصدير والذهب وغيره.

دخل البورتقاليون هذا الأرخبيل قبل أن يفتحوا ملقة سنة ١٥١١ ببضع سنين وجاء الأسبانيون خصماؤهم من الشرق إلى جزائر الملوك فلم يلبثوا أن تراجعوا إلى جزائر الفيلبين الشمالية وفي أواخر القرن السادس عشر

---

(١) مقالة الهند الهولاندية في الموسوعات الإسلامية
Indes Nèer landaises dans L' Encyclopéodie de L'Islam.

توفق بضعة شعوب من الأوربيين إلى بلوغ تلك الجزائر فجاء الإنكليز سنة ١٥٩٤ والهولانديون سنة ١٥٩٦ ثم الفرنسيون والدانيمركيون والأسوجيون على سفنهم الحربية ليبتاعوا الأبازير والأفاوية والأحجار الكريمة وغير ذلك من الحاصلات. وكان البورتقاليون والصينيون وسكان آسيا الجنوبية قد احتكروا لأنفسهم هذه الأصناف. وفي سنة ١٦٠٢ توحدت الشركات الهولاندية الصغرى وكانت عديدة تتجر في تلك البلاد باسم شركة الهند الشرقية الممتازة فتوسعت أعمالها خلال القرن السابع عشر وزادت نفوذًا في السياسة والاقتصاد وامتدت كلمتها من أفريقية إلى اليابان وعلى شواطئ جنوبي آسيا وأرخبيل الهند الشرقية وتوطدت أقدامها في تلك الأصقاع إلى أواخر القرن الثامن عشر. وفي سنة ١٨٠٠ نزلت هذه الشركة إلى حكومتها عن جميع حقوقها فكان شأن هولاندة مع شركتهم هذه شأن الشركة الإنكليزية التي فتحت الهند. وكانت الشركة الهولاندية تدير شؤون البلاد وتعقد مع بقايا أمراء المسلمين محالفات ولما فقدت هولاندة استقلالها في حرب نابليون انتقلت أحكام هذه المستعمرة إلى أيدي الإنكليز ثم نقرر في مؤتمر فينا إرجاعها إلى هولاندة فأخذت تنظمها وتستثمرها وفي سنة ١٨٢٥ حدثت فيها ثورة اضطرت معها هولاندة إلى أن تقوم ببعض الإصلاحات وتأصلت كلمتها فيها فتوطدت العلائق بين الوطنيين والهولانديين ومعظم السكان من أهل الإسلام بلغوا [1] خمسة وثلاثين مليونًا وفيهم كثير من الهنود المولدين وألوف من العرب الحضارمة أهل حضرموت وقد وصفوا كلهم بالذكاء وأخذوا يقتبسون المدنية الغربية وإن من أبناءهم من أدهشوا باستعدادهم

---

(١) سياسة هولاندة الإسلامية لسنوك هرعرون L'Snouch Hurguonie: Politique musulman de la Hollande.

الفطري أقرانهم من الهولانديين في جامعات أوترخت وأمستردام وليدن ومدرسة الإدارة في دلفت.

قام استعمار هولاندة بين الجاويين على تبادل المنافع وارتبط الهولانديون بالجاويين برباط المصاهرة وقد يصبح الهولاندي وأولاده جاويين أكثر مما يصبح الجاوي هولانديًا. وذلك لما عرف به الجاويون من التسامح وحب السلام ولما عرفت به إدارة هولاندة من اللين في الجملة بعد شدتها خلافا لما تعامل به دول الاستعمار - فيما قيل - البلاد التي يسكنها سكان من الجنس الأسود أو الأحمر أو الأصفر. ومن دواعي الفخر لهولاندة مما يصح إيراده دليلًا على حسن استعمارها أن سكان الهند الهولاندية مازالوا على نمو متصل خلافًا لما عرف من أن الشعب المظلوم المستعبد يقل نسله ويتراجع أمره فإن سكان جزيرة جاوة وحدها وهي أكبر تلك الجزائر وأعظمها جمعًا بين المدنية الأسياوية والمدنية الأوربية قد بلغ في الإحصاء الأخير ثلاثين مليونًا منهم ٢٥٠ ألفًا من الصينيين و٦٥ ألفًا من الأوربيين وكلهم من المولدين في الجزيرة على حين لم يكن عددهم سنة ١٨٩٥ سوى خمسة وعشرين مليونًا.

ترك الهولانديون للمسلمين حريتهم الدينية يحجون ويزكون ويقيمون الصلوات ويحلون مشاكل الزواج والطلاق وغيرها على ما يشاءون. والغالب أن الإسلام دخل الجزيرة منذ سبعة قرون فتم إسلام أهلها في ثلاثة قرون وأخذ بعض شبانها منذ قرنين ونصف قرن يرحلون في طلب العلم إلى مكة المكرمة ويعودون إلى بلادهم ينشرون كلمة التوحيد بين الوثنيين والبوذيين فيزداد الإسلام انتشارًا بواسطتهم وبواسطة التجار وهم ناجحون في هذا الشأن أكثر من الأديان التي لها دعاة منظمون وجمعيات تنفق للدعاية إلى مذهبها عن سعة.

وقد انحصرت تجارة الداخلية بالحضارمة والوطنيين على الأغلب والتجارة الخارجية بالأوربيين ولا سيما الهولانديين. وللعرب هناك زهاء بضع صحف عربية تكتب بلغة لا بأس بها وهذا دليل على كثرة من يقرأون العربية، وكما راعت هولاندة قاعدة حرية الأديان مع الأكثرية من المسلمين رخصت لدعاة البرتستانتية والكثلكة بإنشاء مدارس في تلك البلاد فأسسوا زهاء ألفي مدرسة فيها ١٥٠ ألف طالب وفي مدارس الحكومة أكثر من ٢٧٠ ألف طالب وربما بلغ عدد تلاميذ المدارس في تلك المستعمرة ٤٣٠ ألفًا إذا حسبت المدارس الخاصة، وهناك مدارس عالية لتدريس الطب والصنائع النفيسة والحقوق وغيره تتمة سلسلة التعليم العام. والمستعمرة متصلة مع سائر موانئ الشرق والغرب بسفن تجارية آية بنظامها ونظافتها. ويتكلم بالهولاندية كثير من الوطنيين من تجار وموظفين ومتعلمين بحيث انتشرت لغة هولاندة هنا انتشارها في جنوبي أفريقية بواسطة من توطنها من الهولانديين.

في هذه المستعمرة اليوم حركتان سياسيتان وهي عبارة عن حزب كبير يدعو إلى الاستقلال الإداري في البلاد لاعتقادهم أن الوطنيين أصبحوا قادرين على رؤية شؤونهم بأنفسهم وحزب صغير وهو مؤلف من هنود ووطنيين، يقول بالاستقلال المطلق لتلك الجزائر ونزع ربقة الحكم الهولاندي. وهناك أناس يخافون من هذا الاستقلال إذا تم مخافة أن يرفع على البلاد العلم الياباني أو الإنكليزي يوم يرتفع عنها العلم الهولاندي.

ولا تعمد هولاندة في الغالب إلى القوة في قتال هذه الأفكار التي تضر بمستقبلها خصوصًا وهي تعرف أن الجاويين ليسوا أمة حربية، وقد جعلت لهم جيشًا مؤلفًا من أبنائها وهم نحو ثلثه لحفظ النظام. ولهذه المستعمرة أسطول حربي خاص بها. وقل إن حدثت في الماضي حوادث بين المستعمر والمستعمر كما حدث في الهند والجزائر مثلًا اللهم إلا

ثورة سنة ١٨٢٥ ومعظم شؤون الهند الشرقية بأيدي الوطنيين ولا يزال هناك بعض أمرائهم من المسلمين الذين أبقت عليهم هولاندة يتمتعون بحقوقهم إلا قليلًا وترجع الأعمال الكبرى إلى أناس من الهولانديين والحاكم هولاندي يعينه ملك بلاد القاع.

هولاندة والعرب
٨٢

سألت العلامة الأستاذ هوتسما Houtsma مدير دائرة المعارف الإسلامية وعضو المجمع العلمي العربي وناشر كتاب زبدة النصرة للعماد الأصفهاني وتاريخ ابن واضح اليعقوبي والأضداد لابن الأنباري وغير ذلك من كتب العرب – عن منشأ الاستشراق العربي في هولاندة والسبب الذي دعا إليه فأجابني حفظه الله وهو الحجة الثقة في هذا الباب بما تعريبه: «عملًا بوعدي أرسل إليكم عجالة في مبدأ الدروس العربية وارتقائها» ويرد ذلك إلى الزمن الذي أسست فيه جمهورية الولايات الهولاندية المتحدة أواخر القرن السادس عشر التي نشأت من معارضة البرتستانت للحكومة الكاثوليكية الأسبانية. وأول ما صرفت إليه العناية في تعليم اللاهوت البرتستانتي درس تفسير الكتاب المقدس ودرس اللغة العبرية واللغات السامية الأخرى ولا سيما العربية وهناك سبب آخر كان يدعو إلى تعلم العربية وهو كثرة إتجار الهولنديين مع سكان البلاد المغربية (مراكش والجزائر وطرابلس) وأهل الشرق الأقرب.

وربما كان الأستاذ توما اربنيوس [1] Ph Erpénus المتوفى في ليدن سنة ١٦٢٤ هو مؤسس هذه النهضة. وذلك أنه كان تلقف من اللغة العربية

---

(١) في معجم لاروس اربن Erpen ولعله هو هو.

حظًا صالحًا مستغربًا بالنسبة لعصره وعزم أن يرسل إلى الشرق لأن الكتب المطبوعة بالعربية كانت على عهده نادرة جدًا ومن بواعث الأسف أنه اضطر إلى العدول عن سياحته هذه فبلغ في رحلته إلى البندقية، ولكنه توفق إلى الاجتماع في باريز وغيرها بعرب من الجزائر ومراكش وجمع كمية من المخطوطات العربية فتوسعت معلوماته. ولما عاد إلى ليدن نشر (سنة ١٦١٣) كتابًا في نحو اللغو العربية واللاتينية وفي سنة ١٦١٥ نشر حكايات لقمان وأعد للطبع كتاب التاريخ العام للشيخ المكين الذي طبع بعد وفاته سنة ١٦٢٥ ولطبع هذه الكتب أنشأ بنفسه في ليدن مطبعة جهزها بأمهات الحروف العربية ما زالت إلى اليوم باقية على ما تعاورها من التغيير الذي اقتضاه الزمن.

وكان تلميذه يعقوب غوليوس Y Golius أسعد حالًا منه فإنه رافق بعثة الولايات الهولاندية المتحدة إلى مراكش سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٤ ثم زار الشرق وقد دخل أخوه بطرس في الرهبنة الكرملية وقضى جميع حياته في الشرق، وترجم كتبًا مسيحية بالعربية وبقي يعقوب في ليدن ودرس العربية إلى حين وفاته سنة ١٦٦٧ ونشر معجمًا عربيًا لاتينيًا وأعد للطبع كتاب الفلك للفرغاني الذي ظهر سنة ١٦٦٩ وقد ظل طول حياته على اتصال مع أصحابه من العرب الذين لقيهم في سياحاته، أو من كانوا يأتون نادرًا إلى هولاندة، وعني كل العناية بابتياع مخطوطات عربية لخزانة كتبه الخاصة ولخزانة المدرسة الجامعة، وقد اغتنت مجموعة الجامعة بعد قليل من الزمن بوفاة وارنير warner .. I من تلاميذ غوليوس وسفير هولاندة في الأستانة (١٦٥٥ - ١٦٦٥) الذي وقف عليها مجموعة كتبه العربية والفارسية والتركية وكان أكثرها من خزانة حاجي خليفة المشهور

بمعرفة الكتب [١] ومن تلامذة غوليوس أيضًا رلاند A Reland أستاذ في جامعة أوترخت في بداءة القرن الثامن عشر. وصاحب التصانيف الكثيرة بالجغرافية والآثار القديمة في فلسطين وكتاب في الدين المحمدي (١٧١٨) خلا من شوائب التعصب للنصرانية وكتب لغاية علمية صرفة. ولم تلبث العناية بالدروس العربية بعد الأستاذ رلاند أن ضعفت عن القرن السابق. وذلك لأن التجارة مع الشرق لم يعد لها تلك المكانة التي كانت لها سابقًا. وأصبحت الصلات مع الشعوب الذين هم من أصول عربية تقع على الندرة فلم يرحل إلى الشرق عالم واحد ليأخذ عن أهله علومهم. وقل الاتصال مباشرة مع الحياة الشرقية. ولم يعد للغة العربية من فائدة إلا لعلماء اللاهوت ممن رأوا فيها غناء في فهم الكتاب المقدس. وأشهر هؤلاء المستعربين شولتنس A Sehultens من أساتذة جامعة ليدن (١٧٢٩ - ١٧٥٠) الذي حاول إرجاع معنى الكلمات العبرية إلى أصل عربي وبهذه الصورة يتأتى شرح جميع مشكلات التوراة وكان من أمر ابنه وحفيده وكلاهما أستاذ في العربية إن سارا على خطته مثل كثير من المستعربين في ذاك العهد. وقد نشر شولتنس (١٧٣٢ - ١٧٥٥) سيرة صلاح الدين لبهاء الدين. وعلى ذاك العهد كسف مجد علوم المشرقيات في هولاندة وأصبحت في ظلمات بانبعاث النور من ناحية المشتغلين

---

(١) من غريب الاتفاق إن كاتب شلبي أو الحاج خليفة صاحب كشف الظنون وجلها وغيرهما من الكتب الجيدة قد أخذ الرياضيات والطبيعيات والجغرافيا وغيرها في القسطنطينية عن عالم هولاندي جاء تلك العاصمة ليدرس اللغات الشرقية ودان بالإسلام ولما هلك كاتب شلبي بيعت كتبه فاقتنى أكثرها السفير الهولاندي وهي التي وقفها على جامعة ليدن فكانت المادة المهمة لتميز مجموعة الكتب العربية في ليدن عن غيرها لأنها انتقاء عالم كبير مثل كاتب جلبي وفيها لباب العلوم ولم تؤخذ سقيًا ورعيا وليس فيها الغث والسمين. لهولاندة على كاتب شلبي يد بيضاء بتلقينه علومًا لا عهد للترك بها تعلمها وألف فيها وأفاد وقابلها على صنيعها بأن أعطاها من علوم العرب والإسلام مالا عهد للهولانديين به (المترجم).

بالمشرقيات من الفرنسيس بنبوغ سلفستر دي ساسي Sylvestre de Saey أوائل المائة التاسعة عشرة وكادت تعجز عن مجاراة علماء المشرقيات من الألمان وعلى هذا فلا أقول شيئًا في هاما كير Hamaker ونينس Neynts وجونبول Juynboll وغيرهم من أساتذة العربية وإن نشر الأخير عدة كتب منها جزء من تاريخ أبي المحاسن والمعجم الجغرافي مراصد الاطلاع.

وما الداعية الحقيقي للغة العربية في هولاندة الأدوزي R.P.A.Dozy أستاذ جامعة ليدن (١٨٥٠ - ١٨٨٣) الذي وسد إليه ويا للأسف تدريس التاريخ العام بدلًا من تدريس العربية الذي كان يشغل منبره إذ ذاك الأستاذ جونبول وقد عني لأول أمره بتاريخ العرب في أسبانيا الذي جلاه للأبصار بسلسلة من المطبوعات مثل كتب عبد الواحد المراكشي (١٨٤٧ - ١٨٨١) والبيان المغرب لابن عذارى (١٨٤٨ - ١٨٥١) وأبحاث على التاريخ السياسي والأدبي في أسبانيا خلال القرون الوسطى (الطبعة الثالثة سنة ١٨٨١) وتاريخ مسلمي أسبانيا (١٨٦١) وهو من أجمل ما كتب في بيان النبوغ العربي ومن حيث أسلوب إنشائه؛ ولم تقتصر أبحاثه على تاريخ العرب في أسبانيا بل نشر سنة ١٨٤٨ معجمًا مطولًا في أسماء ألبسة العرب ونشر في آخر عمره (١٨٧٧ - ١٨٨٠) ذيلًا علما لمعاجم العربية وهو من أهم المصنفات لكل المستعربين الأوربيين. وكذلك كتابه في تاريخ الإسلام الذي كتبه سنة ١٨٦٣ باللغة الهولاندية ونقله شوفين إلى الإفرنسية وأظنه ترجم أيضًا بالعربية.

وهنا أنجز معروضي الوجيز عن الدروس العربية في هولاندة فإن ما قام به تلامذة دوزي في هذا الشأن مثل دي خوي [1] M.j.de Goeg ويونغ P. de Jong معروف لديكم فلا أطيل بتكراره هنا.

ولكم بما رأيتم من هذا البيان الجلي أن تحكموا بأنفسكم على ما بذله الهولانديون من الغيرة التي لا تعرف النصب ليتمكنوا من معرفة لغتكم الشريفة ويدركوا أسرار الآداب العربية وبديهي أن علماء المشرقيات من الهولانديين يهتمون جد الاهتمام للعمل الباهر الذي تقومون به في الشام لإحياء هذه الآداب لتعيدوا للعرب ما كان لهم قديمًا من المقام المحمود في ساحة العلم البشري أ هـ.

هذا ما تفضل به صديقنا الكريم من المعلومات النافعة عربناه شاكرين له يده البيضاء على آدابنا ولغتنا. ولا شك أن القارئ قد تبين له مبلغ عناية الهولانديين بل معظم أجيال الغربيين بالعربية وآثارها. ولا عجب فهم مثال الدؤوب على كل عمل نافع وقد أفادوا بما نشروه من آثار أسلافنا تاريخ مدنية باهرة. ولا بأس بأن نشير بهذه المناسبة إلى المطبعة الشرقية التي أعانت المشتغلين بالمشرقيات من بلاد القاع وغيرها على نشر ما أحيوه منذ ثلثمائة سنة من كتب السلف الصالح في ضروب المطالب المدنية كالتاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والآداب واللغة والشعر

(١) إن العلامة دي خوي المتوفى سنة ١٩٠٩ ناشر كتاب تجاري الأمم لابن مسكويه والعيون والحدائق ومكتبة الجغرافيين العرب وهي مؤلفة من جغرافية الاصطخرى وابن حوقل والمقدسي وابن الفقيه وابن خرداذبة وابن رستة وابن واضح والمودي مع الفهارس وناشر تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري - قد عد من أعظم علماء المشرقيات في الغرب لإحيائه هذه الكتب النفيسة ولا سيما المكتبة الجغرافية وتاريخ الطبري فهو من مفاخر هولاندة بلا مراء. أما الأستاذ يونغ فهو ناشر كتاب المشتبه للذهي وكتاب الأنساب لأبي المفضل المقدسي ولطائف المعارف للثعالبي وكتاب الحراج لابن آدم وغيره فيعد من كبار المستعربين أيضًا (المترجم).

والاجتماع بل والحديث والفقه والأصول. وما زالت هذه اللغة من لطف الله بها يخدمها الأعاجم ويغار عليها من ليسوا من أبنائها. فيحسن خدمتها الدخيل أكثر من الأصيل. وكيف لا نهنئ الهولانديين وقد خدموا لغتنا وشرعوا بنشر آثارها يوم لم يكن لنا مطبعة واحدة في جميع بلاد هذا الشرق القريب ولا من يفكر من علمائها وأدبائها في طبع رسالة أوكراس أو كتاب من علومها يوم كان الانحطاط باديا في جميع مظاهر حياتنا.

كانت المطبعة التي أسسها في هولاندة مؤسس النهضة العربية فيها هي التي أنشأها في ليدن المستشرق أربنيوس بمعاونة حكومته. وما زالت هذه المطبعة تنتقل من يد إلى أخرى حتى كان مديرها سنة ١٨١٢ جوها لابريل Bull ثم تولاها ابنه. ثم صارت شركة مغفلة بهذا الاسم يديرها اليوم أحد الشركاء السيد بلتنبورج Peltenburg وقد طبعت حتى الآن نحو ٣٥٠ مصنفًا باللغات الشرقية ولا سيما العربية فإن نحو نصف ما طبعت بالعربية جاء مثال جودة الطبع والوضع والعناية. وهي نطبع من اللغات الشرقية باللغة المصرية أي بالحروف الهيروغليفية ولغة كهنة المصريين ولغتهم العامية وباللغة القبطية ومن اللغات السامية بالأشورية والبابلية والعبرية والآرامية (السريانية والسامرية) والحبشية والعربية ونطبع باللغة التركية وبالفارسية والسنكريتية وهما من اللغات الآرنية ومن لغات مالايو البولونيزية باللغة الجاوية والمالاوية والمادورية والباتاكية والروتية ومن لغات الشرق الأقصى بالصينية واليابانية والسيامية.

وقد اعتمد علماء المشرقيات في أوربا وأميركا على هذه المطبعة حتى في الممالك التي فيها أحسن المطابع العربية كألمانيا وإنجلترا ومطبوعاتها غالية الثمن لأنهم يطبعون منها عددًا قليلًا بقدر حاجة علماء المشرقيات والمجامع العلمية إلا قليلًا، ومن الكتب والرسائل التي طبعت فيها ومنها ما نفد ومنها ما أعيد طبعه ثانية كتب ابن سينا والفارابي والجاحظ

والغزالي والطبري واليعقوبي وابن الأثير والخوارزمي والبلاذري والمقدسي والذهبي والاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه وابن رستة والهمداني وابن تغرى بردي والجمحي والمسعودي والدينوري والإدريسي وابن قتيبة وابن بدرون وابن هشام وابن القيسراني وابن خطيب الدهشة وابن مسكويه وابن الأنباري والثعالبي والشيرازي والبخاري وابن حزم والأصفهاني والسجستاني والمقريزي والمقري وابن آدام وابن خرداذبة وابن منقذ وابن سعد وابن سعيد وابن قوطية وابن ولاد وابن إسحاق والرازي وأرسطو والميموني والرامهرمزي وابن جبير وغيرهم من كبار المؤلفين المحققين.

وآخر ما تطبعه مطبعة بريل الموسوعات الإسلامية Encyclopedie de Islam وهي تصدر باللغات العلمية الثلاث الألمانية والإنكليزية والإفرنسية، وقد وصلوا بها إلى أواخر حرف I فتكلموا في الكراسة السادسة والعشرين على الإسلام ويؤازر في هذه الموسوعات كبار علماء المشرقيات في الغرب ومنهم بعض الهنود والجزائريين. وقد نشرت هذه المطبعة من دواوين الشعر طائفة صالحة منها حماسة البحتري. وديوان أبي فراس وديوان عيينة بن الأبرص والمفضليات والهاشميات وصريع الغواني وحسان بن ثابت والقطامي ونقائض جرير والفرزدق وغيرها. وكما نطبع ليدن الكتب العربية والشرقية فإن مدينة هارلم الهولاندية تطبع الطوابع الفارسية ولا يستغرب ذلك من مملكة صغيرة فيها نحو خمسمائة مطبعة وأربعة عشر ألف عامل في الطباعة وألف ومائة جريدة ومجلة. هولاندة بعيدة عن الشرق بموقعها ولكنها قريبة بما تنشره له وما تعقده من الصلات الحسنة الأدبية.

أمم الغرب

معاهد إنكلترا

المتحف البريطاني - جامعة أكسفورد - جامعة كمبريج

٨٣

لم يكتب لي أن أقضي في إنكلترا سوى أربعة أيام صرفت نصفها في لندرا لزيارة المتحف البريطاني وابتياع كتب من مطبوعات الغرب وخصصت اليومين الآخرين بجامعة أكسفورد وجامعة كمبريج.

إن مدينة لندرا وحدها وسكانها ثمانية ملايين ونصف تؤلف اليوم نحو عشر عواصم كالقاهرة بمساحتها وسكانها وتبلغ وحدها مقدار أربعين مدينة من مثل مدينة دمشق تحتاج ولا جرم إلى أن يصرف المرء فيها أشهرًا حتى يزور معاهدها وقصورها ويعرف نموذجًا من إداراتها ونظاراتها ومتاجرها ومصارفها فما بالك به إذا سمت همته لأن يزور معامل لنكشير ومناجم الغال وما في ولاياتها من الصنائع والبدائع ولا سيما في ليفربول ومنشستر وبرمنغهام. ولذلك اكتفيت بنموذج مما يهمني من المدارس والمتاحف والمكاتب. أما البحث في مدنية الإنكليز وأخلاقهم فمرجعه الكتب ولم يبق الباحثون فيها مقالًا لقائل ولا مجالًا لجائل.

ركبت السيارة أطوف في أحياء لندن وضواحيها بضع ساعات وما أظنني لمحت إلا جزءًا منها وناهيك بعاصمة هي مجموعة بلدان وحواضر وقرى وناهيك بعاصمة فيها من أنواع المحطات للسكك الحديدية عشر محطات كلها آية في الضخامة وأذكر أني خرجت من إحداها وأنا قاصد إلى كمبريج في القطار وعلى جانبي قطاران آخران يخرجان في نفس تلك الدقيقة من المحطة. وكل شيء هنا يدل على عظمة الإنكليز وتغاليهم في

الرفاهية والصحة وما أذكر أني رأيت بلدًا في الغرب أشبه للمندرا أكثر فيه التأنق في المطاعم واستجادة أبنيتها وأثاثها وضروب الراحة فيها إلا فليس نظافة من مركباتها الكهربائية والبخارية ومن محطات سككها الحديدية وسككها الكهربائية. أما مجال الاطمئنان العامة في الشوارع فهي على غاية ما يتصور من الإتقان والنظافة ولا عجب فهي منذ القديم مضرب الأمثال بفرط نظافتها.

المتحف البريطاني في لندرا بمثابة خزانة كتب الأمة ومتحف اللوفر في باريز وفيه الكتب والعاديات معًا. أسس سنة ١٧٥٣ ولم تكن فيه إذ ذاك إلا بضع مجموعات فلم يلبث أن اغتني بسرعة غريبة وبني بناؤه الحالي بين سنتي ١٨٢٣-١٨٥٢.

المتاحف والمكاتب دليل محسوس على ارتقاء أمة وانبساط ظل سلطانها وعظمة تاريخها الغابر والحاضر. وناهيك بإنكلترا أعظم حكومات الأرض بمستعمراتها وقد بلغ المتفيئون ظلالها زهاء أربعمائة مليون من البشر أو نحو ربع سكان المعمور. ولا عجب إذا كان متحفها وكليتها آية الآيات وموضوع إعجاب الأمم بأسرها وفي دار كتبها اليوم ثلاثة ملايين من المجلدات أو تزيد. فيها أنفس المجاميع المخطوطة الإنكليزية وغيرها من اللغات ومجموعة المخطوطات العربية وحدها تعد بالألوف جعل فهرستها في ثلاثة مجلدات كبرى. وجعلت المكتبة تحت قبة عالية أعلى من قبة كنيسة ماربطرس في رومية وأحط من قبة كنيسة البانتيون بباريز. وجعل حوالي القبة التي يجلس تحتها ستمائة مطالع بالراحة دون أن يشوش الواحد منهم على جاره - مخازن الكتب على رفرف من الحديد طبقات بحيث يسهل الإتيان بما يطلبه الكاتب منها وكتب المراجعة كالمعاجم والفهارس ونحوها جعلت تحت القبة يتناولها

المطالع حالًا وهي تربو على عشرين ألف مجلد وهناك غرفة خاصة بمن يريدون الرجوع إلى الصحف والوثائق السياسية والبرلمانية.

وقد جعل المتحف على صورة عملية منظمة مستوفاة شروط الصحة فيه. وهو من أغنى متاحف العالم قسم أقسامًا وكل قسم حوى آثار أمة من الأمم إذا رأيته تظن المتحف البريطاني لا يحوي غيره لكثرة ما جهز به من الآثار وبذل فيه من العناية فمنها آثار المصريين والهنود والصينيين واليابانيين وغيرهم من أمم الغرب ولا سيما بريطانيا العظمى فحدث عما حوت فروعها ولا حرج من النوواويس والقبريات والدروج والبردي والألواح والنقوش والأواني والسلاح والقيشاني والمفصص والمجصص والمنحس والمصفح والمذهب والمفضض.

وميزانية المتحف البريطاني مليون جنيه في السنة ويقسم إلى اثنتي عشرة دائرة يتولى كلًا منها حافظ من الحفاظ وهم حافظ المطبوعات والمخطوطات والعاديات الشرقية والقرون الوسطى وأصول الشعوب والآثار اليونانية والرومانية والنقود والأيقونات والمصورات والخرائط والرسوم المطبوعة والصور المختومة والنبات والحيوان ومطمورات الأرض ومعادنها. ولا أغالي إذا قلت إن الزائر إذا أحب أن ينظر في كل قطعة من عاديات المتحف ويبحث في كل فرع من فروع المخطوطات والمطبوعات في خزانة الكتب يحتاج إلى صرف سنة من عمره ويخرج بعد ذلك وهو غير كثير الإلمام بما حوت تلك البقعة من المفرد والمركب والقديم والحديث ولذلك اكتفيت بالإلماع إلى ما هناك لأن وصف ما فيه يحتاج وحده إلى مجلد برأسه.

في بريطانيا العظمى سبع عشرة جامعة منها عشر جامعات في إنكلترا أقدمها جامعتها أكسفورد وكمبريج والجامعات العشر جامعة لندرا

ودورهام ومانشستر وليفربول وليدس وبرمنغهام وشيفلد وبريستول وأكثرها حديثة انتظم أمرها في العقد الثاني من القرن التاسع عشر أو في أوائل القرن العشرين وقد كثرت الجامعات عقيب ارتقاء المدارس الوسطى (الكوليجات) في إنكلترا وفي أيكوسيا أربع جامعات وهي جامعة سانت أندري وجامعة غلاسكو وجامعة إيردين وجامعة أديمبروغ وجامعة والس في بلاد الغال وجامعة دوبلين والجامعة الملوكية في أيرلاندا.

وقد وصف منذ ستين سنة جامعتي أكسفورد وكمبريج عالمان كبيران أحدهما عربي وهو «أحمد فارس» والثاني فرنساوي وهو «تين» فقال الأول: واعلم أن كمبريج وأكسفورد هما مدينتان في بلاد الإنكليز كل منهما يحتوي على نحو عشرين مدرسة وألفي طالب ففي الأولى تعلم الهندسة والرياضيات والإلهيات وفي الثانية علوم الأدب والفقه والمنطق والفلسفة ولا يمكن التعلم فيهما إلا بنفقة زائدة وما أحد يقصدهما إلا أولاد الكبراء والأغنياء ولاسيما أكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخًا بأنفه مصعرًا خده كأنما هو طالب ملك الصين والهند وأكثرهم يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريًا فمتى حان وقت الامتحان عرف ما يريد الشيخ أن يمتحنه به من المسائل إذ هي محصورة معدودة فيجتهد في حفظها وترسمها فإذا سردها عليه وأحسن سردها أجازه بصك يذكر فيه إنه نال مرتبة المعلمين وهي عندهم متنوعة ولكل من هذه المدارس أوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها وربما كان أيضًا من غير القسيس فإن كل من نبغ في علم من العلوم أجرى عليه الرزق من الوقف وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير أن كتب أكسفورد أكثرها.

وقال «تين» إن أكسفورد مجموع أربع وعشرين مدرسة أو معهد خاص مستقلة ولكل واحدة ريع يقدر على الأقل بخمسة عشر ألف جنيه

ومنها ما يبلغ ريعه أربعين ألف جنيه فصاعدًا وفيها جامعة للأساتذة جعلت مركزًا للمدارس ويقبض المدير من ألف إلى ثلاثة آلاف جنيه في السنة والمعلم من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جنيه والمعيد المراقب من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ والجامعة عندهم أشبه بجماعة من الأساتذة يشبهون أساتذة الكوليج دي فرانس في باريز فالطالب غير مضطر إلى حضور الدروس وراتب معظم الأساتذة من خمسمائة إلى ستمائة جنيه ومنهم من يقبض أقل من ذلك ومنهم ألف جنيه ومن أساتذة اللاهوت من يقبضون ١٧٠٠ جنية في العام وقد يقبض العميد فيهم من ١٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ جنيه ماعدا الدار التي يسكنها والحديقة التي يتمتع بثمارها وبقولها وهؤلاء الأساتذة مضطرون أن يعيشوا عيشًا مرفهًا وأن يقروا الضيوف ويعاونوا في جميع ضروب الإعانات بحيث إنهم ينفقون في الغالب جميع رواتبهم شأن الأساقفة ومعظم كبار الموظفين[1].

في أكسفورد نحو ١٣٠٠٠ طالب وفي كمبريج ١٢٠٠ ومنهم في لندرا وهذا الدرس المتمم العالي هو خاص في العادة بطبقة الأشراف والأغنياء من الأقلية وذلك لأنه يكلف نفقة طائلة (من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جنيه في السنة وتكثر جدًّا أبواب الصرف) ولأن هذا الدرس هو من الكماليات للذهن (الرياضيات المجردة واللغتان اليونانية واللاتينية) ولأنه يؤخر الدخول في الأعمال المثمرة. ولكل طالب غرفتان أو ثلاث غرف في المدرسة بحيث يتألف منها خلية نحل. وعلى الطالب أن يحضر صباحًا في الكنيسة ويحضر درسًا واحدًا ومن يتخلف مساءً عن الساعة التاسعة يعاقب في الغالب بغرامات مالية والتلميذ الصغير أكثر حرية من الطالب

---

(١) يقبض قاضي القضاة في لندرا ٢٥٠ ألف فرنك في السنة أو عشرة آلاف جنيه والقضاة العاديون ١٥٠ ألفا وفيهم من يقبض ٢٠٠ ألف وقضاة المقاطعات يتناولون ٣٧.٥٠٠ فرنك.

الكبير واليافع عندما يكبر لا يتنقل من نظام ديري إلى استقلال مطلق بل أن تنقله مدبر بحكمة فهو يترك في المدرسة لنفسه في شؤون كثيرة أما في المدرسة الجامعة فلا يخلي وشأنه بالمرة ومثل هذا الاحتياط جميل في باب عدم الإفراط في الحرية. واعتياد الحرية ضمان أخلاقي والمراقبة ضمان طبيعي. ثم إن أكسفورد وكمبريج مدينتان صغيرتان فلا ينزل الشاب عاصمة تدعوه ملاهيها ولذائذها إلى إضاعة وقته بل يعيش في الخلاء ويعاني الرياضات البدنية ولا يبحث عن ملهيات في دور التمثيل والمقاهي والجواد العظمى ويبتعد عن إغراء المغرين وحديث المحدثين ولذائذ المتلذذين. وليس في هاتين البلدتين شيء من الفحش ومن تميل أنفسهم إليه يذهبون إلى القرى المجاورة أو إلى لندن ونصف الطلبة أعفة طاهرة ذيولهم وأهم نقص فيهم الميل لتعاطي الخمر. وكانت المسكرات شائعة هنا منذ خمسين سنة شيوعًا كثيرًا كما هو الحال بين أهل الطبقة العالية فأصبح تعاطيها الآن نادرًا. ويبقى الطالب في هاتين الجامعتين على شيء من التدين ويقل فيهم الانحلال ولو بالصورة الظاهرة بل هم يدينون بالبرتستانتية أو ما يتشعب عنها من مذاهب المصلحين.

مدة التدريس ثلاث سنوات ويراجع الطالب في السنة الأولى المواد التي تعلمها في المدرسة والفحصان الأولان يجريان في النحو واللغة وهما عبارة عن البحث في مؤلفين أو ثلاثة من مؤلفي اليونان واللاتين ومساجلة باليونانية أو اللاتينية نثرًا أو شعرًا وبعض أسئلة في الإنجيل والتوراة. والفحص الثالث عبارة عن المساجلة في نفس المواد ولكن بصورة أوسع نظرًا وأوفر نقدًا وأشد عناية بالتاريخ والفلسفة. ثم يكون للطالب الخيار في اختيار أحد الأربعة الفحوص النهائية والأول في الرياضيات والثاني في العلوم الطبيعية والثالث في الآداب واللغات القديمة والرابع في التاريخ الحديث والشريعة والاقتصاد السياسي. وأهم

ما يتعلمه الطالب تهذيب خلقه وتوجيه إرادته وتعريف ميوله. ولما كان معظم الطلبة من أبناء النبلاء أو الأغنياء كان عيشهم على أسلوبهم الخاص ودبدبتهم المعهودة وكثير من الأغنياء يبعثون بأولادهم إلى هاتين الجامعتين ليتعرفوا إلى أهل تلك الطبقة التي تأوي إلى المدرسة وتكون لها بمثابة ناد ومجمع وقد يكون التمييز على أشده بين النبلاء وغيرهم في بعض المدارس سواء كان في الطعام واللباس ومنزلة الطلبة وثروتهم مما يعتد به كثيرًا ومن الطلبة من يصرفون خمسمائة جنيه وأكثر خرجهم الخاص.

هذا ما قاله العالمان في وصف الجامعتين الإنكليزيتين اللتين تخرج برجالهما رجال إنكلترا أمثال إيراسم وميلتون وباكون ونيوتن وبايرون ودريدن ودون سكوت وفيكليف. ولا شك أن بعض الأحوال قد ارتقت وبعض المصطلحات قد تغيرت بطول العهد. ففي جامعة بكريج اليوم زهاء ثلاثة آلاف طالب في ١٩ مدرسة أو دائرة منها ثنتان للسيدات وفي المدينة نحو خمسين ألف ساكن ويرد تاريخ إنشاء جامعة كمبريج إلى القرن الثالث عشر وكذلك جامعة أكسفورد وهذه مؤلفة اليوم من خمس وعشرين مدرسة. وفي أكسفورد مكتبة البودلين المشهورة وفيها مجموعة مهمة جدًّا من المخطوطات والمطبوعات العربية نشرت مجموعتها الأولى منذ قرن ونصف.

ولا تزال تلك المباني الشاهقة الشائقة كما كانت يوم بناها بناتها ومنها ما يرد تاريخه إلى القرن الثالث عشر مثل مدرسة الثالوث في كمبريج فإنها من أجمل ما رأته العين من أبنية القرون الوسطى في الغرب.

المجتمع الإنكليزي
السياحة والإنكليز - توريث البكر - الجمعيات والمنتديات - أشرافهم ونبلاؤهم
٨٤

أكثر الأمم الغربية جرأة على الضرب في الأرض وغرامًا بالارتحال الأمة الإنكليزية كما هي أكثر الأمم إقدامًا على العظائم. وحيثما انقلبت في الغرب وفي الشرق في القطارات أو السفن في الفنادق والأماكن العامة لا تجد إلا إنكليزًا رجالًا ونساءً يسيحون على اختلاف طبقاتهم. وسواء عندهم الرحلة البعيدة والقريبة. ينفقون النفقات الطائلة في هذا السبيل مما لا تستطيع سائر الأمم أن تجاريهم فيه اللهم إلا سكان الولايات المتحدة وهم إنكليز أيضًا إن لم يكونوا بعنصرهم فبتربيتهم. السياحة دليل النشاط وأنشط الأمم الأنكلوسكسونية. ومن الغريب أن الإنكليزي اليوم يسيح في ألمانيا والنمسا بل في فرنسا وإيطاليا ويكاد لا ينفق جزءًا من عشرة مما ينفقه في بلاده وذلك لارتفاع ورقة النقدي ونزول أسعار الورق في هذه الممالك ولاسيما ألمانيا والنمسا وبولونيا والتشكوسلوفاكيا ورومانيا واليوغوسلافيا.

ذكر «تين» إن كثيرًا من نواب إنكلترا يغنمون فرصة العطلة النيابية ليذهبوا إلى فرنسا أو أسبانيا أو إيطاليا أو ألمانيا يصححون معلوماتهم السابقة ويأخذون أفكارًا جديدة يذهبون لا مرة ومرتين بل ستًّا وثماني وعشر مرات ليقفوا على أمور ويتتبعوا تموجات الرأي العلم. وعلى هذا فإن أحكامهم محكمة أبدًا تتهيأ لها أساليب الصحة والتحقيق. إذا حدث خطب في الدانيمرك وبولونيا ورومية والولايات المتحدة لا يعتم

الإنكليزي أن يهرع في الحال لأخذ إيضاحات صريحة عما حدث ومتى وافى الإنكليزي بلدًا أجنبيًا يتعرف إلى العظماء من أهله.ويدعوهم إليه ويقلبهم وينفضهم كما يقلب المرء كتابًا وينفضه وربما دون كل ما دار بينهما من الحديث ومتى انقلب إلى أهله يبلغ أمته ما وقع عليه من الحقائق ويحمل إلى أهل عالمه وأبناء حرفته ومحيطه ما يزيدهم معرفة فيما هم بسبيله وكم من إنكليزي طاف المزارع والمعامل في غير بلاده وكتب عنها تقارير ممتعة وألقى عنها محاضرات جيدة وكم من رجل زار المعامل في أوربا وأميركا فألف فيها وحاضر والفقير منهم يقتصد جزءًا من المال من عمله ليجري به سياحة خلال السنة ويعود وقد حفل وطابه بما طاب له من الحقائق وما رأته عينه من النظريات. وما من فتى نشأ من أسرة طيبة لا يسيح العالم كله. وكل تربية تامة تستلزم سياحات في الخارج ومقامًا فيه طال أو قصر. وترى خلال العطلة المحامين ورجال القضاء والأساتذة يأتون زرافات إلى ألمانيا وكثير منهم لا يتمكنون إلا من رؤية ظواهر الأشياء. والإناء لا يستطيع أن يملأ بأكثر من حجمه. بيد أنهم كلهم يعودون ببعض أفكار أو بمبادئ يقل خطاؤها أو بأوهام غير فظيعة على الجملة. وإذا انضمت جميع هذه الاستعلامات في سلك جاء منها رأي عام يقرب من الحقيقة في المسائل الكبرى ولا شأن له في السياسة ويكون على جانب من الصحة حاويًا نصحًا وموعظة ثم إن رجل الدولة الذي يكشف ببصيرته الطريق السليم تعضده أمته وتأخذ بيده في مهمته. البحارة يهللون لربانهم وكثيرًا ما يذهب الجمهور إلى البحث عنه وسوقه إلى أخذ سكان السفينة بيده يديرها.

وبمثل هذا النوع من التربية إذا انتشرت في الطبقة العالية من الأمة تتناول بالطبيعة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة من أهل تلك الطبقة. فإذا كان الفرد فيهم على استعداد لا يسقط لقلة تربيتهم الكافية الخاصة بل

يتلقى ما يقويه ويزيد في مضائه وتصل قريحته وعبقريته إلى الدرجة التي قدر لها الانبعاث ولا يعتم أن يأتي بثمرة طيبة لأن مركزه وثروته وصلاته توفر عليه طول مدة التمرين والاهتمام بجمع المال والعيش. قالوا ومن دواعي الأسف أن طبقة برمتها تنال بصورة ظالمة ثروة موروثة ومكانة قبل أوانها ثم يأتي في جملتها بعض أنذال وكثير من البهائم وأناس وسط في مداركهم. ولكن لا سبيل إلى تأليف طبقة مختارة إلا بمثل هذه الوسائط. وهذا أشبه بزريبة فيها مئة رأس من الخيل يسبق منهاستة وتجد فيها سابقًا دونه السوابق ولكنه واحد في كل ألف. ولا تنجح المملكة إذا لم ترزق رؤساء أصحاب مكانة وكم من مملكة تداعت أركانها لخلوها من رجل عظيم يقودها اهـ.

قاعدة من قواعد التوراة سار عليها الإنكليز فاختلطت بدمائهم وأصبحت لهم شريعة موافقة وعادة راسخة وهي توريثهم بكر الأولاد وحرمان سائر الأبناء والبنات من إرث والديهم. قال أحمد فارس: ومن عادة الكبراء والنبلاء أن لا يورثوا جلاءهم (لقبهم) وأملاكهم إلا للابن البكر فإن شاء أعطى إخوته وإن شاء حرمهم ففي هذه الحالة يلتزم الأهلون أن يقوموا بكفايتهم وإذا كان البكر مسرفًا فبذر أموال أبيه اشترى أصحابه أو أهل البلاد له ولإخوته وظائف من الدولة أو تبعثهم إلى البلاد الخارجية. والحكمة في توريث البكر دون غيره هو بقاء الجلاء في العيلة وصون ناموس البيت وإذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة هذا إذا كان التراث عقارًا فأما إذا كان حصص مضاربة مثلًا أو أشياء متنقلة قسم بين الإخوة اهـ.

وبهذه القاعدة حفظت بعض البيوت في كثير من أصقاع إنكلترا كما كانت منذ بضعة قرون لم تهدم ولم تقسم وظلت بحدائقها وأسوارها ومرافقها وفرشها ونظامها على نحو ما أسسها الجد الأقدم. ومن دور

الكبراء ما هو متاحف مهمة بذاتها وكم من دار نبيل من نبلائهم حوت مجموعة من العاديات أو المجوهرات أو النقوش والصور ما لو كان في حكومة صغرى لعد من موجبات فخارها. ولقد قال ناقدو قاعدة توريث البكر كثيرًا ما يكون أكبر الأولاد في الطبقات الشريفة منذ عهد المدرسة متهتكًا بعشقه مأخوذًا بالتمليق فلا يجيء منه إلا أحمق منفاق متجنن يسيح فلا يأتي من رحلته بفائدة بل يحمل العادات القبيحة من غير بلاده ويسترسل في شهواته وقد يمل من حياته. ولو لم تكن طبقة النبلاء تتجدد بمن يدخل فيها من أهل الطبقة الثانية ذات العقول والقرائح لأصبحت أعضاؤها مؤوفة وضعفت عقولهم وكانت شرًّا على المجتمع كما هو الحال في ممالك أخرى. ثم إن عدم التساوي بين الأولاد يورث أمورًا مرة فيضطر الولد ا لثاني إن لم يدفعه أخوه إلى الجيش أو الكنيسة أو الإدارة إلى أن يبقى زمنًا محرومًا النعمة سليبًا من الراحة فيهاجر ويتأخر في زواجه ويخدم غيره عشرًا أو عشرين سنة على حين تجد أخاه مستقلًا وغنيًّا من ولادته ليس له إلا أن ينزل في بستان وفي قصر أخذ بأطراف اللذائذ. بيد إن هذا الولد الثاني لا يحزن لما يصيبه من فقد إرث والده كما نتوهم بل يعتاد ذلك منذ الطفولة لقدم العادة بذلك ومشروعيتها فيحتملها ويقبلها كأنها من ضروريات الطبيعة ثم هو لا يخشى النصب لأن مزاجه يدعوه إلى العمل ويهجس له كبرياؤه أن الأجمل بالمرء أن يكدح لمعاشه بنفسه لا أن يتكل على غيره.

الإنكليز مكثرون من الأولاد معتادون الرفاهية يربحون كثيرًا وينفقون كثيرًا فإذا نشأ الولد في محيط يرى فيه البذخ على أتمه ثم تعلم منذ نعومة أظفاره بعد تهيئة عقله بالدرس والتربية أنه محروم مما يراه من الثروة إلا أن يعمل بنفسه ألا يكون له مما يراه مهماز يسوقه إلى العمل ويستسهل السفر إلى الصين والهند واستراليا يرتاد العالم ليغتني ويفتني وينشئ عيلة

ويقيم مجدًا. بهذه الطريقة يغني الضعفاء ولكن فكر الإقدام وحب السبق وقوة النشاط وجميع قوى الفطرة البشرية تعمل عملها والمرء يقوى بالجهاد والأمة يتجدد شبابها والذهب يسيل كالسيل على البلاد.

لا تكمل المدنية إذا خلا المجتمع من طبقة من الأشراف أو تنقصه الحياة العظمى المستقلة المنبعثة إلى أقصى أشواطها المجردة من هموم الشح المستعدة للجمال. قال أحدهم: ويل للقصور وسلام على الأكواخ. والأولى أن يقال: سلام على الأكواخ وسلام على القصور. قال «تين» تغدو إنكلترا في الحقيقة جمهورية تصوغ لها طبقة الأشراف ما تحتاج إليه من الوزراء والنواب والقواد والساسة كمدرسة هندسة تعد القدر اللازم من المهندسين. كثير منهم ضعفاء عجزة لا ينالون خدمة حقيرة إلا أن ينفقوا دخلهم ولكنك تأخذ من هذا العدد من تحتاج إليهم من أركان الجيش ولا أثمن من الحصول على مثل هذا الضرب من الرجال.

بقدر ما ترى من عزوف الإنكليز خارج إنكلترا عن الناس واشمئزازهم تجدهم في بلادهم إلى الألفة والتعاطف وكل شيء يتم عندهم في الأندية (الكلوبات) ومن الغريب أنك لا تجد في إنكلترا وزارة ا للمعارف كما تجد وزارة للأمور الخارجية والمستعمرات مثلًا والأمة تعلم أبناءها بالمعاونات والعطايا والأوقاف. وتكثر الجمعيات الخاصة فتجد فيها جمعيات لإنقاذ الغرقى وتنصير اليهود ونشر التوراة وترقية العلم وحماية الحيوانات وقمع الرذيلة وإلغاء عشور أرباب الدين وجعل العملة أرباب أملاك وبناء بيوت جميلة وتوفير دراهم لهم وللهجرة ونشر المعلومات الاقتصادية والاجتماعية وحسن استعمال يوم الأحد ومقاومة المسكرات وتأسيس مدرسة للمعلمات وهلمّ جرًّا.

هذا في جمعياتهم وهي تعد بالألوف أما منتدياتهم التي يعمرها في الغالب كل من عرف عندهم باسم لاجنتلمن وهو من بلغ الكمال في التربية والتهذيب فإنها أكثر وأعظم. وكانت الأندية أماكن لتناول الطعام والشراب أولًا ثم انقلبت مع الزمن قصورًا فخمة [1] محترمة ولم يدخلها النساء لأول أمرها وكان لأعضاء النادي فندق خاص بهم يحتوي على غرفة مائدة ومكتبة ومحل للتدخين وحجر للنوم بحيث يكون المرء في ناديه كأنه في بيته الذي يؤويه. ثم استخدمت الأندية للأحزاب السياسية ثم انقسمت أقسامًا بحسب مقاصدها. وإنكلترا في مقدمة الأمم في التناغي بطبقاتها لا يستطيع فيها أهل طبقة معينة أن يختلطوا بغير طبقتهم.

ومن الأندية السياسي والعلمي ومنها أندية الرياضات البدنية والحمامات والصيد واللعب والشرب وأندية العزاب والممتنعين عن التدخين والشراب. وهناك أندية خاصة بأبناء حرفة معينة وطبقة معينة وفكر معين حتى صارت الأندية تعد بالمئات في بريطانيا العظمى. ومن ثمرات الأندية عند البريطانيين أن أهل كل حرفة وطبقة يعرفون في أنديتهم أقدر الرجال فيهم فإذا جاء وقت انتخاب مجلس النواب يكون لمبرزيهم منهم أعرف الدعاة لهم فيختارونهم للنيابة عن الأمة أي أن أعضاء نادي الأشراف وأعضاء نادي الحوذيين والسواقين والسكافيين والطباعين والوراقين والغزالين والفحامين بل وكل ما يخطر ببالك من أرباب الصناعات المختلفة يستعينون بالأندية على اختيار مدارك إخوانهم فينيبون عنهم أخطبهم وأعقلهم وآمنهم وأعلمهم.

ومن غرائب الأندية في لندرا اليوم نادي السكوت وهو للصم البكم ليس فيه كلام يسمع ولا جرس يقرع ومن يدخل النادي من المشتركين

---

(١) من خطاب لنا كتبناه سنة ١٩١٣.

فيه يكبس زرًا كهربائيًا ينير قطعة من المكان فيفتح له وبنور الكهربائية أيضًا اصطلحوا على إشارات للتفاهم بينهم ويدخله الرجال والنساء يلعبون بالبيلاردو أو يتحادثون أحاديث صم ويغنون غناء الصم. وفي لندرا ناد للمعتزلين عن الناس يدخله من ضاقت صدورهم من الوحدة والعزلة ولا يقبل فيه النساء إلا بعد سن الخامسة والعشرين وقد جعل دوليًا عامًا ولا يؤدي المشترك فيه شيئًا وهو غريب في بابه لأنه يضم أناسًا من أهل الأرض بأسرها ومن جميع الطبقات الراقية وفيه طائفة كبيرة من أرباب المكانة والشهرة.

وعندهم ناد اسمه نادي «العجل الذهبي» ونادي «القط الأسود» «ونادينا» وهو نادي أعاظم الأدباء ونادي ١٠١ ونادي الست ساعات وهو ناد أعضاؤه ستة يدخلون إليه كل يوم الساعة السادسة ويخرجون الساعة الثانية عشرة ومع كل واحد منهم كتاب. و«النادي الدائم» وعدد أعضائه مئة يقسمون أن لا يبرحوا منازلهم مهما كلفهم الأمر من المخاطر حتى إنه حدث يومًا حريق قرب ناديهم فلم يخرجوا منه إلا بقوة رجال الشرطة. وفي لندرا أندية قلما تقبل فيها النساء وفيها أندية للنساء العازفات عن الزواج. ومن أنديتهم نادي اللوبياء السوداء على مثال نادي نيويورك وهو مؤلف من أربعين عزباء يجتمعون مرة في السنة ويضع رئيسه في صندوق أربعين حبة لوبياء بيضاء ومنها واحدة سوداء ويسحب كل عضو حبة فمن سقطت السوداء في يده حكم عليه قانون النادي بأن يتزوج والنادي يتكفل له بنفقة تزويجه كما يبتاع له أثاث بيته ويقوم بنفقة سفره ثلاثة أسابيع مدة شهر العسل ومنها أندية لطالبات الزواج على مثال نادي اليابان يتم بواسطته كل أسبوع مائتا قران ويتزوج أكثر المقترنين بالنظر إلى صور خطيباتهم الشمسية وفي لندرا ناد للمنتحرين شعاره بالموت شفاء الأسقام كلها ولا يقبل فيه النساء ولا العزاب. ولها ناد للأرواح يدخله علماء

ومحامون وجراحون وباحثون ممن يهتمون بكشف الأسرار عن مخاطبة الأرواح ولها ناد لمن لا أنوف لهم ورئيسه مصري أنفه أقنى للغاية يكاد لا يظهر ونادي مشوهي الخلقة ونادي السوداويين يجتمعون فيه كل أسبوع وهم عبارة عن حوذيين وسواقين وملاحين ليتسابوا ويتشاتموا ويظهروا فضل قرائحهم في علم الطعن والقذف ومن قصر من الأعضاء أو أبدى لطفًا في ألفاظه وحركاته يغرم في المرة الأولى وفي الثانية يطرد من حظيرة أقرانه. وفيها نادي العبوسين يدخله من ساءت أخلاقهم يلتزمون السكوت فيجلس الواحد منهم إلى ناحية يدخن غليونه بدون أن يتكلم. وعندهم نادي من يقسم الناس أربعة أقسام أي نادي البخلاء المقترين وفيه أناس من كبار أرباب الأملاك وأعاظم الماليين. ونادي قتلة البشر وهم يؤثرون القتل على ثلم الشرف ورئيسهم قتل خمسة وعشرين شخصًا في البراز. اهـ. قال من وصف أندية الإنكليز: الأندية مرآة صادقة تقرأ فيها عنوان القلب والأبدال الذي طرأ على الهيئة الاجتماعية والأخلاق على توالي القرون ولطالما مرت فيها أجيال من الناس ذكروها فذكرتهم وأقدم أندية لندرا النادي البحري الملوكي أسس سنة ١٦٧٤ وأنشئ غيره في النصف الأول من القرن السادس عشر وأسس نادي طرف الغار سنة ١٨٠٥ إلى غير ذلك من الأندية التي كان ولا يزال يختلف إليها العالم والمفكر والموظف والسياسي والبحري وأهل جميع الطبقات.

طبقة اللوردات أو الأشراف في إنكلترا غريبة في غناها وعاداتها وشممها وهي تعد جزءًا مهمًا من البلاد وما زالت أراضيها تنتقل بحسب قانون الوراثة في البكر من يد إلى يد على اختلاف القرون. وكم من لورد نبيل يملك ألوفًا من الأفدنة جعلها غابات ليصيد بها مرة أو مرتين في السنة وكم من لورد لا يعرف أملاكه حتى قيل إن أحدهم يملك مزرعة عظيمة وكل يوم يطبخ الطاهي الطعام لاثنى عشر إنسانًا يحضرون لتناول

الطعام على أمل حضور اللورد ويسرج له سائسه حصانه وينتظره في المكان الذي يرجى أن يصل منه وهو لا يجيء بل لم يحضر ولا مرة واحدة. ولكن هؤلاء الملوك بغناهم يظهرون يوم الشدائد بخطر غريب من الحمية والوطنية والسخاء وقد رأينا منهم في الحرب العامة الأخيرة ما أدهش من بذلهم في سبيل نصرة إنكلترا وحلفائها.

في إنكلترا سبعة وعشرون دوقًا ماعدا الدوقات الذين هم من دم ملكي يملكون نحو ٢٥٠٠ مزرعة كبرى أي أراضي نصف المملكة على التقريب. ويقدرون مساحة أراضي الدوق دي سوتر لاند بـ ١.٣٥٨.٥٤٥ فدانًا بلغ دخلها منذ عشرين سنة زهاء ١٤١ ألف جنيه ويجيء بعده لوردات منهم من يملك دخلًا سنويًا قدره مائتا ألف جنيه ومنهم أقل وأدنى ما يملك أحد الدوقات الصغار عشرة آلاف فدان. ويتألف من هؤلاء الدوقات وألقابهم وغناهم أمتن أساس في بنيان المجتمع الإنكليزي الحاضر وهم المحور الذي تدور عليه الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد. ولطالما كان هؤلاء الأشراف منذ القديم موضع احترام إنكلترا. وقد تركت حقولهم وغاباتهم بدون أن تتعهدها الأيدي تركوها لتكون متنزهًا ومجالًا للارتياض والصيد على حين تنقطع ألوف من الأيدي عن العمل لقلة الأراضي التي تعمل فيها ويتحكم الأشراف في مزارعيهم ومزارعهم تحكمًا غريبًا.

وبعد فإن غنى إنكلترا المشهور محصور في أيدي الأسرات الممتازة المختارة من طبقة الأشراف وأغنياء الطبقة الوسطى. والرفاهية وقف عليهم وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من أهل الطبقات الأخرى كما هو الحال في فرنسا وقد بلغ في هذه الحرب أو بعدها عدد المعوزين الذين تجري عليهم الحكومة الإنكليزية الجرايات وتطعمهم الجمعيات الخيرية زهاء مليوني إنسان من خمسة وأربعين مليونًا ويقول بعض المفكرين إن

السبب في هذا الشقاء أن أهل القرى يقصدون المدن ويتخلون عن الزراعة لقلة ما لهم من الأراضي المملوكة فبعد أن كانت أراضي إنكلترا تطعم البلاد أكثر من نصف السنة أصبحت لا تكفيها خمسة وثلاثين يومًا وكل يوم تقفر المزارع وتعمر المدن هذا مع ما أصاب المعامل من الفتور لقلة رواج المصنوعات بعد الحرب. وأملاك الأشراف مهملة لا يستفاد منها وتلك الأيدي العاملة تنقطع اضطرارًا عن عملها لأنها لا تجد ما تعمل في الصناعة والتجارة وكانت تعمل في تلك الأراضي لو وزعت عليها توزيعًا معقولًا فأشراف إنكلترا هم العائق الكبير في كل إصلاح وارتقاء وأملاكهم هي الحاجز الاقتصادي الحائل دون نماء الراحة العامة فعليهم التبعة العظمى في غلاء المعيشة وقلة الأعمال والشقاء الاجتماعي.

ومع هذا فتحت منذ ثلاثين سنة طريقة جديدة لإدخال لوردات جدد علاوة على القدماء وهم من كبار أرباب المعامل والماليين مثل الدوق دي نور فولك وواردات السنوية سبعة وثلاثون مليون فرنك ماعدا الأربعمائة فدان التي يملكها في حي وستمنستر في لندرا وريعها مليون جنيه والدوق دي بوفور أراضيه البالغة ٢٥٠ فدانًا في لندرا هو مليونا جنيه واللورد نورتا مبتون وريع أملاكه مليونا ليرة وغيرهم كثيرون. وبذلك أدخلت بريطانيا العظمى روحًا جديدة في طبقة النبلاء والمال أشرف مادة يحترمها البشر قاطبة وإن تنوعت أساليب هذه الحرمة وكل من يغتني لا يسأل الناس غالبًا عن الطرق التي بها بلغ ما بلغ شريفة كانت أو وضيعة.

النفس الإنكليزية

٨٥

كتب كثير من علماء الاجتماع والحكمة من الفرنسيس في النفس الإنكليزية ومنهم مونتسكيووتين وبوتمي وفوليه وديمولين [١] كتبوا في أدوار مختلفة فمنهم من كتب في القرن الثامن عشر ومنهم في القرن التاسع عشر وغيرهم في القرن العشرين وفي أمثال العامة «أعرف الناس بك ربك وجارك» ومما قالوه نقتبس الفصل الثاني: إنكلترا من بلاد الشمال ولها بينها مركز امتازت به فليس لإقليمها ما يعاد له بين الأقاليم لأنها تتمتع بمناخ يكاد لا يختلف طوره فلا ترى في الشتاء تبدلًا في الهواء من شمالي إنكلترا إلى جنوبها على مسافة تسعمائة كيلو متر فيستطيع سكان بريطانيا أن ينتقلوا من ناحية إلى أخرى بدون أن تتأثر أجسامهم من هذا التنقل وتختلف إنكلترا عن سائر بلاد الشمال بتعرج شطوطها وخصب تربتها في حين يضعف الهواء المرء في أواسط بلاد روسيا أو في شمالي بروسيا فيكتفي الروسي بما حضر لديه من حاجاته ولذلك يقل فيه فكر الإقدام على الأعمال أما الطبيعة في بلاد الإنكليز فتنادي ساكنها بقولها إنك يا هذا تهلك إذا تراخيت وتستمتع إذا جددت.

---

(١) روح الشرائع ومذكرات على إنكلترا لمونتسكيو Montesquieu: De l'espuit des lo's et notes sur l'Angleterre ومذكرات تين على إنكلترا Cain: Notes sur l'Angleterre وعلم الروح الإنكليزية في السياسة خلال القرن التاسع عشر لاميل بوتمي Emile Boutmy: Essou'd, une psychologie du penple anglais au XLX esieile ومختصر في روح الشعوب الأوربية لغوليه Fouillée: Es juisse psychologique des peoples europééne وسر تقدم الإنكليز السكسونيين لاديمون ديمولان Ed. Démolins: A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons.

فالهواء في بلاد الإنكليز رطب ولكنه صحي وثقيل بحيث يكاد يصعب استنشاقه والجسم يهزل فيه إذا لم يتغلب عليه بحركات كثيرة.

تطفح إنكلترا بطوال القامات ضخام الأجسام أشداء البنية وفيها من المعمرين الشيوخ أكثر من كل بلد من بلاد أوربا والأرض الإنكليزية بما تترطب به من الضباب أو يغمرها من هطول الأمطار تحتاج على الدوام إلى التجفيف بالقساطر حتى لا تغدو بطائح أو غابات وهي بفضل تعهدها خصبة ممرعة. ومناخ إنكلترا يحتاج إلى الغذاء الكثير ولا سيما اللحوم وأرضها مستعدة كل الاستعداد لتربية الماشية. والبحر بما ضم قاعة من الأسماك يدخل في مضايق إلى أرض بريطانيا العظمى فيصبح الصيد على طرف الثمام.

وبالنظر لرطوبة الهواء دائمًا واصفرار الشمس بما يداهمها من الغيوم التي تنخل أشعتها نخلًا لا تزال الظلمة سائدة شطرًا من النهار يضطر معه ابن تلك البلاد أن يحسن لباسه ومنامه ودفئه ويبحث عن الأعمال التي تستلزم كدحًا وكدًّا فهو في حاجة إلى جوخ لثيابه وإلى جدران غليظة لمسكنه فتراه يصرف جزءًا مهما من وقته في النسيج والتقطير واستخراج الفحم أو تراب النفط للوقيد خلافًا لابن جنوبي أوربا فإنه لا يعوزه مثل تلك العدة ليعيش. والإنكليزي إذا لم يجد عامة حاجاته في أرضه يجلبها من الخارج على سبيل المقايضة مع ما ضمنته أحشاء بلاده من المعادن والمناجم ويسهل عليه تناول ذلك بما له من وسائل النقل السريعة الرخيصة الأجور.

وإذ كانت الطبيعة الخارجية للأمة الإنكليزية مدرسة إبداع ونشاط وحذر وتدبر نشأت هذه الفضائل من أسباب جلب المصالح ودرء المضار وكانت من كمال الأخلاق في هذا الجنس ودعا الجهاد في الحياة وهو

هنا أصعب منه في كل بقعة إلى أن ينسلخ عنه بالانتخاب الطبيعي كل من لم يرزقوا هذه الصفات اللازمة كالمرضى والجامدين والجبناء والعطلين ولم يبق من هذا العنصر غير الأقوياء أهل الدراية العاملين وتأصل ذوق العمل بنشاط دائم فعال في النفوس حتى صار كأنه أرثى فيها.

ولقد حسبوا أن غذاء إنكليزي واحد يكفي ثمانية أشخاص في بلاد اليونان وبما لبريطانيا من الموقع المتميز باعتزالها في جزائرها سهل اندماج سكانها. وقد نفعها كثيرًا الاختلاط مع الخارج وبما لها من الشطوط التي تبلغ ضعفي شطوط فرنسا بمساحتها يصعب لتعرجها أن تغزى موانيها. وقد كثر في تربتها الحديد والفحم الحجري. وهذا من أكبر الدواعي في امتداد تجارتها ثم ارتقاء صناعتها فساعدتها الأسباب المادية على النهوض بعد أن كان أهلها في القرن السادس عشر أشبه بالأسبانيين بكسلهم وكان الجوخ يأتيهم به الهولانديون من بلادهم وليس عندهم معمل لنسجه ويبعثون هم إليهم بالصوف وقد بدأ عمل الجوخ عندهم في القرن السادس عشر على أيدي مستعمرين من الهولانديين.

قالوا إن الشعب الإنكليزي شعب انتفاعي وهذا يصدق على كثير من الشعوب ولكن العامل الأكبر اليوم في هذه الأمة الهوى في العمل للعمل والميل إليه حبًا به. وما الحياة السياسية في إنكلترا إلا ابنة الميل إلى تمرين القوة والبذل منها بطائل وبدون طائل ومن يجتاز البلاد الإنكليزية يشعر بحاجة الأمة إلى هذا التمرين وإلى هذا الصرف من القوة بما يراه من الحركة على السيارات واشتغال قوم بالألعاب الشاقة فيوقن بأن الرياضات البدنية الشديدة ليست في إنكلترا مدعاة للتسلية بل هي ضرورية لدفع حاجة طبيعية لا تقل في شدة الحاجة إليها عن الجوع والعطش.

كل من زار لندرا يشهد الرجال من الإنكليز يركضون في الشوارع كأنهم عرض لهم عارض مهم جدًّا يوشك أن يذهب إذا أبطؤا عليه فيركضون نحوه بدون أن ينظروا ذات اليمين وذات الشمال للتخلية والتسلية فهم لا يضعون نصب أعينهم غير الغاية العملية التي هي هدفهم ومنتجعهم حتى إذا وصل العامل إلى مكتبه أو عمله ينصرف إليه بجملته ولا يدخل فيه غيره ولا يلتفت إلى ما يصده أو يخطر بباله في غير ما هو بصدده فتراه لا ينقطع لحظة عمَّا هو مأخوذ به ولا بني في مهمته ولذلك كانت أجرة العامل الإنكليزي أرقى من أجور عملة الأمم الأخرى لأنه لا يلهيه شيء أثناء العمل ويعمل نحو ضعف ما يعمله الأيرلاندي أو الألماني مثلًا وهذا المزاج الخاص يؤثر في جميع الفروع أثرًا مدهشًا.

لا يستنكف نساء من عمل يتعاطينه لتكون لحياتهن غاية فينصرفن إلى تأسيس جمعيات الإحسان ويخدمن في المستشفيات ويعملن أعمالًا قد تعدها بعض الأمم المتمدنة من الأعمال الوضيعة ولكنها تكون لخدمة الإنسانية ولذا أدخل خمسون ألف امرأة في الحزب الحر في إنكلترا وشاركن الرجال ومنهن المطالبات بحقوق الانتخاب قد نلنه مؤخرًا والمؤمنون من الإنكليز بالدين لا يؤمنون به وينصرفون عن كل شيء بل يعملون باسمين ويجتهدون في الحياة لا يصدهم ما أخذوا أنفسهم به من الغاية عن النظر في دنياهم. وإذا كان الإنكليزي لا يعتقد بالدين في باطنه يأتي الكنيسة مع أولاده وأهل بيته لاعتقاده بأن الإيمان خير من الانحلال.

وبعد فإن الذوق واعتياد العمل يجب أن ينظر إليهما كأنهما خاصة جوهرية وصفة لازمة اختيارية لهذا الجنس فهما يصحبان الإنكليزي حيث يذهب تشفعهما الأسباب المكتومة من نياته وهما مفتاح أسبابه. وإن الدواعي التي أدخلت ضرورة العمل في هذا الجنس قد أضاعت اليوم من شأنها وذلك لأن كثرة الغنى العقلي والمادي قد زاد عدد الأغنياء وأضعف

على التدريج في جزء من سواد الأمة الإنكليزية الغزيرة الأرثية التي بها يعترف الإنسان بقانون العمل ويقبل به فأصبح الكسالى والضعاف في هذا المحيط الجديد أكثر حظًا في البقاء فتألف منهم عنصر خاص تحرص حكومته على جلب المنافع إليه وأهل السعة من الإنكليز يبذلون الفضل من أموالهم له وكل هذا على الجملة لا يضر الصفات التي ورثها الإنكليز وتاصلت فيهم مدة قرون.

للإقليم في إنكلترا تأثير مهم في الشعور والمدارك فهي البلاد التي يجف هواؤها وتكثر كهربائيتها التي تقوي الألياف وتمتن الأنسجة. ومثل الحس يكون التصور الطبيعي أي حاسة تمثل المحسوسات فإنها في الإنكليزي تتأخر ولذلك نرى الأعمال الجراحية أقرب إلى النجاح على يد الإنكليزي منها على يد الإيطالي مثلًا لأن الأول قلما يضطرب كالثاني. وقد شاهد خصوم الإنكليز من عسكرهم في حروب أسبانيا واترلوا وانكرمان والحرب العامة عجبًا إذ لم يكونوا يتأثرون للأعضاء تبتر والقذائف تنفجر والعظم يكسر والأرواح تنزع.

إن أرض إنكلترا على ما خصت به من العبوسة والأمطار الغزيرة والضباب المتواصل والطبيعة الساكنة قد أثرت في نفوس بنيها حتى لم يجدوا في الوجود ما يشغلهم ولذا شغلوا بخاصة أنفسهم وقل كلامهم وفضولهم كما قل شعورهم بما يأتيه من الخارج. والكلام كالشعور والفكر يرتقي ويصفو بالرفاهية ورغد العيش وهو أثر من آثار الثروة العامة والفراغ. وصف تين الشعب البريطاني بقوله: من السرور الذي يشفعه السكوت وهو من أعظم ما تطمح إليه نفس كل إنكليزي أن يجاهد في أمر ويتحمل المشاق ولا يرجع عمًا نوى. وقد أعرب شاعرهم تنسون عن مثل هذا الفكر بما معناه: ما أعظم على النفوس أن تقف دون غاية وتجعل لقواها حدًا وأن تصدأ كالسيف يعلق على الحائط بدلًا من أن يلمع في يد

حامله ويصفو بالاستعمال وليس استنشاق الحياة هو الحياة بل إننا إذا فقدنا كثيرًا فقد بقي علينا كثير فما كنا عليه ما برحنا فيه. قلوب أبطال شأنها التساوي بأنفسها حتى أصبحت على الزمن وبيد القدر نهب الضعف ولكنها مسلحة بإرادة شديدة في مضائها وبحثها وإيجادها ولا تلين قناتها أبدًا.

ووصف أميرسون الفيلسوف الأميركاني العنصر الإنكليزي بما يأتي. قالت الطبيعة إن الرومان لم يبق لهم سلطان فلكي أبني مملكة جديدة سأختار عنصرًا جديدًا كله مثال الرجولية معروف بالقوة الوحشية، وإني لا أعارض في منافسة تجرى بين الذكور مهما كانوا إلى القسوة فليغرز الجاموس قرنه في وجه جاموس آخر وليمض أكثرهما قوة يفتح الطريق فإن لي عملًا أريد أن أتمه ويستدعي إرادة وعضلات.

يقل في العنصر الإنكليزي على الجملة الاستعداد لتصور الأفكار العامة ويكره النظريات المجردة كما يكره المذاهب المقررة فليس للإنكليزي شيء من المجردات يشغله بل تراه أبدًا مأخوذًا بضرورة العمل. أليس معنى هذا أن حاسة العموميات ضعيف تركيبها في إنكلترا بل إن العقل عملي لا يقبل إلا ما يلزمه وينفعه يعرف كيف يضبط نفسه ويحدد حدوده حتى إذا سار بنفسه سار سيرًا نافعًا لا سيرًا نكرًا فعقله لا يشبه قائدًا في جيش يفكر في وضع خطط الهجوم والدفاع بل يشبه ضابطًا يقود بعيدًا عن معمعان الحرب قسمًا من الجند الاحتياطي المساعد فلا ترى في هذا الضابط قابلية لأن يكون في الطليعة ولكنه يجيد في اتخاذ مركز له في النقط التي تجاوزها الجيش المهاجم وينظم فيها المقاومة.

العقل الإنكليزي يفكر في الأمور القريبة التي هي أكثر ما يكون مسلمًا به مباشرة وله من مشاغله في تحصيل ثروته وتحسين زراعته ما يصده عن

الحق ولا يفرغ ذهنه إلى النظر إلى الأشباح الفارغة فهي بعيدة من الأرض جدًّا غريبة عن الحياة الدنيا غير ملتئمة مع شروطها وضرورياتها. ولذا ترى الإنكليزي في مسائل الدين لا يتعدى أفق العالم الناظر بأحوال النفس. والأخلاقي الذي يبحث في المرئيات وليس هو صوفيًا أو مفكرًا ولا موحدًا وهو لا ينظر إلى القواعد الموضوعة والألفاظ بل ينظر إلى الغاية من التدين أكثر من الواسطة وهكذا هو في السياسة فلا تقوم حريته فقط على الدستور الذي يمنح الحرية على التقاليد الموروثة التي تحمي حمى الحرية القديمة المتأصلة فيه.

من غريب حال الإنكليز أن كثيرين من حملة العلم فيهم لم يتعلموا العلوم اللازمة للإلمام بالتربية العامة فهم أخصائيون لا تشوبهم شائبة وإن من يحاول في إنكلترا أن يحدث أحد علمائهم في العلم المجرد لا يجد من يستمع لكلامه. فالعالم الطبيعي عندهم هو الذي يعرف كيف يصنع نموذجًا ميكانيكيًا يطبق فيه العلم على العمل فقط، حتى إنك لا ترى في كتبهم في الكهربائية إلا حبالًا مرسومة تعلق وتمتد ومواسير يقطر منها ماء وغيرها ينتفخ وآخر ينقبض. وهكذا إنكلترا في صناعاتها لا يصدر منها إلا ما يقع تحت حسها ولا تقص في قصصها إلا ما يماثل حالتها الطبيعية وكذلك تاريخها ورواياتها التشخيصية وفلسفتها. وقد قدر لهذا الشعب أن ينشر البرتستانتية بثباته ويخرج من الكنيسة والكثلكة إذ كانت دين سلطة قادرة روحية تقنن وتحظر وتعاقب والناس معها مكرهون على القيام بتعاليمها.

أما المذهب البرتستانتي فهو دين الحكومة الذاتية الوجداني فالأول موجد النظام والقاعدة والآخر محافظ النشاط ومبدعه. وهذا هو المذهب الذي يناسب أمة خلقت لتعمل.

إن تأخر سن البلوغ في شبان الإنكليز وعفة النساء الإنكليزيات وتعدد الأسر والبيوت كل ذلك من أخلاق الإنكليزي الحديث كما كان قديمًا من خصائص أخلاق الجرمانيين سكان إنكلترا الأصليين. وامتازت الأمة الإنكليزية من بين الأمم بأنها ظلت متجانسة لم تمتزج بغيرها، فالإنكليز وهم أهم عنصر تتألف منه إنكلترا هم جرمانيون من بلاد الشمال ومن أجداد الجرمانيين إنكليز وجدت وسكسونيون وكلهم من عنصر ألماني والذين جاءوا بعد ذلك لاستيطان إنكلترا الدانيمركيين والنورمانديين هم فروع تشعبت من تلك الدوحة.

الإنكليز خارج بلادهم لا يمتزجون بغيرهم من الأمم وهم في أرضهم أكثر الأمم حرية وأشدها إكرامًا وأيسرها لقبول الغرباء. ليست إنكلترا جزيرة بل قارة. وإنكلترا كما قال الشاعر شكسبير قلعة شادتها الطبيعة بنفسها اتقاء نتانة الحرب وشدتها وإنكلترا تشتبه في الأفكار والمنازع التي تأتيها من أوربا نفسها، وإذا اقتدت بالبلاد الأخرى فاقتداؤها موقت كأنه للتسلية أو هو سطحي كأنه زي من الأزياء تلبسه أما سواد الشعب فلم يمس بشيء في منازعه وهو راض بأخلاقه الأولية وبالجملة فقد كانت دواعي الاختلاط قليلة جدًّا بين الإنكليز وغيرهم ولا سيما عامة الأمة، فالإنكليزي أشبه بساكن الولايات في أوربا وفكره كالشراب بقي زمنًا في مأمن من الاهتزاز فخثر وكثف ولم تعد له تلك الميوعة التي تؤهله إلى الاختلاط بشراب آخر وما قط تمازج العنصر الإنكليزي بغيره من العناصر في البلاد التي أخضعها لسلطانه فهو كالمعدن البعيد جدًّا عن نقطة التذويب فلا يتأتى أن يجعل منه أدنى مزج، وما قط شادوا بأنفسهم الشعوب التي افتتحوا بلادها، وما تلطفوا في استمالة قلوبهم.

ويشعر الإنكليزي بأنه أقل من غيره علاقة بالمجتمع البشري، وقلما يقتبس من صلاته مع غيره شيئًا يستفيد به في تركيب أخلاقه وقلما يبحث

عمَّا يفكرون فيه وإذا بحث فبحثه مجرد لا يدخل نتيجة في عواطفه وأعماله فهو ناسك بعيد عن العالم وعن غيره من الأمم بل هو بعيد عن جاره الذي يساكنه في حي واحد وعن المحيط الذي يعيش فيه ولا يشعر بأقل ضجر من العيش وحده، ولا يجد حاجة أن يقص ما عمله على غيره، ولا يسوقه سائق نفسي أن يقف على ما يعمله غيره فهو فيما خلا الشؤون التي تمسه مباشرة لا يهتم إلا بما له علاقة بالمسائل الوطنية العامة التي لها به مساس ولكن لا مباشرة بل من طريقة وطنية. قال فوليه: لا مراء في أن للإنكليزي نقائص مع ماله من الصفات، فإن استقلاله يعرضه للأنانية وشعوره بالوحدة يقوده إلى الجفاء والغرابة في الفكر تؤدي به إلى التعته وفلسفته في التعبد بالحقائق واحترام النجاح والقوة والغنى أوصله إلى احتقار الضعيف والفقير.

يقول أميرسون: إنك تحسب الإنكليزي إذا اجتمع مع الأجانب أخرس فهو لا يصافحك ولا يتركك تنظر ما في عينيه في الفندق ويلفظ اسمه بحيث لا يسمع فكل واحد من هؤلاء الجزائريين جزيرة بعينها. ويقول مونتسكيو: «يصعب على الفرنسيس أن يكون لهم أحباب في إنكلترا وكيف يحب الإنجليز الغرباء عنهم وهم لا يحبون أنفسهم وأنى يعطوننا ما نأكل وهم لا يتواكلون. يحب أن يجري على خطتهم فلا نهتم بأحد ولا نحب أحدًا ولا نعتمد على أحد. قال يجب أن تراعى طبيعة البلاد كما هي فإذا كنت في فرنسا فأصحب كل الناس وفي إنكلترا لا تستصحب أحدًا وفي إيطاليا أقرظ جميع الناس وفي ألمانيا أشرب مع كل الناس» وقال كارلايل الإنكليزي: الإنكليز شعب أخرس وشرح ذلك بقوله: إن السكوت يزيد في علاقتهم ونظامهم مع ما يبين عنه اللسان. الإنكليزي يميل إلى الاختفاء ولا يهمه الظهور بل يهتم لتجويد العمل من حيث هو عمل نافع ولذلك ترى جرائد إنكلترا لا يوقع كتابها على

مقالاتها وهي مع هذا أرقى من جرائد فرنسا التي وقع كتابها على مقالاتهم ليقال عنهم إنهم كتبوا وصحفهم أكثر صحف أوربا مادة وأكثرها صدعًا بالحق وأقلها انغماسًا في الرشاوى لخدمة أغراض خاصة وقال فولني العالم الفرنساوي في سر نجاح الإنكليز في الزراعة والتجارة والصناعة: «إنهم بالسكوت يجمعون أفكارهم ويتفرغون إلى التدبير والتقدير على ما ينبغي ويحسبون دخلهم وخرجهم ويصفو فكرهم أكثر وينبعث كلامهم جليًا ومن هنا كان التدقيق والرواء رائد جميع أعمالهم العامة والخاصة».

قال فوليه: إن إنكلترا لا مثيل لها بصناعتها وتجارتها وانتشار مستعمراتها والتئامها التئامًا عمليًا مع الحكومة الحرة وهي دهشة بشعرها وآدابها وحركتها العلمية والفلسفية ومع هذا لم تعمل على ما يظهر شيئًا يرفع من قدر الجنس الإنساني برمته كما فعلت إيطاليا وفرنسا وألمانيا وقلمًا تهتم بنشر ما لقنته من الحقائق لتحملها إلى خارج بلادها فليس من ذوقها الدعوة إلى مبادئ حادثة ولكنها قامت للعالم بمثال باهر من الحرية والعمل والأمثلة تساوي أحيانًا أكثر من المبادئ. بعض الشعوب أولعت بأن وضعت نصب عينها غاية في الكمال العام ورجحت إنكلترا أن تضع موضع العمليات لعظمة جنسها وانتشاره كلمة معجبة كتبتها إحدى المدن الأنكلوسكسونية على سلاحها وهي «أريد».

إن كان من خلق الإنكليزي الإقدام على العظائم فإن حب الجديد والذوق في المجهول ليس فيه إلا على ضعف أيضًا فالإنكليزي يبقى إنكليزيًا ويعيش عيشًا إنكليزيًا حيثما نزل. والإنكليزي أقل من الفرنساوي والإيطالي في اليأس من النجاح وأكثر منهما هزؤًا بالمتاعب والمخاطر لعلمه بأن لها حدًا لا تتعداه ولابد من حل مشكلاتها. وقلمًا تراه يحسب حسابًا لنكد الطالع فترى الشاب يتزوج من فتاة وهو في مقتبل العمر ولا

يطالبها ببائنة (دوطة) بل يقترن بها بلا مهر ويقدم على تأسيس أسرة فيزيد نفقاته ثلاثة أضعاف ما كانت عليه والصانع يقدم على إدخال إصلاح في عمله بجرأة ويتخذ أسباب النجاح وهو يعلم أنه لا يلبث أن يتم إصلاح مصنعه حتى يقوم صانع آخر ينافسه ولكنه يكون استفاد من الفترة بين إصلاحه وإصلاح منافسه وترى المهاجر منهم لا سبد له ولا لبد ومع هذا ينزح ويرزح تحت أثقال المتاعب وهناك سبب آخر وأعني به الهوى في العمل أو التجنن فيه وفي الحركة والذوق في العمل من أجل هو عمل وكل ذلك مما تقتضيه حالته الطبيعية. وإنا لنرى المرسلين منهم يتغربون في الأرض ولا يخافون بل يتعزون بما يتم على أيديهم في الأقاصي وينامون ملء جفونهم شاكرين ويعملون أعمالًا في السر ابتغاء وجه الله.

ومن خلق الإنكليزي أنه متشدد في الاحتفاظ بالحالة الحاضرة فأرباب العقول الغريبة في تصورها كثيرون ولكنك لا ترى فيهم أحدًا يميل إلى الثورة وقد اشتهرت إنكلترا بأنها بلد التقليد المستعصية حتى على اللازم من التجديد وثلاثة أرباع سكانها لا يشعرون بالحاجة إلى إدخال تعديل في القوانين والأخلاق والربع الآخر يقبل بالتعديل في بعض أحوال مخصوصة ويتعلق بها ويلاحقها بنشاط. ولذا رأينا الشعب الإنكليزي قد جالد لأول وهلة ريثما أدخلت عليه أساليب الارتقاء حتى المادي منه فلمَّا تسرب إليه صار في لحمه وعظمه وهكذا شأن الأمة العظيمة تتشدد في تقاليدها وتستنكف في الغالب عن قبول كل جديد إلا إذا ثبت لها ما ينقضه ثبوت الشمس والقمر. فقد قيل: القوة الحقيقية في كل مملكة ما عرفت به من الأخلاق الطبيعية. وتقليد الأجانب على أي صورة كانت عار على الوطنية.

مهما بلغ من انحطاط مكانة الرجل الإنكليزي في المجتمع ومهما بلغت حرفته من الامتهان لا يحسد من كان أعلى منه منزلة وله من عمله

الذي يستمتع بمنافعه أعظم سلوى ولذلك قل إن مالت الطبقة العاملة في إنكلترا إلى تغيير نظام الأشراف في المجتمع لاعتقادها بأن الأعمال مقسمة لأن الحظوظ متباينة وبينا ترى فرنسا تقول للوزير كن فكان مهما كان وضيعًا وللنائب كن نائبًا فكان مهما كان منحطًا في أصله وللشريف كن شريفًا فيكون تجد إنكلترا لا تسمح لوضيع أن يعد في جملة العظماء إلا بعد ثلاثة أجيال وذلك على نظام وترتيب تدريجي لعلم القوم بأن الطبيعة في إنكلترا تتأخر في كل شيء ولذلك اقتضى أن يكون ارتقاء الناس كذلك «قال تين»: إن ثلاثة أشياء في إنكلترا أحسن منها مما في فرنسا وعلى العكس فالسياسة في إنكلترا راقية لأنها ثابتة لا تتغير كما هي الحال في فرنسا كل عشرين سنة. وهي حرة لأنها تدعو الأفراد إلى الاشتراك بها بالفعل وتسلم القيادة فيها إلى الطبقة العالية لأنها أقدر من غيرها وتكون لها مشغلة تصدها عن البطالة. وصحافة الإنكليز أكثر مادة وأصح نظرًا ومجالسهم أوسع اختصاصًا. وكذلك الحال في الدينيات فإن الأخلاق تقوم مقام الطقوس والمعتقدات. وكأن الدين عند الإنكليز يدعو إلى الحكم الذاتي وإلى سلطة الوجدان وتهذيب الإرادة ويترك مجالًا كبيرًا للتأويل والعواطف الشخصية والدين لا يعارض العلوم الحديثة وميول العصر الحاضر ورجال الدين يتروحون. وللدين تؤسس المدارس والدين يوصي بالعمل ولا يدعو إلى الزهد والقائمون عليه كجمهور الناس لا امتياز لهم عليهم.

قال ولم تغز إنكلترا منذ ثمانمائة سنة ولم تقم فيها حرب أهلية منذ مئتي سنة ورأس مالها أكثر من فرنسا مرات وعلائم الرفاهية والغنى فيها أكثر من كل شعب من شعوب الأرض الإنكليزي يحسن الزراعة والصناعة والعمل أكثر من الفرنساوي ويحسن تربية نفسه بنفسه والخاصة عند الإنكليز أرقى من الخاصة عند الفرنسيس وعلمهم راسخ وعملهم

نافع وفرنسا تفوق إنكلترا بجودة مناخها وتقسيم الثروة بين أفرادها لأن لديها نحو خمسة ملايين مالك أرض ولذلك كان الفقراء أقل شقاء في فرنسا مما هم في إنكلترا وليس في أرض الفرنسيس أغنياء ضخام الثروة كالإنكليز لأن الثروة تقسم بينهم والمواريث عندهم متساوية والفرنسيس يفضلون جيرانهم بحياتهم البيتية والاجتماعية اهـ.

من خصائص الإنكليزي أنه يشبه ميكانيكيًا تعلم علم الحيل (الميكانيك) بالتجربة لا بالنظر فتراه مهتمًا أن ينتج بما له من آلة ما أمكن من النتائج ولا يحرص على تبديل محركها أو أدواتها لعلمه بأنه إذا فعل ذلك اقتضى عليه أن يوقف العمل وأن يبذل الوقت والاهتمام سدى من أصل رأس ماله المحدود وهو يدرك بأنه إذا حدث للآلة ما يضر سيرها تقف أحيانًا وتنقطع فائدته وفائدتها ولذلك يجد من نفسه داعيًا إلى القبول بتعديل آلة على أن يغير أدواتها القديمة بأدوات جديدة ولكن بدون أن يوقف الآلة ويقلل من مغلها.

يعتقد الإنكليز بالضعف البشري ويشعرون بضرورة أخذ الأمور بالتدريج والبداءة بها من الصغير للوصول إلى الكبير حتى لا تقف القاطرة في هذا الجهاد وتتهور في منحدر لا تقوم منه فهم في شرائعهم يكتفون بتعديلها وإصلاحها مع الزمن وما قط حدثتهم أنفسهم أن يضربوا بما لديهم عرض الحائط ويضعوا غير من عند أنفسهم والإنكليزي مع هذا إذا رأى الخير في تعديل قانونه يصر عليه فقد رأينا أصحاب الصحف على عهد الإصلاح النيابي الكبير قد صعب عليهم أن يصدروا منشوراتهم النافعة لأنه قضى عليهم أن يدفعوا عن كل نشرة طابعًا فأجمعوا أمرهم على أن يصدروها بدون طوابع فغرمتهم الحكومة وحبستهم ولكن جرائدهم ومنشوراتهم ظلت تصدر على عادتها بدون طوابع وأصروا على رفعها ومضت أربع سنين على هذه المسألة حبس لأجلها زهاء خمسمائة

رجل حتى اضطر مجلس النواب أن يجيب الطلب وإن تضررت الحكومة من رفع قسم مهم من الميزانية.

يعمل الإنكليزي عمله حبًّا بالعمل نفسه على حين يعمل غيره من الأمم لإحراز الثمرة التي تعقب الشرف أو الراحة والرفاهية والدليل على ذلك ما نراه في أهل الطبقة العالية منهم ممن لهم ثروات تعفيهم من تعاطي الأعمال فنراهم يصرفون نصف أيامهم في الألعاب الرياضية الشديدة غير مبالين فكأن الرياضات لهم كالفطرة المستحكمة كما كانت الألعاب الأولمبية في يونان أيام عزهم ثم إنك لا تجد غنيًّا لا يصرف شطرًا من وقته في النظر في شؤون مقاطعته وأبرشيته وكثيرًا ما يهلك قواه في هذا السبيل بينا تجد ابنه في أوستراليا أو مانيتوبا يعيش مع رعاة الغنم في تلك البلاد القاصية المنفردة وابنه الآخر من المرسلين في جنوبي أفريقية يعمل شاق الأعمال.

وبينا ترى الإنكليزي أكثر الأمم تحاشيًا مما فيه عبودية وأحرص الناس على التناغي بالحرية الشخصية والحرية المدنية كحرية الاجتماع وحرية التكلم وحرية القول تراه في نظام أسرته قد احتفظ حتى الآن بنظام الحكم المطلق فنرى الابنة تأتي زوجها بدون أن يعطيها والدها بائنة لأن العادة جرت بين الأغنياء وأرباب اليسار أن يحفظوا لبكر الأولاد العقارات ويقسموا الأشياء المنقولة بينه وبين أخيه الأصغر منه سنًّا وتنال الابنة حصة من ذلك ويكون في الغالب دخلًا قليلًا تناله من واردات أبيها حرمت ذلك حتى لا تجيء دار زوجها بما يرفع رأسها عليه لأن الرجال يريدون أن تكون لهم السلطة التامة في بيوتهم وإذا اتفق أن زوجاتهم جاؤهن بشيء من المال يضيفونه إلى ثروتهم ويحرمونهن حتى الوصاية على أولادهن والتصرف بأموالهن، والزوجة مع زوجها وما يختار هو لا

ما تختار هي. والوالد والوالدة يربيان ابنهما بعيدًا عنهما ولا تأخذهما به شفقة والولد إذا غاب عن والديه ينساهما وإذا مثل بين أيديهما يحترمهما.

قال «تين»: الإنكليز مشغولون بأشغالهم ليس عندهم من الوقت ما يظهرون فيه بمظهر الأنيس المتهذب أما الفرنسيس فهم أهل لطف وظرف يفتح بعضهم إلى بعض قلوبهم ويبوحون بذات أنفسهم وهم أشكال يتبذلون بينهم في خطبهم ويتنزهون ويسيرون ويركضون ويذهبون طلقًا حتى يسقطوا. الإنكليز نوابغ فائقون وهم لا ينسجون حتى ولا على آثار الأقدمين الذين يعجبون منهم في باريز يطيش المرء ممَّا يرى من العالم فلا يعرف إلا العادات الظاهرة وليس له من الوقت ما يتمكن به من معرفة الرذائل والفضائل. لو سئلت عن مرامي الإنكليز لصعب علي في الحقيقة أن أجيب عليها فلا الحرب ولا المنشأ ولا المراتب ولا السعداء من الناس ولا الهذيان في نيل رضى الوزراء ممَّا يهتمون به بل هم يريدون أن يكون الرجال رجالًا ولا يعتبرون إلا شيئين الغنى والأهلية أريد بلفظ نبوغ أمة الأخلاق وصورة الفكر في الشعوب المختلفة التي تقاد بتأثير بلاط ملوكي أو عاصمة واحدة فالإنكليزي والفرنساوي والإيطالي ثلاثة مظاهر من مظاهر النبوغ.

وقال أيضًا أرى مدينة باريز مدينة جميلة وفيها أمور بشعة وأرى لندرا مدينة بشعة فيها أمور جميلة جدًّا. في لندرا الحرية والمساواة ولكن حرية أرباب الحشمة من الناس ومساواتهم وفي ذلك تختلف عن حرية البندقية وهي حرية العيش في الظلمة والتزوج من بنات الهوى. ومساواة لندرا هي مساواة حشمة ووقار وبذلك تختلف عن حرية هولاندة التي هي حرية السفهاء والسفلة. ليس أمام الإنكليزي إذا تلفت صحته غير سبيلين اثنين إما أن ينتحر أو يصبح لصًّا. وقال: إن المال محترم عند الإنكليز للغاية أما الشرف والفضيلة فليس لها تلك الحرمة. لما كان الإنكليز لا يتحابون في

بلادهم حتى لا ينخدع أحدهم بصاحبه أصبحوا قساة. الإنجليزي يبدي نحوك أدبًا قليلًا ولكنه لا يبدو منه ما ينافي الأدب قط.

إنجلترا اليوم أكثر بلاد الأرض استمتاعًا بحريتها ولا استثنى من ذلك ولا جمهورية. أدعوها حرية لأن الأمير ليس له فيها سلطة حتى يسيء لأي كان وذلك لأن سلطته محدودة مراقبة ولكن إذا أصبح مجلس النواب الحاكم المتحكم تصبح حرية بلا حد إذ تكون بيده القوة الإجرائية على أن السلطة اللامتناهية هي للمجلس والملك الآن والقوة الإجرائية للملك المحدود السلطة فعلى الإنجليزي الصالح أن يتوخى الدفاع عن الحرية من اعتداء الملك والمجلس. قال أحدهم لما مسكوا الحبل الأزرق سنة ١٧٣١ للمستردي بروغلي انظروا إلى هذه الأمة إنها طردت الأب وأنكرت الابن واستصفت روح القدس.

أخلاق الإنكليز وعاداتهم

٨٦

جزيرة أو جزائر بريطانيا العظمى عزلتها الطبيعة عن أوربا كأنها قارة برأسها فجاءت أخلاق أهلها وعاداتهم نمطًا غريبًا يدهش لها الغربي قبل الشرقي. وفي أكثرها الجيد الصالح. ومن أكثر علمائنا الذين قضوا أعوامًا في بلاد الإنجليز واختلطوا بهم وأضلعوا على أحوالهم العلامة أحمد فارس [1] فقد أجاد في وصفهم فاقتبست جملًا من كلامه لأن من أقام في بلد أعوامًا لا يشبه من زاره أيامًا قال:

(١) الواسطة هي معرفة أحوال مالطة وكشف المحيا من فتون أوربا (الطبعة الثانية بمطبعة الجوانب في قسطنطينية ١٢٩٩هـ).

ينقسم جيل الإنجليز إلى خمس طبقات «الطبقة الأولى» الأمراء والوزراء والنبلاء وذووا المناصب السامية ويلحق بهم الأساقفة «الثانية» الأعيان أو العلية وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة وليس لهم جلاء أي لقب عظيم «الثالثة» العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار أهل المراسلات «الرابعة» التجار أصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون إلى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه «الخامسة» أهل الحرف والصنائع والعملة ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الأكبر فعادات أهل الطبقة الأولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها وبين الأخيرة مناسبة أصلًا وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها إلا ما ندر أما أهل الطبقة الثانية فإن لهم من وجه نزوعًا إلى الأولى بالنظر إلى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون إلى الباقي بالنظر إلى الجنسية والألفة والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهات بما عندهم من الصنائع والأحكام والإذعان للقوانين التي بنيت عليها معاملات دولتهم ودواوينهم. ولما كان أصحاب الطبقة الأخيرة هم الجمهور الأكبر وهم الحريون بأن يقال لهم بريتانيون أو إنجليز لكونهم بقوا على قديم أحوالهم وأطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الأجيال إلا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب أن نقدم ذكرهم أولًا فنقول: إن أول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له ونفورهم منه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعني أحد منهم بشأن جاره ولا يهمه أمر غير أمر نفسه فكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطالل إلى معرفة شيء غيرها فالفلاح مثلًا لا يعرف شيئًا إلا ما آل إلى الحرث والزرع والقين لا يدري مما يحدث في بلاده سوى ما يختص برواج سعر الحديد والطلب على الأدوات المصنوعة منه وهلم جرا إلى المهندس والطبيب. وإذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل وما سوف

يعمل. ويمكن أن يقال إن بهذه الخصلة استتب عزّ دولة الإنجليز وعظمت شوكتها. لأن الرعية لا تعترض ذوي الأمر والنهي في تدبيرهم ولا تتطاول إلى معرفة ما تقتضيه سادتهم وأهل شوراهم. وهم أطوع خلق الله لأولياء أمورهم. ويمكن أن يقال أيضًا إنهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم في هذه الحالة أسعد خلق الله وإن جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير.

ومن طبع الإنجليز الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد أحداثهم تفهم شيئًا من كلام الغريب بينهم بل الكهول أيضًا لا يعون ما يلقي عليهم إلا بعد الروية والتأمل وشتان ما بينهم وبين الفرنساوية فإن الحدث من هؤلاء يبتدر إلى الجواب كأنما قد درسه ودراه من قبل سؤالك إياه ولو قلت إن البريتاني القح ليس له من نوعي العقل سوى نصف المكتسب ونصف الغريزي لما أخطأت وتلك صفتهم من القديم.

ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحًا في الساعة الرابعة وربما بقى الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن وغاية محاورتهم إذا تلاقوا في الطريق أن يقول أحدهم طيب بطرس فيقول الآخر طيب يوحنا. وإذا اجتمع المتعارفان منهم وتساءلا فلا بد أن يبتدئ أحدهما أولًا بوصف الهواء وصحوه أو برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه أو ثالول في رجله أو اختلاج في عينه فيقول السامع يحزنني ذلك جدًّا ولا يكاد أحدهم يضحك ضحكًا طبيعيًا وإنما هو عبارة عن قهقهة ثم يعقبها الكتم والعبوس.

ومن طبعهم أيضًا أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الأولاد والديهم كما تهاب الأولاد عندنا ولا يحن الوالدون

أيضًا على أولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرًا إن الأب يقتل ولده والولد يقتل أباه وأمه. ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع الإفرنج خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم. ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها «البوكس» والملاكمة للعامة بمنزلة المسايفة للعلية غير أن هذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها وقد كانت سابقًا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للفرج عليها. وفي أواخر القرن الماضي كانوا يتعلمونها في المكاتب. ومن طبع الإنكليز عمومًا التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأي سبب كان ولا سيما في أسباب المعارف والعلوم. ومنهم من يعتقد بالطيرة والتفاؤل وظهور روح الميت عند قبره وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدن وشرع الإنكليز أطول الشرائع أحكامًا وأكثرها قيلًا وقالا وأوسع من علم العربية قلبًا وإعلالًا. فإن بعض الدعاوى التي تستدعي دهاء الفقهاء ومحالهم ربما يدوم خمسين سنة فأكثر ويمكن تقسيم شرعهم إلى أربعة أقسام. الأول ما تناقلوه من أحكام الرومانيين والزماندليين والسكسونيين الذين فتحوا بلادهم ويدخل في ذلك أمور من قبيل العادة. وفي الحقيقة فإن جل عاداتهم سنة لهم. الثاني ما بني على العدل والإنصاف ومراعاة المصالح على وجه الاستحسان والترجيح إذ لم يرد فيه ولم يجر فيه حكم فيحكم بالرأي حسبما يترجح عندهم أنه الأصلح. الثالث أحكام مجلس المشورة وهي غير متناهية الرابع أحكام ديوان الكنيسة.

وتحيتهم في الصباح هي أن يقولوا صباح طيب وفي المساء مساء طيب ثم يردفوها بقولهم «هودويودو» وترجمتها كيف تعملون أنتم تعملون وهو سمة تنبئ عن مزيد ميلهم وتوقاتهم إلى العمل حتى إنه يوجد في لغتهم نحو عشرة ألفاظ مرادف للعمل وهو أكثر ما عندهم من المترادف ولا يخاطبون بضمير المفرد إلا الباري تعالى أو في الشعر وهو

ضربة لازب. فأما عند الفرنسيس فاستعماله إنما هو في مخاطبة الإدلال كأنه يكلم المحب محبوبته أو الوالد ولده. ومتى خاطبت أحدًا من فلاحي الإنكليز وهو مصغ إليك أبدى همهمة عند كل جملة أعني قوله: «هم» فكأنها عندهم حرف بمعنى نعم وعند كل فقرة تقضي بالاعتبار يقول آه وإذا هم خاطبوك نفضوا رؤوسهم ولا يكادون يشيرون بالأيدي كما هو دأب أهل مالطة وإيطاليا وغيرهم وليس للهجتهم مطلقًا نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل أو عالم أو ولد أو امرأة إذ ليس في كلامهم مد ولا حركات طويلة وأصوات الرجال من حاجرهم بخلاف اللغة الفرنساوية فإن فيها غنة تستحب من الأولاد والجواري جدًّا وربما طرب لها من ليس يعرفها. ومن عادة النساء إذا كلمن أحدًا من الخاصة أن ينحنين له عند كل سؤال وجواب وعادة الغلمان أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند كل سؤال وجواب حتى القسيسون أيضًا يرتاحون لهذه الدغدغة وإذا خاطبوا أحدًا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له «سر» وهي بمعنى «سيد» حتى إنهم يقولونها عند طردهم كلبًا ونحره فيقولون مثلًا أخسأ يا سيدي وقد سيتعملونها أيضًا لتعظيم المخاطب وإجلاله. والرجل يقول عن زوجته معلمتي والمرأة تقول عنه معلمي. وإذا خاطب زوجته أحد من الخاصة بلفظه «مادام» كان ذلك إشارة إلى تنافرهما فخطاب الرضى إنما هو أن يقول لها يا محبتي ويا عزيزتي وربما قالوا يا قلبي ولا يكادون يفهمون يا روحي ويا عيني.

إذا دخلت على أحد من أهل العربية احتفى بك غاية الاحتفاء وإن لم يكن بينكما صلة أو معرفة وعند الانصراف لا يزيد على أن يقول لك في أمان الله وربما لم يقم لك وإذا دخلت على إفرنجي أراك أنه مشغول عنك بما هو أهم من الزيارة وسألك أن تسرع في عرض حاجتك وعند انصرافك من عنده ينهض لك ويرافقك إلى الباب وعند الفرنسيس لابد

من أن يكلمك هناك كلامًا يوجب وقوفكما ولو دقيقة إشارة إلى أنه لم يمل منك وعامة الإنكليز هم دون عامة فرنسا أدبًا وكياسة كما أن علية أولئك أفضل من علية هؤلاء وليس عند الإنجليز فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه.

ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة أو لنكاية الخصم في الكتابة وعدم التهافت على الحسد فإذا رأوا عندك مثلًا متاعًا نفيسًا لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في إحرازه ولا يقولون يا ليت كان لنا مثله. ومنها أنهم يصبون على ملبهم فلا ينظلمون ولا يجدفون أي يستقلون عطاء الله ولا يقولون ليس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريك أنه مستغن عنك ولا تكاد تسمع خادمًا يطعن في مخدومه أو خادمة تعيب مخدومتها وإن كانا يكابدان عندهما. وإذا نبغ فيهم إنسان في فن وصنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته فلا يحسد ولا يبخس حقه. بل يجد من ينشطه وييسر له أسباب العلم، ولا يتشبثون بأعقاب الأقاويل ولا يأتون النميمة والغيبة إلا قليلًا، ومن ذلك حسن الترتيب والتدبير في الاشتغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل فإذا اتفق أن زارهم أحد في ساعة الشغل لم يتحاشوا أن يقولوا له مثلًا قد أنسنا بك ولكن علينا قضاء ما لا بد من المصالح فلا تؤاخذنا وزرنا في يوم كذا فينصرف عنهم عاذرًا لا عاذلًا ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب إذا اعتمدهم بشيء فإذا احتاج الصغير إلى الكبير في شيء قال له إني أرجو أن تكون من المحسنين إليّ بتنويل طلبتي فأكون لك من الشاكرين فيكون جواب الكبير له بغير ملث سأبذل جهدي في مصلحتك وأخبرك.

وأما إذا رأى المسئول نفسه غير قادر على إحساب سائله ونفعه قال له مصرحًا إن سؤالك فوق طاقتي فاقصد غيري ولكن متى وعد فلا بد من إنجاز وعده فلا محال ولا مطال.

ومن الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فإذا سلمت لأحدهم مثلًا طرسًا فإنه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى إذا استرجعته بعد سنين أعاده عليك كما تسلمه بل ربما أزال عنه الوسخ ورده إليك نظيفًا وقال لك وهو معتذر قد تجاسرت على أن أزلت الطبع عن الطرس وأرجو أني لم أسيء فيما فعلت. وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه وينضم إلى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح أحدهم كتابًا جاء باسم غيره بل يبذل جهده في إيصاله إليه وإذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه إلى ما بين يديك من الصحف فإذا أراد أن ينظر في كتاب لم يلمسه إلا بعد أن يستأذنك.

ومن ذلك تنشيط أولادهم إلى الأشغال وتمرينهم على ما يكسبهم وإياهم الرزق الكافي والمواظبة على الأعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حقر فإنهم لا يملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول أحدهم إني كبرت عن تعلم شيء فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم أحدهم أو سقط شرفه أو مال نجمه فاهون شيء عليه نحر عنقه. ومن رام أن يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم أنه مستغن عنهم ولا يعرض لهم في طلب شيء ولا في استعارته وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون أيامًا وشهورًا وسنين ولا يسألونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون أن يسمعوا ذلك منه إذا ذكره. ومتى وثق أحدهم بإنسان وعرف منه الجد والاستقامة والأمانة يأتمنه على زوجته وبناته فيذهبن معه ليلًا ونهارًا بلا مانع ومن يحضر إلى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه منهم

وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه من الذم. وإذا زارهم أحد أول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من أن يعطي الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده في صحفة من الفضة أو البلور ولا يكاد يدخل عليهم زائران في وقت واحد وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه أسماء الزائرين في كل يوم. وفي الجملة فإن معاشرة هؤلاء الرؤوس تتعب الرأس والرجل معًا وتضيع كثيرًا من الوقت والمال. وربما دعاك أحدهم إلى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة أغدية. ومما يحمد من هؤلاء النبلاء أنهم لا يضعون في أرديتهم سمات الشرف ويطوفون به في الطرق تهويلًا على العامة كما تفعل نبلاء فرنسا وإنما يتحلون بها في أوقات معلومة وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلي والجواهر إلا في الولائم والسهريات ونحو ذلك.

ومن ذلك خطابهم خدمتهم بالرفق واللين وإن أظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها إذا أمرتها بأن تناولها شيئًا هاتي هذا الشيء إن أعجبك. وبعد أن تأخذه منها تشكرها وربما تباخلت عليها في الأكل والشرب وأرضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها. ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة متباعدة عن الخادمة ومظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء وإذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الأدب ويحمد أيضًا من عاداتهم أنهم إذا استخدموا شخصًا لسنة وأرادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفه بثلاثة أشهر وعند الفرنسيس ينبهونه من قبل ثمانية أيام فأما إذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه بأسبوع أو أدوا إليه أجرة الشهر وصرفوه.

قال ابن فارس هذا وإني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الإنكليز أن يصفهم بالكبر والعجرفة وكبرياء علية الإنكليز إنما هي في

وجوههم أكثر منها في ألسنتهم وقلوبهم. وإن وسم الناس إياهم بالعجرفة مطلقًا ليس في محله إلا أني لا أنفي عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن أن تذل لغيرهم وهي من الخلائق المحمودة لدى جميع الخلائق فأما كبر السفلة منهم فهو إبداء العبوس أيضًا مضافًا إليه عدم التأدب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقاء والمنقلب وهلم جرا. هذا وكما اشتهر عن الإنكليز الكبر كذلك اشتهر عنهم الصدق ومما يحمد من الكبراء ومن ذوي المراتب السامية هنا أنهم لا يتداخلون في التجارة ومن منكر عاداتهم أنه إذا دخل أحد على جماعة من هؤلاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم إلا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه فأما إذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم أحدًا فلا يحيى مطلقًا بخلاف عادة الفرنسيس فإن من يدخل على جماعة أيًا كانت يضع يده على رأسه أو ينزع برنيطته احترامًا لهم وكذلك إذا خرج وإن لم يكن يعرفهم.

إنكلترا والاستعمار

٨٧

من لم يطلع على التاريخ والجغرافيا لا يعتقد عندما يقع بصره على البلاد الإنكليزية أن حكومتها استعمرت مملكة واسعة أعظم من مملكة قيصر وأعمر منها. ولقد ارتكبت انكلترا أغلاطًا كثيرة وركبت أخشن مراكب الجنون للوصول إلى مستعمراتها. وعلى ما في طرق استعمارها من النقص الذي لم يتم بالإصلاح حتى الآن يصعب أن يقال [(١)] إن شعبًا

(١) انكلترا وحكومتها ومعاهدها لدى موصلانك:
A. De Fonblanque: L. Angleterre son gouvernement ses institutions,

نجح في هذا الباب أكثر من الإنكليز إذا اعتبرنا اختلاف العناصر والأخلاق والأهوية والطباع.

تتناول مستعمرات إنكلترا نحو ثلث مساحة الأرض وربع سكانها وإذا استثنينا اليابان والصين نجد إنكلترا قد اتصلت من الأصل أو بالحكم مع أكثر من ثلث الشعوب المتمدنة في العالم فلها في قارة أوربا أربع مستعمرات وفي قارة أميركا إحدى عشرة مستعمرة وفي أفريقية أربع عشرة مستعمرة وفي آسيا ست مستعمرات وفي أوستراليا ثماني مستعمرات ولكل واحدة قانونها الخاص تشتد صلاتها بالمركز (لندرا) أو تلين بحسب عراقتها في المدنية وجهادها في سبيل الحرية والقومية.

والفضل الأول في حفظ جزائر بريطانيا ومستعمراتها إلى الأسطول الإنكليزي الذي حطم كل أسطول ما عداه لجيرانه حتى غدا الأول فقد قال المؤرخون إن الإنكليز ما كانوا يحلمون بأن ينقلبوا من قرصان بحر إلى دولة بحرية عظمى فقد استأجر هنري الخامس سفن الهولانديين في القرن الخامس عشر للاستعانة بها على حملته إلى فرنسا ولم يكن للبلاد قبل عهده بحرية حربية لحماية الشواطئ وكانت جميع تجارة بريطانيا الخارجية بعد الهولانديين واللومبارديين والهانسبين تستميلهم الحكومة البريطانية بما كانت تمنحه من الامتيازات التي تحرم منها رعاياها من الإنكليز. ولم تهتم إنكلترا إلا عهد ريشار الثاني بحماية علمها ولم تؤثر الأسباب التي اتخذتها إلا على عهد هنري السابع وظل الإنكليز إلى آخر أيام الملكة اليزابت غير مستعمرين. بدأ القرن السابع عشر وليس لإنكلترا خارج أوربا ولا مستعمرة وقد سبقهم جيرانهم البازلون على ضفاف البحر الأتلانتيكي.

كتب أحد رجال البحرية في إنكلترا أواخر القرن السادس عشر يصف البحرية الإنكليزية فقال: لا يتأتى للبحرية الإنكليزية أن يكون لها وجه شبه مع البحرية الهولاندية. فقد أصبحت هولاندة كما كانت مدينة صور القديمة ومدينة البندقية الحديثة مستودع كثير من البضائع يصرف منها واحد من المائة ببلادها والباقي خارجها والهولانديون يأتون إلينا متاجرين كل سنة على ٥٠٠ إلى ٦٠٠ سفينة ولا نكاد نبعث إليهم بأكثر من ٣٠ إلى ٤٠ سفينة فالهولانديون يتجرون مع جميع مواني فرنسا ونحن لا نتجر إلا مع خمس أو ست مواني وسفنهم وحدها تبلغ أكثر من جميع ما يملكه مجموع أمم النصرانية فهم يبنون في السنة ألف سفينة. هذا وليس في بلادهم شجر، وحاصلات أرضهم لا تشحن أكثر من مائة سفينة. اهـ.

وأن تحطيم السفن الإنكليزية في بحر الشمال والمانش سنة ١٥٨٨ للأسطول الأسباني الذي لا يغلب L'invineible Armador كان مبدأ تفوق إنكلترا ببحريتها وقد ساعدت إنكلترا يومئذ الأنواء فلم تبق منه إلا طويل العمر وقد وقع لإنكلترا مسألتان ساعدتاها على هذا التفوق وهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وكانت جنوة وبيزا وفلورنسة والبندقية وأكسبورغ وتروي ومدن الهانس مجمع التجارة والتجار ففتح اكتشاف أميركا أمامها بابًا جديدًا فأصبحت مملكة من ممالك المحيط الباسيفيكي وفاقت على الدول الخمس التي كانت ممتدة على شواطئ هذا المحيط.

دخلت البورتقال أول الدول في ميدان الاستعمار ثم أسبانيا ثم هولاندة وقد بلغت هاته الدول الثلاث أرقى درجات سعادتها الاستعمارية في منتصف القرن السادس عشر وقامت فرنسا بمثل هذا الأمر بعد ذلك بقليل وكانت فيه أرقى من إنكلترا وهذه جارت الأخيرة، ولم تصرف أكثر من قرن لتعوض الوقت الذي أضاعته ولم يعترف بها بأنها دولة بحرية قوية تطمح إلى الاستيلاء على البحار إلا يوم صلح أو ترخت سنة ١٧١٣

وعجيب تأخر إنكلترا عن جيرانها الدول الخمس المفتحة موانيها على البحر الأتلانتيكي كيف لم تنتفع حالًا من تجارتها مع أميركا على ما لها من المركز الغريب وهي أقرب الأمم إلى العالم الجديد وشواطئها تمتد على طول ٧٩٠٠ كيلو متر أي ضعفي شواطئ فرنسا وإذا كان الإنكليزي في أي نقطة من بلاده لا يبعد عن الساحل أكثر من خمسة وعشرين فرسخًا هذا مع تعدد موانيهم وأنهارهم ووصول سفنهم حتى إلى العاصمة وإلى كثير من الحواضر بدون أدنى عائق على حين ليس لهولاندة والبورتقال من المواني ما يعدها لأعداد الأساطيل الكبيرة ولفرنسا وأسبانيا مشاغل في اليابسة تحتاج لأن تصرف قواها البرية فيها وتعنيا بها زيادة على البحرية.

كان من الاضطهاد الذي وقع على البرتستانت لأول انتشار مذهبهم في إنكلترا أن هاجر كثير منهم إلى أميركا وإلى غيرها فاستعمروا البلاد واستصفوا الممالك وأنشأوا في أيام نكبتهم لأمتهم ممالك بنيت على التضامن وكان سداها الأقدام ولحمتها الوطنية. وأخذت إنكلترا تطوف البحار التي كانت مجهولة إلى ذلك العهد تؤسس فيها أماكن مثمرة تقرب بين محطاتها وتوطد سلطانها وتحمل إلى القاضية علمها فتألف من ذلك عنصر مؤلف من بحارة شجعان ومستعمرين مقدمين وتجار للربح متعطشين يغلب عليهم الصدق في متاجرهم. وحسن الذمة شرط في التجارة ولكنهم لا يعبأون بالشرف في المسائل الأخرى فهم قلمّا يراعون عهودهم مع الدول الأخرى بعيدون عن الإنسانية متشبعون بالأنانية. والظلم عادة لمستعمريهم ونشأ من ذلك حب التوسع في الملك على صورة لا مثيل لها في أمة. وأن من تفرقوا في أميركا من مهاجرة الإنكليز ونزعوا أيديهم من الكنيسة البابوية قد ربوا على استقلال الفكر والاتكال على المولى الحامي المطلق لخلقه. ومن هذه الجماعات أو مجموع

كنائسهم المجددة نشأت تلك المملكة الأميركية. فإنجلترا قبل هؤلاء المستعمرين كانت تتوسع اليوم بعد اليوم أما فرنسا وأسبانيا فكانتا تتراجعان في مستعمراتها الحين بعد الآخر.

دخل في الاستعمار بالهجرة أو الفتح شعوب أوربا العربية لقيام بلادهم بالقرب من الاوقيانس الباسيفيكي والاتلانتيكي والهندي أي أسبانيا والبورتقال وهولاندة وإنكلترا وفرنسا والدانيمرك ثم تبعتها ألمانيا وإيطاليا وأنشأوا البلاد وأسسوا الممالك ولكنهم كانوا باستعمارهم كلهم دون استعمار الرومان واليونان والفينقيين في حسن معاملة المستعمرين والإحسان إليهم في البلاد التي نزلوها على شواطئ البحر المتوسط وبحر الشمال فكان رائد المستعمرين من المحدثين القضاء على من نزلوا بينهم ولا سيما العبيد وهذا مما يؤسف له [١] ويصعب تطبيقه على ارتقاء النصرانية والعهد الحديث عن مستوى الوثنية والعالم القديم.

وهاك الآن نموذجًا من إدارة الهند أكبر مستعمرات إنكلترا بل أكبر ممالك الأرض بعد الصين تدرك منها أسلوبهم في حكومتهم الغربية التركيب المنوعة الأجزاء التي تحيلها في بودقتها بالزمن الطويل إلى إنكليزية صرفة بمباديها ومراميها إلا قليلًا.

لما استولى [٢] الإنكليز على الهند عقيب أن دالت دولة المغول ورفع عن بعض أرجائها علم الفرنسيس لم يجدوا أمامهم حكومة وطنية في البلاد ولا جماعة اجتمعوا لتدبير شؤونهم تربطهم المصلحة المشتركة بها بل رأوا هنا وهناك عصابات غير طبيعية نشأت بالاتفاق بطبيعة الفتح وظلت بطبيعة الحال عبارة عن مجتمعات منفصمة العرى تجمع تحت

---

(١) معجم السياسة والاجتماع لبلوك Block: Petit dictionnaire politique et social.

(٢) من مقالة في المجلة الزرقاء الفرنسوية Revne Blene.

لوائها ملايين من الناس في أماكن متباينة وكان لهذه الأقوام بحسب مكانتها زعماء يقودونها سموا أنفسهم أمراء وراجات ونوابًا وسلاطين وأمبراطرة ولم تتغير هذه الصورة من الحكومة منذ الأعصر التي استولى فيها الفرس والمقدونيون والبارثيون والتتار والمغول وغيرهم على تلك القارة.

ومع ما نراه من حال ذاك الشعب المهزع المنتشر الأطراف الخالي من كل جامعة قد أنشأ له مدنية باهرة دامت قرونًا تنير العالم ببدائعها وظلت إلى يوم الناس هذا لم تمسسها يد بسوء. فارتبط الهنود من الشمال إلى الجنوب من جبال حملايا إلى رأس كومور برباط واحد وعملوا بقلب واحد وتشبعوا بروح واحدة تدفعها الثبات الذي لا يوصف والغاية المشتركة التي وجهوا كلهم وجهتهم إليها وذلك أنهم لم يرموا إلى غرض سياسي ولا إلى غرض اقتصادي بل لأن المجتمع الذي ألفوه ورتبوا درجاته [1] لم تكن غايته زمنية دنيوية بل كانت دينية فاستقام الأمر للمستعمرين لأن القوم لا تهمهم السياسة ولأن النواب والراجات المغلوبين على أمرهم ليست لهم أصول راسخة في البلاد ولا منزلة في قلوب الأمة فكان الدين هو الذي يحرص القوم على بقائه والإنكليز أحرص الناس على احترامه ولا سيما بين طبقات البراهمة التي كان لها تأثير شديد في العامة.

أدرك الإنكليز في الحال صراحة بأنهم في حل من أن يؤسسوا في الهند الحكومة التي تروقهم من حيث الإدارة والنظام السياسي والتشريعي على أن لا يمسوا المعتقدات ولا رجال الدين بسوء فأنشأوا حكومة جديدة سموها حكومة الاستقلال ولم يراعوا في تأسيس هذه الحكومة

(١) في الهند سنة ١٩٢٠ قبيلة مختلفة Caste وقال آخر إنها ١٤٠٠.

أصول الشعوب إذ كان هنا البنغاليون الجياع والماهراتيون الشجعان وفي مكان أبعد سكان ميزور وفي المقاطعات الأخرى السيخيون النشيطون فتجد الفلسفة العالية والتصوف البديع إلى جنب الخرافات المستحكمة والتعصب الشديد بل راعوا اختلاف طبائع الأقاليم من حيث وضعها الطبيعي عملًا بما قاله أحد رجالهم من أن الاختلاف في أصقاع الهند أشد مما تراه في ظاهر أرضنا وسياراتنا. ولم ير المستعمرون من مصلحتهم أن يؤلفوا وطنية هندية فيكون لسكان بنجاب وبنغال وطنية خاصة بل عزموا على توسيع الاختصاص والسلطة وتقسيم البلاد في إدارتها على خلاف ما جرت عليه فرنسا في ربط البلاد كلها بالعاصمة مباشرة لأنها ترمي إلى تجنيس أهل البلاد المستعمرة بالجنسية الفرنسوية.

وبعد تجارب طويلة تمت لإنكلترا سنة ١٨٦١ صورة إدارة الهند وكانت هذه الصورة معدلة منظورًا فيها وهي الصورة التي جرت عليها شركة الهند الشرقية سنة ١٧٧٣ واستصدرت بها قانونًا من مجلس النواب فقسمت الهند أولًا إلى ثلاث ولايات بنغال ومدارس وبومباي دعوها رئاسات Présidence لأن إدارتها كانت بيد مجلس ينشر القوانين وينفذ القرارات وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو دور الحروب والمنازعات الهائلة رأت إنكلترا من الضرورة أن توحد الإدارة السياسية مع الإدارة الحربية لتقوية كل منهما فعهدت سنة ١٧٧٣ بولاية الهند لحاكم بنغال بحيث يكون له التقدم على حاكمي مدراس وبومباي ولكن ولايته اسمية لا فعلية فأخذت الولايات الثلاث تضيع الوقت في الأخذ والرد والإدارة مختلة الأساليب لا ترجع إلى يد تضم شملها حتى إذا كانت ثورة السيباي سنة ١٨٥٧ وهي التي كادت تخرج إنكلترا من الهند وضعت الحكومة صورة إدارة كانت أساسًا للإمبراطورية الهندية وهو عمل إداري لم توفق إليه أمة ولم يخطر في خاطر حاكم.

فقسمت أراضي الهند إلى طبقتين جوهريتين أراضي السلطنة البريطانية أي البلاد التي تحكمها إنكلترا مباشرة وهي عبارة عن ولايتي مدراس وبومباي اللتين بقيتا على ما كانت عليه في حدودهما وولاية بنغال وقاعدتها كلكوتا جعلت عاصمة المملكة وقسمت إلى ثماني مقاطعات لها حق الانتخاب. والطبقة الثانية أمارات الوطنيين التي تركت تحت سلطة الراجات الاسمية أو الفعلية فقسمت إلى قسمين في وضع الحماية الإنكليزية عليها وبذلك صار الحكم للوالي العام والرئاسات وحكومات الولايات والإمارات الوطنية.

ولحاكم الهند أو نائب ملكها مجلس مؤلف من ستة وزراء لهم معاونون وفي بعض الأحيان ولا سيما عند سن القوانين يضطر إلى أخذ آراء المجلس وله الحرية أن يعمل بها أو يرفضها وهؤلاء الوزراء يشبهون من وجوه كثيرة وزراء لويس الرابع عشر لا وزراء أدوارد السابع وهم وزير الداخلية والخارجية والمالية والمعارف والتجارة والحربية والعدلية والأشغال العمومية ويحق لوالي مدراس وبومباي أن يحضرا في المجلس عضوين فوق العادة وهذا المجلس الوزاري يجتمع في المكان الذي يستنسبه الحاكم العام فحيثما التأم فهناك العاصمة. ويضاف إلى هذا المجلس بعض الأعضاء فيصبح برلمانًا أي مجلس نواب فيكون نصف هؤلاء الأعضاء الإضافيين من الأعيان أوربيين كانوا أو وطنيين على أن لا يكونوا من موظفي الحكومة يعينهم الحاكم العام فبذلك يصبح العنصر الرسمي في هذا المجلس أكثر من العنصر الأهلي وهذا العنصر قليل العدد ولذلك لا حكم له ومعاونته اسمية في الأغلب.

أما المجلس التشريعي فله سلطة واسعة لا يقف أمامها إلا امتيازات البرلمان البريطاني وحقوق السلطنة الإنكليزية وتنفذ قراراته عندما يصدق عليها حاكم الهند. وهذه الطريقة التي تسهل إحالة السلطة الإجرائية إلى

السلطة التشريعية تحل مسألة تقسيم الإدارة على أيسر وجه في حين تمنحها وحدة الآراء والأميال.

وفي مجلس النواب كما في مجلس الوزراء يعمل كل عضو بما فيه المنفعة العامة وينظر في المسائل التي يحسن معرفتها بخلو غرض ويعطي رأيه حرًا وللموظفين ضمانات لا تضر بالنظام ولكنها تقي أشخاص كل الوقاية.

تنظر الحكومة العامة في المسائل الملكية خاصة كالديون العمومية والكمارك والرسوم الأميرية والمقايضات والبريد والبرق ونفقات الحربية والأديان وقانون الجزاء والتمتع والعلائق الخارجية والحقوق الأدبية وغيرها ولتوجه دفة السياسة إلى الوجهة التي تختارها وتوحد بين المصالح العامة والخدم العامة فهي المنظمة والمدبرة وحافظة العهد الدستوري أما ولاة الأقاليم فلكل منهم مجلس خاص ومجلس تشريعي لا تسري أحكامه على أحكام الحاكم العام كما أن هذا لا يعتدي على امتيازات الإمبراطورية وما عدا ذلك فالحكومة مالكة حريتها برمتها ولها مطلق التصرف أن تقرر ما تشاء. ويخاطب واليا مدراس وبومباي لندرا مباشرة ويتناولان التعليمات بأنفسهما أما سائر الولايات فإدارتها ترجع إلى ولاة وبعضها إلى متصرفين يعينهم الحاكم العام ويتناولون رواتبهم من الإمبراطور ويختارهم من الموظفين الذين قضوا عشر سنين في الهند على الأقل وهم يخابرون كلكوتا في شؤونهم ولكن في الأمور الإدارية ولهم سلطة كسلطة والي مدراس وبومباي ولهم الميزة عليهم بأنهم أكثر خبرة ونفوذًا.

أما الجيش فيؤلف من جيش عامل من الأوربيين والهنود ويقدر بمائتين وسبعين ألفًا منهم ثلاثة وسبعون ألفًا من الإنكليز ومن جيش

مساعد تقدمه الأمارات الوطنية المستقلة عدده ٣٨٠ ألفًا ولكن على الورق فقط وعنده أربعة آلاف مدفع وادا استثنى من الجيش العسكري الإنكليزي وبعض الآلايات كالسيخيين والباتام والغروكا فالجيش الهندي لا يساوي شيئًا. وإذا استثنى من الجيش المساعد فيلق مملكة الكواليور لا يساوي شيئًا أيضًا. قال أحد كبارهم: إن هذا الجيش عبارة عن خليط من الأوباش لا علم له بالتدريب الحربي وليس لديه سلاح منظم وأن الآيين أو ثلاثة من جيشنا مع بطارية خيالة تمزق شمل خمسين ألفًا من مثل هؤلاء المحاربين فمجموع هذا الجيش العامل وقدره سبعمائة ألف مع الجيش الاحتياطي هو عبارة عن تضليل يزول كالسراب أو كالدخان عند مداهمة الخطر.

وتقسم كل ولاية وارداتها مع الولايات العامة على نسبة محدودة وتقوم بنفقات القضاء والمعارف والأشغال العمومية وإعانة البائسين ولكل ولاية الحق في أن تستلف نقودًا على واردات خمس سنين تصرفها في الطرق التي تراها نافعة لعمران ولايتها وتقتصد ما تشاء وفي الهند أربع محاكم عالية في بومباي وبنغال والشمال الغربي ومدراس تميز إليها أهم الدعاوى المدنية والجزائية وينتخب أعضاؤها من قبل السلطنة الإنكليزية ويقبض كل عضو من مئة ألف إلى مائتي ألف فرنك راتبًا سنويًا وفي كل حاضرة ولاية محكمة استئناف ومحكمة جزاء نقلة ثم محاكم المقاطعات ويعمدون تارة إلى استعمال قانون لندرا وإذا وقع اختلاف بين أوربيين من رعايا إنكلترا يطبقون عليهم القانون الهندي وأحيانًا قانون الجزاء الإنكليزي الهندي.

ومأمورو الإدارة الملكية عبارة عن ٧٦٥ موظفًا فيكون بذلك موظف واحد لكل ربع مليون ساكن وتحت أيديهم صغار الموظفين من الوطنيين

(١) ومن مبدأ إنكلترا في الهند أن تبقي جميع الوظائف الكبرى في أيدي الأوربيين وتعطي جزءًا مهما منها للوطنيين ولا ترى الحكومة أن تقبل أحدًا من رعاياها الهنود وتجعلهم إنكليزًا في جنسيتهم وهم يهزأون بفرنسا التي جنست رعاياها في بوندشيري بجنسيتها وأعطتهم حق الانتخاب لإرسال نواب وأعيان.

أما الأمارات الهندية المستقلة فهي منقسمة إلى طبقتين تقل في الأولى السلطة الإنكليزية عليها ومنها الأمارات الإسلامية التي تركت وشأنها لأن ذلك أقل في النفقة عليها ولكن حالتها إلى الزوال لأدنى إشارة تصدر من الحاكم العام ثم إن أمراء تلك الأمارات الإسلامية هم غرباء ويدينون بدين يكرهه السواد الأعظم من رعاياهم فهكذا تجد في مملكة النظام مملكة حيدر آباد الدكن (٢) تسعة ملايين من البراهمة مقابل مليون من المسلمين وفي سائر الممالك المستقلة (٣) خمسون مليون برهمي أما ممالك كواليور واندور وبارودا فليس لها من المهراتية إلا الاسم لأن أمراءها دخلاء عليها. أما ممالك الطبقة الثانية من الوطنيين فتختلف عن هذه كثيرًا ومن هذه الممالك ميزور وراجبوتانا وترافانكور وجيبور وجوبور وملوكها من البراهمة ولئن اعتادوا العبودية فذلك لأنهم كانوا إلى عهد قريب خاضعين للمهراتيين والمغوليين ولذلك ترى

---

(١) في الهند ٢٥٠٠ موظف وطني يقبضون من ١٢ ألفًا إلى ٢٥ ألف فرنك فيكون عدد الموظفين الوطنيين الذي يقبضون من ٣٠٠ فرنك إلى ١٠.٠٠٠ فرنك بنسبة ٩٠ في المئة.

(٢) مؤسس هذه الدولة هو من نسل أحد قواد أورنك زيت المشهور الذي خلص سنة ١٧٢٤ من سلطة المغول وعاصمة مملكته حيدر آباد وهي إنكليزية محضة جسيمة البقعة جميلة بين المدائن.

(٣) عدد هذه الإمارات عشرون إمارة وهي ماعدا مملكة باهوبال وباهاوال لا شأن لها من حيث السياسة ودخلها ١٢٥ مليون فرنك.

الحكومة من الحكمة أن تضيق خناقهم وهي لا تخافهم ولكنها لا تركن إليهم إلا قليلًا قال جايمس ستيفن: إن الإنكليز في الهند هم نواب تمدن محارب وسلام تدعمه القوة وما من بلاد نظمت شؤونها وحالفتها الدعة والراحة مثل الهند البريطانية ومتى خفت شدة الحكومة يكر نظام الهند كأنه مأخوذ بسيل جارف اهـ. وتنقسم درجات التعليم في الهند إلى ابتدائي ووسط وعال وهو النقطة الضعيفة من ذاك البناء الإنكليزي الهندي البديع.

إن من يسكنون البلاد الواقعة بين نهر الأندوس وشاطئ كوروманديل ويطلقون عليهم اسم الهنود يجب أن يجعلوا من الشعوب التي تشمئز من الغريب وتعاديه شأن كل الشعوب التي لها تاريخ قديم وفلسفة معروفة وتمدن خاص بها وهذا يصدق على الأكثرية من البراهمة كما يصدق على الأقلية من المسلمين فالبراهمة يرون من واجباتهم أن لا يحيدوا قيد شبر عن تعليم أولادهم الصنعة التي يعلمها آباؤهم بالإرث وتلقينهم الفروض الاجتماعية والعالمية والدينية التي تصدر عن زعمائهم وأن جزءًا من هذا الشعور ليتعلمه الطفل بالفطرة والتقليد وباقيه يحصله في مدرسة قريته أو يأخذه عن رئيسه الديني مع ما يأخذ من آداب أمته ودينها فيملأ ذهنه بالتراكيب المبهمة والصلوات ولا سيما صلاة الغداة ومعناها «لنعبد النور السامي من هذه الشمس ربة كل موجود في الوجود التي تقود فكرنا كما تقود عين معلقة بقبة السموات».

أما التعليم الحديث فإن رب الأسرة يدفعه عن أسرته مشمئزًا بقدر ما كان يشمئز لاوكون من هدايا اليونان ويرفضها ولذلك يعز على البراهمة أن يخونوا مبادئهم المقدسة وأكثر ما يحذرونه من الأمور التي يحملها إليهم الغرب المدرسة فإن شيئًا خفيًا في فطرتهم يدعوهم في السر: إياكم والمدرسة الإنكليزية فهي عدوتكم.

وعلى هذا حارت إنكلترا في سياسة التعليم التي تجرى عليهم بين البراهمة لأنها لا تستطيع أن تعلمهم التعليم الأوربي إلا إذا أضرت بمعتقداتهم الدينية ومعتقدهم هو وطنيتهم وهي لا تريد أن يخرجوا عنها حتى إن إنكلترا اضطرت سنة ١٨٤٠ أن تجيب مطالب ثلثمائة ألف رجل اجتمعوا في سهل بنارس يقيمون الحجة على الرسوم التي تريد وضعها على البيوت وعزموا أن يهلكوا جوعًا أو تجيبهم الحكومة إلى إلغاء هذه الرسوم فأجابتهم مكرهة مخافة أن يحدث وباء فإذا عادت روح الاعتصاب وسرت في أعصاب مائتي مليون رجل لمقاومة سياسة التعليم ماذا تعمل بريطانيا؟

ولم تر إنكلترا أسلم لها من تلقين الهنود مبادئها بالتدريج على أن تعلمهم ما تعلمه أبناءها في عاصمة الجزائر البريطانية وتشربهم حب الإنكليزية على شرط أن لا يحيدوا عن جادة الإخلاص لها ولا يسيئوا استعمال المفتاح الذي تسلمهم إياه ويستخدمونه لفتح الباب في إيذائها.

والمسألة لا تخلو من أشكال أيضًا فيما يتعلق بأهل الطبقة العالية من المسلمين فقد جاء في أحد التقارير عن الهند ما نصه: «إذا صرفنا النظر عن الأسباب الاجتماعية والتاريخية في الشعب الإسلامي في الهند نرى لانحطاطهم أسبابًا ذات شأن لها علاقة بتربيتهم التي تؤثر في حياتهم» فتعليم الجامع يجب عندهم أن يكون سابقًا دروس المدرسة ولا يتيسر أخذ الطفل من المسلمين إلا بعد أن يقضي بضع سنين في مدرسة يتعلم فيها اللغة العربية والفقه الإسلامي ولكن تعليم المدرسة الدينية يقوده إلى أن يختار الخدم الدينية مؤثرًا لها على أربح المسالك والأعمال. وقد أيدت التجارب هذه الملاحظة إذ حدث أن حب الوظائف العامة قد أثر قليلًا في المسلمين في الهند وظلوا يقاومون التعليم الإنكليزي كل المقاومة ولحسن طالعهم لم تعن الحكومة الإنكليزية بأن تجعل

المسلمين أوربيين كما صرحت على جعل الهنود كذلك ورأت إنكلترا أن تنقذ الطبقة العالية من الهنود من الأوهام القديمة لتستخدم منهم أناسًا في الإدارة والقضاء والمالية وقد رأى لورد ماكولي سنة ١٨٣٥ على ما فيه من العقل الذي أثر تأثيرًا سيئًا في الهند إن من الواجب تعليم اللغة الإنكليزية في مدرسة شبان الهنود من أرباب الطبقات المختلفة لترشح التربية الإنكليزية من الأعلى إلى الأدنى وكان يقصد من ذلك أن يأخذ ما يلزم للبلاد من الموظفين من أهل البلاد أنفسهم.

وفي سنة ١٨٥٤ أنشأت إنكلترا ديوان المعارف العمومية فعنيت بإدخال اللغة الإنكليزية إلى مدارس بنغال وبنارس ونظمت مدارس الوطنيين مع محافظتها لها على صفاتها الخاصة وفي سنة ١٨٥٧ أثمرت البذرة التي وضعها لورد ماكولي في تربة الهند فأسست ثلاث كليات في كلكوتا وبومباي ومدراس على مثال الكليات الإنكليزية فيها أنواع الراحة والرفاهية وتدرس فيها الدروس التقليدية وأنشئت في حاضرة كل مقاطعة مدرسة عالية وفي المدن الصغرى مدارس وسطى ثم أنشئت كليات لاهور لإقليم بنجاب والله آباد لإقليم الشمال الغربي وساغ للمتخرجين من تلك الكليات أن يتدرجوا في المراتب مثل من تخرجوا من كليتي أكسفورد وكمبريج.

فتخرج من تلك الكليات أناس من أرباب الذوق والأدباء والمشرعين وقل في المتخرجين العلماء إذ لاحظ السير هنري مين أن عقل الهندي المستعد لقبول ماحلا وطاب من المعارف هو محروم مما يتصور من قياس مدقق للحقيقة فالهندي يجيد التكلم والكتابة والتفكر الدقيق ولكنه متوسط الاستعداد للحساب والأرقام وأصبحت الحكومة تبعث إلى لندرا بأرقى طبقة من متخرجي كليات الهند ليكونوا نموذجًا على اشتغالها وراموزًا لمن طبعتهم بطابعها فكانت تكرم وفادتهم في لندرا ولم تعقهم

ألوانهم السمراء وتناسب أعضائهم وعيونهم التي تقدح شررًا وقاماتهم القصيرة وحركاتهم المتناسقة وأمزجتهم الشديدة عن أن يستميلوا قلوب الناس إليهم ونالوا من الكرم البريطاني أنواع الرعاية والعناية وفتح الإنجليز لهم أبواب دورهم الأنيقة الشريفة كأن كل فرد منهم كان أميرًا خطيرًا وراجًا كبيرًا فأخذوا بما شاهدوا وتكلنزوا على أجمل أسلوب وعاشوا عيش الوطنيين الإنجليز وقدروا حق قدره كل ما في الوطنية من الاحترام والأمن والشرف والاستقلال العالي.

فكانوا يتعاشرون ويتسامرون ويتعارفون في المجالس إلى من يخطبهن من الآنسات الفتانات الشقر البيض ويلعبون معهن أنواع الألعاب المألوفة والرياضات الإنجليزية النافعة وكانوا في جميع أحوالهم مثال الظرف في ألبستهم والترتيب في قبعاتهم حتى إذا أتموا دور التمرين التي كان كل يوم منها ابتسامة للمستقبل وتشبعوا بهواء الغرب وتبطنوا أسرار فلسفة هربرت سبنسر وشوبانهور ونيتشي وخفقت أفئدتهم بما علمت وتلبس شعورهم بالبدائع وحشيت عقولهم بخطب مجلس النواب الإنكليزي - يركبون البحر عائدين إلى بلادهم بلاد الشمس والحرية يحملون أجمل ذكرى مما رأوه وفي صناديقهم وأصونتهم الأوراق المطيبة والزهرات الذابلة وقطع من الشريط وبعض الفساطين يؤبون والكبر آخذ منهم ويعود محيطهم البرهمي يتحيفهم ويرجعون إلى سابق أوهامهم وأحقادهم على الإدارة الإنكليزية التي لم تؤثر فيها كثرة تغذيهم بمبادئ أصحابها.

ولقد شاعت اللغة الإنكليزية بين أمراء الهند حتى صارت لهم بمثابة لغة الاسبرانتو في الغرب يتكلم بها الهنود وهم من أجناس مختلفة وأصحاب لهجات متباينة فالمتكلمون باللغة السنسكريتية والبراكريتية والبالية والتيلنكا والبنغالية والهندستانية والمالاكالية والتامولية وغيرها من

لهجات الهند يحسنون الإنكليزية كأهلها وهذا ما حدا إنكلترا أن تضاعف مدارسها وكتاتيبها وكلياتها ثم رأت من الحكمة أن تعتمد على العنصر الإسلامي فأعظمت له مكانته وأقلت من مكانة العنصر البرهمي فزاد ذلك البراهمة نفورًا وأخذوا ينادون في سرهم وجهرهم «الهند للهنديين» وأرادوا محاربة الإنكليز حربًا اقتصادية فلم يكن من أبناء جنسهم أناس يكفون للظفر في هذه المعارك فلم يسعهم إلا أن يلجؤا للأجانب فكان الألمان وهم الشعب الذي يحاول أن يخلف الإنكليز في كل مكان هم الذين مدوا أيديهم للهنود وأصبح ما تخرجه هندهم من بالات القطن وصناديق الشاي وأكياس القهوة يسافر إلى ميناء همبورغ بدل منشستر.

ثم حدثت مشاغبات وفتن وقتل رجال الثورة بعض أعضاء الحكومة فلم يسع إنكلترا إلا أن تعطي الهند نظامًا جديدًا مصبوغًا بالصبغة الديمقراطية أكثر من ذي قبل وأشركت الهنود في سياسة بلادهم واستعملت إنكلترا الرفق فيمن دعوا إلى الثورة من رجال الصحافة والمحاماة وكان من تقربها من روسيا وتحالفها مع اليابان أكبر مفتر لهمم الهنود عن نزع أيديهم من يد حكومتهم أما المسلمون الذين رأت بريطانيا بعد حين أن تعتمد عليهم فقد تحركت نفوسهم وأدركوا قصورهم خصوصًا عندما رأوا إخوانهم شبان العثمانيين الأحرار الذين حرروا المملكة العثمانية من السلطة الاستبدادية كل هذا ليصدق على سكان الهند ما قاله أحد المفكرين من رجال السياسة الإنكليزية «سيبقى الشعب الهندي على الدوام شاهدًا ناطقًا بالماضي غير ممسوس بيد الغرب إلا مسًا خفيفًا» ومحاولة تجديد شبابه هو من الغلط وقلة الخبرة اهـ.

هذا وصف لإدارة حياة الممالك في أكبر مستعمرة لأكبر دولة وقد كانت الهند مدة قرن ملك شركة تستثمرها بمراقبة [١] مكتب تعينه الحكومة ويقيم في لندرا وبعد ثورة السيباي سنة ١٨٥٧ انحلت الشركة وجعلت تحت إدارة الحكومة مباشرة. وأصبح مكتب المراقبة وزارة الهند التي ما زالت تؤلف دائرة على حدتها غير وزارة المستعمرات وسموا الهند إمبراطورية وجعلوا الملكة فيكتوريا ملكة إنكلترا إذ ذاك إمبراطورتها وذلك سنة ١٨٧٧ وما زال ملك بريطانيا العظمى يقرن إلى ألقابه لقب «إمبراطور الهند».

لم تعدل كما رأيت في الفصل الذي سلف الإدارة الإنكليزية إلا ببطء شديد والتبديل الذي وقع حتى الآن في الأصول القديمة لم تغير من طبيعته فإن الشركة الإنكليزية أتمت عمل الإدارة المغولية وما إدارة الهند كما قال أحد رجال إنكلترا إلا أشبه بإدارة والد مستبد يملك في الجملة جميع الأرض ويرى من واجبه أن يقوم بواجب أعمال صاحب ملك غني وذكي. وفي الهند اليوم مائة ألف جندي وضابط وموظف من الإنكليز يقبضون رواتب مهمة ويقضي على رجال الإدارة أن يحسنوا اللغة الوطنية لأن الترجمان لا يعبر عن فكر المترجم عنه وله وقد يرتكب الغلط عن قصد فيبؤ الأوربي بتبعة ذلك أمام المرؤوس أو المتقاضي والهنود يجدون من رجال الإدارة عدلًا وفضل شرف فيما قيل. وعمال الهند من الإنكليز موسع عليهم في المشاهرات فيبدأ أحدهم براتب ثمانية أو عشرة آلاف فرنك في السنة ثم يزيد بسرعة حتى إن من يصل إلى مرتبة راقية في الجملة يتقاعد في سن الخامسة والأربعين وينال راتبًا سنويًا قدره ألف جنيه ويعود إلى إنكلترا مستريحًا ويقبض نائب ملك الهند ٤٣٠ ألف فرنك مسانهة. ورواتب الموظفين في المستعمرات الإنكليزية باهظة خلافًا

(١) الهند اليوم لالبرميتين Albert Métin. L'Inde d'aujauir d'haui.

لسائر الأمم في مستعمراتها التي تتوخى الاقتصاد فلا يدخل في خدمتها الكفاة من أهل الطبقات المختارة.

ويعيش ضباط الإنكليز وعمالهم في الهند في عزلة عن الوطنيين لا يختلطون بهم ولا يساكنونهم ولا يقبلونهم في أنديتهم. وبعض الفنادق تقفل في وجوه الوطنيين حتى المتخرجين في الجامعات الإنكليزية منهم ويحظر على الدارسين من الوطنيين في محطات السكك الحديدية أن يدخلوا غرفة الانتظار بل هي خاصة بالإنكليز والأوربيين. ولكثير من شركات الخطوط الحديدية مركبات خاصة بالبيض وأخرى مقصورة على غيرهم من الوطنيين. والتمييز بين الغربي والشرقي ماثل هناك للعيان في كل حال وشأن. ونسبة الوطني إلى الأوربي في الهند كنسبة الخادم إلى سيده والعامل الصغير إلى مديره. وصغار الموظفين من الهنود لا يلقون آمريهم إلا في حالة من الخضوع كأن يغضوا من أبصارهم ويضعوا أيديهم على صدورهم قال ميتين: إن كل من ذهب من الهنود إلى أوربا أو نظر في الأخلاق الغربية يتألم من القسوة البريطانية ويثنى على سهولة الاستقبال التي يجدها المرء في قارة أوربا. ولقد لقينا في رحلتنا بمحاميًا شابًا مسلمًا كان يتأسف على ألمانيا ويقول إن الألمان أكثر الأمم بشاشة وجذلًا فلا تكاد تصل إلى حانة الجعة في بلادهم حتى يوجهوا إليك الخطاب ويضعوا لك الأسئلة ويجيبوك على أسئلتك.

ولا يقبل في المجتمعات الإنكليزية من الوطنيين الأمن بلغوا درجة عالية من الشرف والغنى كالأمراء والأقيال مثلًا وأبناء الرسول وكبار تجار المدن الكبرى وقليل من كبار الموظفين الهنود وذلك في مجتمعات من يفوقونهم في درجاتهم وقد تشاهد بعض أغنياء من التجار في الردهات الإنكليزية وذلك في المدن التي اختلط أهلها منذ القديم مع الغربيين مثل بومباي ومادراس وكلكوتا. بيد أن تقزز الإنجليز من الداخلين عليهم

ظاهر على أتمه فلا يكون الوطنيون إلا بمعزل ويحظر على الإنجليزي أن يتزوج بهندية ومن يفعل ذلك يقضي عليه إن كان موظفًا أن يستقيل أو يقال. والتسري مع الوطنيات نادر مكتوم في بعض المدن.

إليك جملة حال الهنود مع مستعمريهم وليس استعمار الإنجليز حسنات كله ولا سيئات كله ففيه الجيد وفيه دون ذلك. ومن المحقق الثابت أن الهند ارتقت ارتقاءً محسوسًا في عهد حكومتهم شأن معظم مستعمراتهم ونشروا لغتهم بينهم مع الزمن الطويل ولكن كل وطني من الهنود لا يروقه إلا أن يرى بلاده مستقلة عن كل سلطة أجنبية.

الأندلس
صدر الكلام ومصادره
٨٨

زرت [١] في الشتاء الماضي (١٣٤٠ - ١٩٢٢) بعض أمهات مدن الأندلس فأرادني غير واحد من الأحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا غير واحد من الأحباب على أن أحدثهم بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا حضارة العرب، فأجابتهم إلى رغبتهم، شاكرًا حسن ظنهم، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتي، بشيء من مطالعاتي. عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر. وجه الحاضر، ويقيس في الجملة ما كان هناك في عهد أمتنا، على ما هو كائن اليوم في عهد غيرهم. أذكر ما أثره العرب في تلك القاصية من حضارة، وأثلوه من مجلد خالد على جبين الدهر. والسبب الذي به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرقى مملكة في عهد شبابها. والأعراض التي عرضت لها. فهرمت

(١) نشرت أولًا في المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العربي.

فـزال سـلطانها، وتـداعى عمرانهـا، وأبـذعر سـكانها، وربمـا نفعـت فـي الأخلاف سيرة الأسلاف، خصوصًا في أرض لم يكتفوا بأن فتحوها، بل عمروها وتديروها، وحكموها وأحكموها، ومدارسة حياة الأجداد، تربي أخلاق الأبناء والأحفاد. يصيبون فيها حكمة بالغة، وموعظة حسنة، والتاريخ يلقن الفكر الجديد، وينير الطريف بالتليد، والله وارث الأرض ومن عليها.

وهاك ما رجعت إليه من الكتب والرسائل في تأليف الفصول التالية، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين في العلم تصحيح ما عساهم يعثرون عليه من الهفوات.

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي «طبع بيروت».

(٢) نفح الطيب للمقري «مصر».

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي «ليدن».

(٤) قلائد العقيان لفتح بن خاقان «مصر».

(٥) مطمح الأنفس له «الأستانة».

(٦) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذاري «ليدن».

(٧) الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب «مصر».

(٨) رقم الحلل له «تونس».

(٩) الحلل الموشية له «تونس».

(١٠) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار له أيضًا «فاس».

(١١) طوق الحمامة في الألفة والآلاف لأبي علي بن حزم الأندلسي «ليدن».

(١٢) الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام «مخطوط».

(١٣) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر «مونيخ».

(١٤) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري «مصر».

(١٥) المسالك والممالك لابن حوقل «ليدن».

(١٦) أحسن التقاسيم للمقدسي «ليدن».

(١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي «ليدن».

(١٨) تقويم البلدان لأبي الفدا «باريز».

(١٩) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم «مجريط».

(٢٠) الجزء الثاني والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بني أمية إلى حين انقراض الدولة العبادية «غرناطة».

(٢١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية «الجزائر».

(٢٢) كتاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين «الجزائر».

(٢٣) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية للغبريني «الجزائر».

(٢٤) المؤنس في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي دينار «تونس».

(٢٥) ديوان ابن حمديس الصقلي السرقوسي «رومية».

(٢٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي «ليدن».

(٢٧) العيون والحدائق في أخبار الحقائق «ليدن».

(٢٨) تاريخ المسعودي «باريز».

(٢٩) تاريخ الكامل لابن الأثير «مصر».

(٣٠) تاريخ ابن خلدون «مصر».

(٣١) الحلة السيراء لابن الآبار «ليدن».

(٣٢) كتاب القضاة بقرطبة للخشني «مجريط».

(٣٣) تكملة التكملة لابن الآبار «مجريط».

(٣٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الآبار «الجزائر».

(٣٥) صبح الأعشى للقلقشندي «مصر».

(٣٦) معجم البلدان لياقوت الجموي «ليبسيك».

(٣٧) المكتبة العربية الأندلسية وفيها ستة كتب وفي الصلة لابن بشكوال، وبغية الملتمس لابن عميرة الضبي والمعجم لابن الآبار والتكملة لكتاب الصلة لابن الآبار وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموي الأشبيلي نشرها المستشرقان

الأسبانيان كوديرا وريبرا «مجريط» F.Codera et J. Ribera: Bibliotheea Arabieo - Hispana (Madrid).

(٣٨) المكتبة العربية الصقلية لميشيل آماري «ليبسيك» M. Amari: Bibliotheea arabo - sieula (Leipzig).

(٣٩) محاضرة ابن زيدون لحمد زكي باشا نشرت في السنة الثانية من مجلة البيان «مصر».

(٤٠) السفر إلى المؤتمر لأحمد زكي باشا أيضًا «مصر».

(٤١) قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون «ليدن».

(٤٢) رسالة ابن زيدون وشرحها للصفدي.

(٤٣) ترجمة ابن عباد «ليدن».

(٤٤) ترجمة بان زيدون «ليدن».

(٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بني الأفطس «ليدن».

(٤٦) قاموس الأعلام لشمس الدين سامي «تركي طبع الأستانة».

(٤٧) مجلة المقتطف.

(٤٨) مجلة المقتبس «مصر والشام».

(٤٩) دائرة المعارف الإسلامية «ليدن» Encyclopédie de L'Islam, Lcyde.

(٥٠) تاريخ مسلمي أسبانيا لدوزي «باريز» Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, Paris.

(٥١) التاريخ العام للأفيس ورامبو «باريز» Lauisse et Ramband: Histoire générale, Prais.

(٥٢) تاريخ العرب والمغاربة في أسبانيا والبورتقال لكونده «باريز»: J. Conde Histore de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, Paris.

(٥٣) تاريخ العرب العام لسيديليو «باريز»: Sedillot: Histoire générale des Arabes, Paris.

(٥٤) تاريخ العرب لهوار «باريز» C.Huart: Histoire des Arabes Paris.

(٥٥) عجالة في تحليل نفوس الشعوب الأوربية لفوليه «باريز» Fouillée: Essai d'une psychologie des peoples curopéens. Paris.

(٥٦) المخطوطات العربية في الاسكوريال لهارتويغ دار نبورغ «باريز» Hartiwig Derenbourg: Les manuseits arabes de L'Eseurial, Paris.

(٥٧) الصنائع في أسبانيا لكوميز مورينو «مجريط» Comez - Moreno: El arte en Espana «Madrid».

(٥٨) الكتابات العربية في غرناطة لأميليو لافوانتي أي الكنترارا «مجريط» Emilio La fuentey alcantrara «Madrid».

(٥٩) دليل أسبانيا والبورتقال لبيدكر «ليبسيك» Baedeker Espagne et Portugal. Leipzig

(٦٠) بحث وصفي لمصانع العرب تأليف رافائيل كونتروراس «مجريط» Raphahel Contreras: Etudes deseriptryes des monuments arabes. Madrid.

(٦١) تاريخ الأديان العام لسلمون ريناخ «باريز» Salomon reinach: Histoire generale des religious. Paris.

(٦٢) أسبانيا في القرن العشرين لمارفو «باريز» Marvaud L'Espagne au Ane siécle. Paris.

(٦٣) الأسبانيون والبورتقاليون في بلادهم لكيلاردي «باريز» Qullardet: Espagnols et Portugues chezeu. Paris.

(٦٤) أسبانيا والبورتقال مصورتان «باريز» L'eSpagne et el Portugal illustrés, Paris.

(٦٥) دائرة المعارف الإفرنسية الكبرى «باريز» La grande encyclopédie française, Paris.

(٦٦) معجم لاروس المصور «باريز» Nonvpau larousse hlastre paris

(٦٧) بحث في حياة ابن زيدون لأوغست كور «الجزائر» Auguste Cour: Ibn zaidoun, Alger.

(٦٨) تعليم اللغة العربية في أسبانيا لميكائيل آسين بلاسيوس «الجزائر» M.Asin Palacios: Eenseignement de l'arabe en Espagne, Alger.

(٦٩) معجم الكل في واحد أو موسوعات العلوم البشرية Tout en un: Encyclopédie des connaissances humaines.

(٧٠) دستور في الصنائع الإسلامية لسالادين وميجون: Saladin et .migeon Manuel d'art musulman

(٧١) معجم الألفاظ الأسبانية والبورتقالية المشتقة من العربية لانجلمان «ليدن» Engelmann: Glossaire des mots espagnols et protugais .derives de l'Arabe, Lyde

(٧٢) معجم الألفاظ الأسبانية العربية لريتوانجن «مادريد» :Rittwagen .De Filologia Hispano Arabiea «Madrid»

تحية الأندلس

٨٩

عشقتها ولم تسعدني الأيام بإمتاع النظر في جمالها، واستطلعت طلع أخبارها فروى الرواة عنها عجائب أقلها مما يستهوي النفوس المتمردة، ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية. تفردت بين بنات جيلها بما خصت به من معاني الحسن والإحسان، فكثر الخطاب والطلاب. وهي لا تفتأ تبدي لمن أمّ حماها صنوفًا من اللطف والظرف. وتخاطب البعيد والقريب بثغر باسم. وترشقهم بنظرات، لا تخلو من غمزات. تريد بها الهزوء بنكبات الزمان، والاستخفاف بسخافة الإنسان.

عشقتها منذ عهد الصبا، وعشق الصبا شديد، لما قرأته الباصرة من وصف سجاياها وحملته إلى البصيرة ففكرت فيه. وتدبرت خوافيه وحواشيه وزادني غرامًا بها ما سمعت من أن أناسًا قبلي أصيبوا بما أصبت به. وعدوا النزول في حماها ولو ساعة سعادة العمر، وحسنة الدهر: العشق فنون وعشقي كان لأرض الأندلس عليها من كل عربي ألف ألف سلام. على مر العصور والأيام.

عشقتها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا على أديمها من أبنائها وغير أبنائها، وكانت المخيلة تتصورها في مظاهر صح بعضها يوم اللقاء، وآخر كان بالطبع كالخيال، في الأندلس ثم نحو نصف مدنية العرب الباهرة، وقضوا في أرجائها نحو ثمانية قرون كانت بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة، ودور ظهور النوابغ وأرباب الإبداع والقرائح، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على كثرة ما اقتبست وأوجدت، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا أن تبلغ مكانة الأندلس، فكان هذا الصقع

في منقطع أرض المغرب، وآخر أرض العرب، بين البحرين المحيط والمتوسط برهانًا أزليًا على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات، وناعيًا على من أنكروا لإفراطهم في الشعوبية فضل هذه الأمة على الحضارة.

أقام الغربيون ضروبًا من المصانع من بيع وأديار ومتاحف ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب وبرك، ولكنهم لم يصنعوا على كثرة تفننهم في هذا الشأن، منذ عهد اليونان والرومان، طرزًا من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول. وينظر إليك فيعمل في شغاف قلبك ولا عين له فتنظر، ويطربك بتساوق نغماته من دون ما صناجة ولا وتر ولا ألحان. مصانع كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة سلبتها الفتن والجهل تارة شطرًا من بهائها. وسالمتها حينًا فأبقت عليها. أو رممت شيئًا مما أضرت به عوامل الأيام وإن لم تعد إليها نضرتها الأولى.

سلام على أرض طيبة خصها الخالق بأجمل الهبات الطبيعية الطيبة، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها ووهادها، ولا مياهًا عذبة دافقة من هضابها على شعابها ولا أشجارا باسقة وزروعًا خصبة في سلهلها ووعرها. ولا اعتدال مواسم وجمال إقليم، ومصحة أبدان زانها الصانع السماوي بإيجاده كما زانها الصانع الأرضي بإبداعه، وما أجمل الطبيعي والصناعي، إذا تواعدا إلى الاجتماع في خير البقاع.

ليالي الأنس. في جزيرة الأندلس، وأيامها الغر. في سالف الدهر. فيك قامت سوق الآداب. بما ارتفعت به رؤوس العرب على غابر الأحقاب. وكمل في ربوعك الذوق العربي حتى ظن بعضهم إنك نسيت كل شيء ماعدا الأدب، وما هذه الآثار الأبدية الأثمرة علمك وصناعاتك

وزراعاتك: سلام على أرواح علمائك وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم، يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعادتين، وشرعوا لهم شرعة المدنية المثلى، حملوا فأجملوا من الشرق إلى الغرب تعاليم في الدين والدنيا كانت صفوة العقول إلى عهدهم فأدهشوا من عاصرهم، وخلفهم من الأجيال، ونسجوا لهم على غير مثال نسيجًا رقيقًا، كتبوا لهم فيه سجلًا رقت حواشيه، ونظامًا متقنًا في حكم الإنسان للإنسان، يطبع في تاليه إذا تدبره، طبيعة حسن الذوق والطبع، وينشئه على أرق مثال من الخيال في الكمال والجمال. مثال حي من حضارة العرب في القارة الأوربية عامة. وفي شبه جزيرة أسبانيا خاصة، يفتخر به العرب على اختلاف أصقاعهم وحق لهم الفخر، لأن الأندلس العربية الإسلامية كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحي، نزل طلابه في قرونهم المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم، وأكرموا مثواهم بما علموهم، وما أسخى العربي على طالب قراه، والمعتصم بحماه، فلما جاء دور الانحطاط، وأزف رحيل ذاك الرعيل، من أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخيل، أبقوا لهم تلك المصانع ناطقة بفضلهم معلمة لهم معاني ليست في معاجم نفائسهم، ومكذبة على غابر الأيام من ينكر المحسوس، ويغمط الحق لصاحبه، ويستهويه الغرض، فيشوه وجه الحق الجميل.

إلى اليوم لم يزل في الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة، فلا يكادون يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة في كتبهم دع كتبها من أعمال هذه الحضارة الغريبة، وما ذاك الأثر الضئيل الباقي من عاديات الأندلس العربية. إلا برهان جلي على ما كان هناك من عدل شامل، وعقل كامل، ونظر نافذ، ويد صناع، أربت على ما عمل من مثلها في سائر البقاع والأصقاع.

تقويم الأندلس
٩٠

أخذت العرب اسم الأندلس من اسم سكانها الأصليين الفانداليس Vandales فقالوا فاندالسيا أو فاندالوزيا Vandalitia أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب فقالوا جزيرة الأندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هي في الحقيقة إلا شبه جزيرة لاتصالها من أقصى الشمال بجبال البيرنات أو الثنايا كما كان يعرفها العرب، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة فانداليس أو أبيريا أو أسبانيا بمسيرة ثلاثين يومًا طولًا وزهاءَ عشرين يومًا عرضًا يحدها البحر من أطرافها الأربعة إلا من الشمال الشرقي. وميزان وصف الأندلس كما قال ابن سعيد: إنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب.

والأندلس في عرف أهلها اليوم عبارة عن ثماني ولايات ولاية المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولفا، وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أشبيلية ومساحتها السطحية ٨٦٦٨٧ كيلو مترًا مربعًا وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو خمس أسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسدها بمساحتها السطحية.

هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الأندلس بيد أن حكم العرب تجاوز ذلك إلى برشلونة وما وراءها من الشرق وإلى لشبونة وما جاورها في الغرب ولم يبق في أيدي الأسبانيين والبورتقاليين من هذه الجزيرة التي تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف كيلو متر مربع سوى أراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلالقة وآستوريا.

فالعرب لم يملكوا إذًا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وإنما ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الأندلس العربية على التحقيق ويقول المسعودي إن مسيرة عمائر الأندلس ومدنه نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وقال غيره إن في أرض الأندلس العامر والغامر فكانت من ثم مساحة الأندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب أعدائهم عليهم وكم من الأقاليم والمدن في الشمال والغرب والشرق دخلت مرات في حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها لعبد الرحمن بن معاوية في القرن الثاني ثلاثمائة فرسخ في ثمانين ثم صغرت في القرن الثامن حتى أصبحت - كما وصفها العمري - كمفحص القطاة ضيقًا، ومدرج النمل طريقًا.

لا جرم أن مقام العرب في الأندلس كان غير طبيعي لمجاورتها لأمم قوية الشكيمة مخالفة لها في الجنس واللسان والدين حتى إن عمر بن عبد العزيز لما ولى السمح بن ملك عليها أمره أن يكتب إليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله.

وصف المراكشي ما كان في أيدي الأسبان والبورتقال من أرض الأندلس سنة ٦٢١هـ فقال أول المدن في الحد الجنوبي الشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشنونة (برشلونة) ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وأفراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة وهي الجهة التي تسمى أرغن. وفي الحد المتوسط ما بين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة وأقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط (مجريط؟) وويذ وايلة وشقوبية هذه كلها يملكها الأدفنش وتسمى هذه

الجهة قشتال. وتجاور هذه المملكة فيما يميل إلى الشمال قليلًا مدن كثيرة أيضًا وهي سمورة وشلمنكة والسبطاط وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج وتسمى هذه الجهة لبون. وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الأعظم أقيانس مدن أيضًا منها مدينة الأشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة ثم ذكر ما يملكه المسلمون لعهده من الأندلس فأورد حصن بنشكلة وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية وغرناطة وحصون لرقة وبلس وقلية وبسطة ووادي آش والمرية وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء.

وقوّم الفلقشندي الأندلس في المئة الثامنة فقال إن الأندلس أقامت بأيدي المسلمين إلى رأس الستمائة سنة من الهجرة ولم يبق منها بيد المسلمين الأغرناطة وما معها من شرق الأندلس عرض ثلاثة أيام في طول عشرة أيام وباقي الجزيرة على سعتها بيد نصارى الفرنج وإن المستولى على ذلك منهم أربعة ملوك الأول صاحب طليطلة وما معها ولقبه الأدفونش سمة على كل من ملك منهم وعامة المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طليطلة وقشتالة وأشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية وسائر أعمالها. الثاني صاحب لشبونة وما معها وتسمى البورتقال ومملكته صغيرة وأقعة في الجانب الغربي وهي تشتمل على لشبونة وغرب الأندلس، الثالث صاحب برشلونة وأرغن وشاطبة وسرقسطة وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة. الرابع بيرة وهي بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال لملكها ملك البشكنس.

هذا في الجملة تقويم الأندلس في القديم وكلما توغلت في سمت الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وترامي المسافات وهي اليوم في

الخطوط الحديدية سهلة في الجملة فإذا جئت من مدينة باريز ودو الطريق الذي سلكناه تصل إلى مجريظ في ست وعشرين ساعة وهي ١٤٥٥ كيلو مترًا ومن مجريط إلى قرطبة ٤٤٢ كيلو مترًا ومن قرطبة إلى أشبيلية ١٣١ كيلو مترًا ومن غرناطة إلى جبل طارق ٣٠١ كيلو مترًا ويتأتى اختصار هذه المسافات إذا كانت القطر تقصد إلى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات.

فتح الأندلس
٩٠

لما فتح موسى بن نصير مولى بني أمية أفريقية وما حولها أي تونس وما وراءها سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها. وكان يليان أحد ملوك الأندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه في تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولأصحابه عهدًا رضيه، واطمأن إليه ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها فبعث رجلًا من مواليه يقال له طريف في أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس فسار في أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم، فأغار على الجزيرة فأصاب شيئًا ورجع سالمًا وذلك سنة إحدى وتسعين. ثم دعا موسى مولى له يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين، جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا قليل، فدخل في تلك السفن الأربع في سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن الأربع تختلف بالرجال والخيل وضمهم إلى جبل على شط البحر منيع فنزله وسمي به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافى جميع أصحابه.

ولما بلغت ملك الأندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف على الأندلس جمع جموعه قيل مائة ألف أو شبه ذلك فبعث موسى على سفن كثيرة، كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنى عشر ألفًا ومعهم يليان في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار، فالتقى رذريق صاحب طليطلة وطارق

بن زياد بموضع يقال له البحيرة فانهزم رذريق ثم مضى طارق إلى مضيق الجزيرة فمدينة استجة، وحارب فلّ العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عينًا من مدينة استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق، وفرق جيشه فأرسل فرقة إلى قرطبة، وأخرى إلى رية، وثالثة إلى غرناطة، وسار هو في عظم الناس يريد طليطلة. ففتحت كلها وكذلك مدينة تدمير، وأسر أحد ملوك الأندلس ومنهم من اعتقد على نفسه أمانًا. ومنهم من هرب إلى جليقية في الشمال. ثم سار طارق حتى بلغ طليطلة، وخلى بها رجالًا من أصحابه، فسلك إلى وادي الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق.

وفي سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير في ثمانية عشر ألفًا من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر وقد بلغه ما صنعه طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام الخليفة من بني أمية. فلم يلبث أن فتح من المدن ما لم يفتحه طارق مولاه فافتتح مدينة شذونة وقرمونة وأشبيلية وحاصر هذه أشهرًا فهرب أهلها إلى مدينة باجة فمضى موسى إلى مدينة ماردة وقاتلهم عليها أشهرًا فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها له ثم افتتح سرقسطة ومدائنها.

ذكروا أن المسلمين انتهوا إلى مدينة لوطون قاعدة الإفرنج. ولم يبق لأهل الإسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك إلا جبال قرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية. فأما الصخرة فلم يبق فيها مع ملك جليقية إلا ثلثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع والحصار فلما لم يبق منهم إلا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزالوا يزدادون حتى كانوا سبب إخراج المسلمين من جليقية وهي فشتيلية.

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الأندلس ولا شك أن قرب سواحلها من شواطئ أفريقية قد ساعد العرب كثيرًا على هذا الفتح فإن المجاز أو الزقاق كما كان يسميه العرب بين البرين بر العدوة [1] وبر الأندلس قريب جدًا يسهل معه نقل الذخائر والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق في موضع يعرف بجزيرة طريف من بر الأندلس يقابل قصر مصمودة بإزاء سلافي الغرب الأقصى وعرضه اثنا عشر ميلًا ومن الجزيرة الخضراء في الأندلس إلى مدينة سبتة ثمانية عشر ميلًا. والباخرة تقطع المسافة اليوم من الجزيرة الخضراء أو جبل طارق إلى طنجة فرضة الغرب الأقصى في نحو ثلاث ساعات.

وأنت ترى أن معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا استصفوا الأندلس في مدة وجيزة، وذلك لأن الاختلاط القديم المستحكم للجوار بين أهل الأندلس وبين أهل شمالي أفريقية وتغلب الأندلسيين أحيانًا على بلاد البربر أي الغرب الأقصى والأوسط. قد هيأ لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من العرب أن يعرفوا معالم الأندلس ومجاهلها، ويقفوا على مواطن الضعف من حكوماتها.

فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها على أشده والبلاد قد جاعت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة ثمان وثمانين إلى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر. وإذا صح أن الملك الأعظم في طليطلة

---

(١) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الأندلس من شمالي أفريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الأقصى والأوسط والأدنى أي مراكش والجزائر وتونس. وقال صاحب التاج وبر العدوة بالأندلس وإليه نسب شهاب الدين بن إدريس العدوي عن قاسم بن أصبغ قيده الرشاطي. ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الأندلس ليست مشهورة والمشهورة أن العدوة كما قلنا وأيده علماء الجغرافيا من العرب.

جيش على العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فإن جيش موسى بن نصير البالغ اثني عشر ألفًا قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من الاضطلاع بأمور الحرب هذا وأهل البلاد كانوا في الجملة يريدون الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فإنهم كانوا قبل بضع سنين قد ذاقوا الأمرين من حكوماتهم ومواطنيهم المسيحيين فلما جاء العرب الفاتحون كانوا أدلاءهم وأكبر رد لهم لعلمهم بأنه ينفس خناقهم بالفاتحين. وكان المسلمون كلما دخلوا بلدًا جعلوا نصف حاميته من اليهود والنصف الآخر منهم. ثقة في أبناء إسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم في الأندلس.

تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الأموية في الشرق وتعاقب عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢هـ وخطب باسم خلفائهم على منابرها ثم خطب مدة قليلة للعباسين [1] بعد سقوط دولة الأمويين بالمشرق حتى إذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هاربًا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالي آل مروان وبما له من العصبية في قبائل زناتة أخواله. وكانت والدته منهم حتى استولى على الأندلس، وبذل أهلها له الطاعة. فأصلح

---

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية لنفسه عند استغلاظ أمره واستيلائه على دار الإمارة قرطبة ويقال إنه أقام أشهرًا دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور منقيلًا في ذلك يوسف الفهري الوالي قبله إلى أن أفرد نفسه بالدعاء. ويقال إن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم أشار عليه بتلك عند خلوصه إليه فقبله إلا أنه لم يعد اسم الإمارة وسلك الأمراء من ولده سبته في ذلك إلى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذي تسمى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ودعي بأمير المؤمنين لما استفحل أمره واستبان له ضعف ولد العباس وانتشار سلطانهم بالمشرق وذلك في آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن أحمد المعتضد منهم ذكر ذلك أبو مروان ابن حيان مؤرخ الأندلس.

من شأنها ورفع وأبناؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هناك وأجمعت القلوب على حبهم وفل المنتقضون على ملكهم المتوثبون على سلطانهم، ولقد أنصف المنصور العباسي عند ما لقب عبد الرحمن الأموي بصقر قريش لأنه «عبر البحر وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا مفردًا، فمصر الأمصار وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام سلطانًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته».

انقرض ملك بني مروان من الأندلس سنة ٤٠٧هـ على رأس مائتي سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يومًا بعد أن جمعوا الشمل، ورأبوا الصدع. وأحيوا المعالم ونشروا العدل، وخدموا الحضارة. وكانت أيامهم أعراسًا وأفراحًا، فتفرق الملك بأيدي ملوك الطوائف فكان «كل ملك لما بيده فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم. وركبوا ظهور غرورهم، وتنافسوا في انتحال الألقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة» إلى أن قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتوني صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه علي بن يوسف سالف نضارتها، ودعا للخلافة العباسية على منابر الأندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الأندلس والمغرب إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة في بلاد السوس.

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التي جاءت بها دولة المرابطين لشد أزر المسلمين في الأندلس. كما عادت إليهم بعض القوة على عهد الموحدين، وكان هؤلاء لا يتوقفون عن نجدة إخوانهم في الأندلس، حتى إن الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها: أيها الناس أوصيكم بتقوى الله «وأوصيكم بالأيتام واليتيمة» أراد بالأيتام أهل جزيرة الأندلس وباليتيمة بلاد الأندلس، إلا أن أحوال الجزيرة اختلت في أواخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف

فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم. وميلهم إلى الدعة، وإيثارهم الراحة، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيزة، وقلوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدو. واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى، بعد انقطاع دولة بني أمية فاستدعى عقلاء الجزيرة بني مرين من بر العدوة فجاءهم أميرها سنة ٦٥٨ في جيش ضخم فملك بالأندلس ثلاثة وخمسين مسورًا ما بين مدن وحصون وهو أول من ملك العدوتين من بني مرين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه إلى الأندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الأندلس وأكثر حصونها مثل قرطبة وأشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغيرها ولم تنتشر للإسلام راية منذ وقعة العقاب [(١)] سنة ٦٠٩ إلى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين العرب وأعدائهم في القرن الخامس والسادس والسابع وكثيرًا ما يؤدي ملوك العرب الجزية للإفرنج بعد أن كان هؤلاء في القرن الأول والثاني والثالث والرابع يؤدون إلى العرب الجزية. ولما أغلظ ابن تاشفين لا لفونس الكلام في المكاتبة قال هذا: «بمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة».

وبعد أن زال حكم الموحدين من أسبانيا دخلت في حكم محمد بن يوسف بن هود من بطليوس إلى مرسية وقرطبة وأشبيلية سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر من أسرة بني

---

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هي المعروفة عند الإفرنج باسم لاس نافاس دي تولوزا Las Navas de Tolosa وهي قرية من عمل ولاية بيان اشتهرت بانتصار ملوك أرغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢م - ٦٠٩هـ وقد ضربوا العرب لم يتمكنوا بعدها من التوغل في بلاد أسبانيا.

نصر فاستولى على الأندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه وفي أعقابه نحو قرنين ونصفًا كان الضعف رائد دولتهم أولًا حتى لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك أسبانيا سنة ٦٦٥ على أن أعطاه نحو أربعين مسورًا من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد الرندي يرثى الأندلس ويستصرخ أهل العدوة من بني مرين قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

دهي الجزيرة خطب لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الإسلام فامتحنت ... حتى خلت منه أوطان وبلدان

فسل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس يستصرخون الموحدين من أهل العدوة فينجدونهم حتى رسخت أقدام الملوك من بني الأحمر أو بني نصر في بقعة صغيرة من البلاد جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو الأحمر على قوتهم في حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية الأسبان على إخراجهم من شبه جزيرة أسبانيا باتفاق إيزبيلا الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك أرغن وقشتالة ونافار تحت سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بني الأحمر من بلاد الأندلس سنة ٨٩٧هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك.

عمران الأندلس
٩٢

في أرض أندلس تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراء

وليس في غيرها بالعيش منتفع ... ولا تقوم بحق الأنس صهباء

وأن يعدل عن أرض يحض بها ... على الشهادة أزواج وأبناء
وأين يعدل عن أرض تحث بها ... على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لا يبهج إلا بصار رؤيتها ... وكل روض بها في الوشي صنعاء
إتارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرًا ... ولا انتشار لآلي الطل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها ... في ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه ... وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
قد ميزت من جهات الأرض حين ... بدت فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقًا أبحر خفقت ... وجدا بها أو تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب ... والطير يشدو وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذارى ما بها عوض ... فهي الرياض وكل الأرض صحراء

«ابن سفر المريني»

كانت شبه جزيرة أسبانيا في عمرانها قبل الفتح العربي منحطة عن عامة الممالك الأوربية. حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد بنيانًا، وأقام في المعمور عمرانًا. ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير أمر، فلما جاء العرب الفاتحون في العقد الأخير من المئة الأولى. كان عهدهم الأول عهد الفتوح على نحو ما كان عهدهم في الشام، قلما التفتوا فيه إلى تجويد البناء حتى إذا ورد على الأندلس من الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الأموي سنة ١٣٨هـ نقل مع جماعته أسلوب أمته في العمران، وكان سبقه إليها جمهور من الشاميين، نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معايشهم، فاعتمدوا في بناء قصورهم ودورهم على

الهندسة الدمشقية في الغالب. وجعلوا في الدور فناء أوصحنًا في وسطه بركة ماء وعلى جانبيها الأزهار والأشجار، وتقوم بعض طيوف الطبقة الثانية من البناء على عمد من الرخام وغيره، والدور طبقتان فقط طبقة سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل إلى الدار من دهليز. رسم خطط هذه الدور بادئ بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم في الشام.

يقول بعضهم إن العرب لما وصلوا أسبانيا لم يكن لهم هندسة مخصوصة فقل فيهم كالأسبانيين الإبداع والإيجاد ولكنهم تفننوا في النقش. وأقدم مصانعهم مسجد قرطبة، أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٥م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت في المساجد والبيع والقصور والحمامات والأبراج والأبواب الحصينة. ومن أغرب المباني مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد أشبيلية وكثير من الأرتجة والأبواب. ولما استولى الأسبان على أشبيلية جعل ابن الأحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء وظهرت بدائعه، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التي تفتقت أكمامها بأيدي العرب. وظل صناع العرب في أسبانيا قرونًا بعد ذهاب دولتهم يعملون في المصانع الأسبانية ويدخلون في هندستها بعض أساليبهم فأثروا بها تأثيرًا عظيمًا في المعاهد المبنية على الأسلوب الغوطي والإيطالي (الرنيسانس).

ولقد كان لملوك الأندلس وأمرائها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة، غرام باستكمال فخامة الملك. وتشييد القصور. وجلب المياه وبناء الأرصفة، وإقامة القلاع والحصون. بدأ بذلك عبد الرحمن الأول وجرى آل بيته وعظماء مملكته، على قدمه في هذا الشأن. ومنهم عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذي كان «أول من جرى على سنن

الخلفاء في الزينة والشكل. وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور. وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف، وعمل عليه السقائف. وبنى المساجد الجوامع بالأندلس. وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطرز، واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة، وفخم ملكه. وفي أيامه دخل الأندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء. ومنهم عبد الرحمن بن محمد الذي قال فيه صاحب العقد: «إن الملوك لم تزل تبني على أقدارها ويقضي عليها بآثارها وأنه بنى في المدة القليلة. ما لم تبن الخلفاء في المدة الطويلة، نعم لم يبق في القصر الذي فيه مصانع أجداده. ومعالم أوليته، بنية إلا وله فيها أثر محدث، إما تزييد أو تجديد».

كانت البلاد نسقًا واحدًا في العمران حتى كان للقرى أيضًا نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا إنه كان على الوادي الكبير فقط أربعة عشر ألف قرية فكنت على رواية ابن سعيد إذا سافرت من مدينة إلى مدينة، لا تكاد تنقطع من العمارة، ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحاري فيها معدومة، أي في القسم الذي تأصل فيه حكم العرب. ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها بل هي طراز من مناظر قد أتقنت بالبياض والزخرفة تخطف بالأبصار عند وقوع شعاع الشمس عليها.

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجد مكنون

قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان، ولما ابتنى عبد الرحمن بن محمد في غربي قرطبة مدينة الزهراء خط فيها الأسواق وابتنى الحمامات والخانات، والقصور والمتنزهات، واجتلب إلى ذلك بناء العامة، وأمر مناديه بالنداء، إلا من أراد أن يبني دارًا أو يتخذ مسكنًا بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس إلى العمارة

فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء والمسافة أربعة أميال.

كان بناء الأندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعًا منه الخمرى والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السواري والعمد من مقالعهم على الأغلب. وقيل إن سواري جامع قرطبة جلبت من البيع القديمة من جنوبي فرنسا وإيطاليا ومن أفريقية والأستانة وسواء قطعت من مقالع الأندلس. أو جلبت من القاصية، فإن في ذلك فضلًا كبيرًا للعرب. يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة، وقدرتهم على حمل هذه الأثقال في البر والبحر. مع قلة الآلات الرافعة، وقصور علم الحيل عمّا هو عليه في عصرنا.

قال أحد الباحثين من الفرنجة: في أسبانيا ميدان لدرس الصناعة العربية المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادئ بدئ باديًا عليها إلى أن ظهرت في مظهرها هذا على غاية من الغرابة والظرف. وقال بعضهم إن الهندسة العربية قد أفرغت جهدها في قصور الحمراء، وأتت ما وسعتها الإجادة والظرف بأمثلة، تأخذ بمجامع القلوب في العمران. ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب والجص في البناء، وهما مما تقل متانته، لأتت منها آثار خالدة أكثر مما أتت، ولكن مجموعها مدهش غريب يمجد خيمة العرب الرحل في البادية. ومن أغرب ما اصطنعوه عمل المقرنص في القباب مؤلفًا من عدة قباب صغرى متناسقة، بدون أن ترى اللحمة بينها، والنقش فيها قليل إلا ما كان من جمل نقشت بالحروف الكوفية أو العربية المشبكة الأندلسية.

قلنا ومعظم الآثار التي بناها الأسبان بعد سقوط آخر دولة الأندلس كانت بأيدي صناع من العرب. أبقوا عليهم لقيام مصانعهم. وذلك لأن

الأسبان كانوا متأخرين في الهندسة والصنائع النفيسة، وأهم ما يتنافس فيه الأسبان إلى اليوم القيشاني فإنك تراه في كل بيت وكنيسة، وحائط ونزل ومدرسة ومتحف، وهو أنواع منه ما يجعل على الأرض، ومنه ما يجعل على طول قامة الإنسان في الجدران المختلفة، وللآجر عندهم شأن عظيم في البناء. وقد يدم قرونًا كما شاهدنا ذلك في خرائب الفسطاط بمصر وأكثره من بناء القرن الأول للهجرة.

يصعب تعداد المصانع التي شاهدها العرب في أوقات مختلفة. في الأصقاع التي نزلوها، كما يصعب إعطاء حكم تام على معالمهم، لأن كثيرًا من بنيان الأندلس عور بتداول الأيام. فصح في مدنها ودساكرها قول أحد الأندلسيين في بلنسية وقد عاث العدو فيها:

عانت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تفاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الأندلس

٩٣

كان الجيش الذي فتح الأندلس بدائ بدء مؤلفًا من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما إليهما. نزل كل فريق منهم في بقعة فأعمرها وأقطعهم القواد ما رحل عنه أهله من المزارع والمداشر. وقد فرق الحسام بن ضرار الذي ولي إمارة الأندلس في سنة

١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد، وأبعدهم عن دار الإمارة قرطبة، إذ كانت لا تحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أي السابقين إلى الأندلس. في سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ أنزلهم على شبه منازلهم في كور شامهم، وتوسع لهم في البلاد، فأنزل في كورتي اكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول، وأنزل باقيهم في كورة تدمير وأنزل في كورتي لبلة وأشبيلية جند حمص مع الأول أيضًا. وأنزل في كورتي شذونة والجزيرة جند فلسطين وأنزل في كورة رية جند الأردن. وأنزل في كورة البيرة جند دمشق، وأنزل في كورة حيان جند قنسرين أي حلب، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة. وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء منها فلمّا رأوا بلادًا شبه بلادهم خصبًا وتوسعة، سكنوا واغتبطوا وتمولوا.

قال ابن الخطيب: أنزلوا القبائل الشامية في كور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا. وكبروا وتمولوا، إلا من كان نزل منهم لأول قدومه موضعًا رخيًّا، فإنه لم يرتحل وسكن به مع البلديين. وحكى غيره أنه نزل في البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافنا: قبائل العرب. ونزل رية جند الأردن وهم يمن كلهم من سائر البطون. ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار نفريسير. ونزل مدينة الجزيرة البربر وأخلاط من العرب قليل. ونزل في جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معد واليمن، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية.

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا في بلاد الأندلس على ما رأيت كان فيها أخلاط من الشعوب من رومان وغوط ومهاجرة من أقطار

شتى فامتزجوا كلهم في بودقة واحدة. قال هوار: ولما أصبح عبد الرحمن ملكًا على جميع أسبانيا الإسلامية (٣٢٠ - ٩٣٢) استند لقتال طبقة الأشراف من نسل العرب المهاجرين على الأسبانيين الذين دانوا بالإسلام وعلى كثير من الإسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك إلى جعل الكل أمة واحدة عرفت في الشرق باسم الأندلس.

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين «في غمار من الروم يعالجون فلاحة الأرض وعمران القرى يرأسهم أشياخ من أهل دينهم. أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم» فاحتفظ العرب بسكان البلاد الأصليين، وهيأوا السبل لدخول المهاجرين إليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم. فأسلم كثير من أهل البلاد، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب. وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لأول الأمر في مناحيهم وعاداتهم، شأن المغلوب مع الغالب، قال فوليه: بعد أن حكم العرب أسبانيا قرونًا دخلتها كمية وافرة من الدم الأفريقي فكان ذلك من موجبات ارتقاء العقل في أسبانيا. ومزج الدم الأسباني بالدم العربي هو ولا شك من جملة الأسباب التي تحمل بالأسبان على اختلاف أصقاعهم إلى الطموح إلى العظائم ومراتب الشرف اهـ.

ولما دب الضعف في الأندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم من الأفرنج. روى المقري: أن بني الأحمر كثيرًا ما يتزيا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم. وذكروا ابن خلدون أوائل المئة التاسعة أن أهل الأندلس يتشبهون بأمم الجلالقة «في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، فبعد أن كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء في أواخر أيامهم يتشبهون بهم،

شأننا اليوم مع أمم الغرب نقلدهم في أزيائهم ولباسهم وعاداتهم، ونفسح المجال لكل ما ينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية، سنة الله في الضعيف مع القوي».

امتزج المستعربة Lesmozarlies أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية في الأندلس، بالقادمين عليها فلقي المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم إلا في الأدوار التي كانوا يكيدون فيها للمسلمين، ويخرجون عن الذمة فإن الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين إلى بر العدوة «عددًا جمًّا، أنكرتهم الأهواء، وأكلتهم الطرق، وتفرقوا شذر مذر» على أنه لم يقع شيء من هذا القبيل إلا في النادر لأن العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطي الجزية ويتعلم العربية فتخف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح.

فمن ثم ساغ لنا أن نقول إن أهل الأندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الأنفس: أهل الأندلس عرب في الأنساب .. والعزة والأنفة وعلو الهمم. وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وأباء الضيم، وقلة احتمال الذل. والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية هنديون في أفراط عنايتهم بالعلومز وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم. بغداديون في نظافتهم وظرفهم. ورقة أخلافهم وبناهتهم وذكائهم. وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم. ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم. ونفوذ خواطرهم. يونانيون في استنباطهم للمياه. ومعاناتهم لضروب الغراسات. واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر. وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب. في تجويد الأعمال. ومقاساة النصب في تحسين

الصنائع. وأحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب. وقال ابن حزم: إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها. والنظر في مهماتها. وقال ابن بسام: في جزيرة الأندلس أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكل إقليم. على عرق كريم.

تسامح العرب
٩٤

العرب من أكثر الأمم تسامحًا مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان، ولولا تسامحهم أيام عزهم بالإسلام، لم تبق بقية من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها، وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضي بالرفق والرحمة، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصًا إذا كانوا أصحاب دين سماوي. ولذلك اكتفوا من أهل الأندلس بجزية [1] وتركوا لهم حريتهم. فأعجب بهم مخالفوهم، لأنهم

---

(١) هذا كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش (غيدوس) الذي سميت باسمه تدمير أو كان ملكها ونسخة هذا الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش أنه نزل على الصلح وأن له عبد الله ودمته ودمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادي الذي اشترطا عليه وأنه صالح على سبع مدائن أو ريواله وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرة وايه ولورقة وأنه لا يؤوي لنا آنفًا ولا يؤوي لنا عدوًا ولا يخيف لنا آمنًا، ولا يكتم خبر عدو علمه، وإن عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير مخمر

حملوا إليهم سلامًا، وكفوهم مؤونة فتن، كانت عليهم غرامًا، تأتي على الأنفس والنفائس. وتدك معالم الأمن والأمان.

كره العرب التعصب ولا سيما في الأندلس وعمدوا إلى كل تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الأسبانيين والبورتغاليين حتى إنهم كانوا (سيديليو) إذ شجر خلاف بين مسلم ومسيحي من الجند، يعطي الحق غالبًا للمسيحي. وجعلوا أيام الآحاد أيام عطلة، بدل الجمع. ورخصوا أن يتعبد كل إنسان على الصورة التي يراها. فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب، حتى لم يكد يشعر هذا إلا في النادر وبإغراء رجال الدين، أنه مغلوب على أمره، فاقد لاستقلاله، واعتمد الأمويون في أكثر أيامهم على جيش من الصقالبة أهل صقلية يشترونهم أو يأخذونهم أسرى كما كان يفعل العثمانيون بجيش الإنكشارية وصارت لأفراد من الصقالبة حظوة عند الملوك والأمة حتى إن حبيبًا الصقلبي من فتيان الأموية بقرطبة ألف كتابًا تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة). وربما كانت منزلة الصقالبة بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب في بغداد ولا من ينكر عليهم. ومن أثر التسامح. شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب. بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون، لأن هؤلاء زهدوا في اللغة اللاتينية، ونشأ لهم غرام بالعربية. فأخذوا يتقنون آدابها، ويتغنون بأشعارها، ويكتبون فيها كأبنائها، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها.

وهو أشبه بالصليبة في بلاد الشام) وأربعة أقساط خل وقسطي عسل وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبي عبيدة القرشي وحبيب بن أبي عبيدة ... ابن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة.

وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين. دع من كانوا في البلاد التي فتحتها العرب من المسيحيين، يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الأندلسي أو أحد رجاله يستخدمون في الإدارات، وتجرى على سادات الأسبان أحكام الإسلام فيختلطون بأشراف العرب، ومن ظل محتفظًا منهم بدينه نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين، ويقتدي بأزيائهم وألبستهم وعاداتهم، في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم. ومن المسيحيين والإسرائيليين من وزروا في الأندلس لملوك المسلمين وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أو جده أسبانيًا فأسلم[1] والمسلمون لا يضنون بشيء على أهل ذمتهم يجرون عليهم الرواتب والأرزاق، كما تجرى على بطانتهم وأهل نحلتهم ويأمنونهم على مصالحهم، وينتدبونهم في سفاراتهم. ويطلعونهم على أسرارهم، ويأمنون الأطباء منهم على أرواحهم وحرمهم.

وشاع زواج العرب بالأسبانيات والبورتقاليات اللائي كن بجمالهن. أجمل صلة لتمازج الفاتحين بخصومهم، والتحام القرابات بينهم، بل إن ملوك المسيحيين على عهد توزع الأندلس بين ملوك الطوائف. أمسوا يتزوجون من بنات الأمراء المسلمين، فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة أمير أشبيلية. وعقد مثل هذا الزواج كثيرًا. وكان عدد المتزوجات من الأسبانيات والبورتقاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الأسبانيين والبورتقاليين آخر أيام الأندلس كثيرًا جدًّا حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب.

---

(١) راجع نبذة في امتزاج العرب بالعجم في أسبانيا والاستشهاد على ذلك بالأسماء والألقاب في كتاب (السفر إلى المؤتمر).

ومن العرب من آثر زي الأسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الأندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون بهم في الأكل والحديث وكثير من الأحوال والهيئات.

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الأسبان والبورتقاليين. أما معاملتهم للإسرائليين فكانت أيضًا مما يدهش له. فأصبح لهؤلاء في الأندلس منزلة سامية في العلم والصنائع والتجارة، وكانت غرناطة في القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها.

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالأسبانية والبورتقالية والعربية على السواء وأخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو ألفي صك من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الأصليين باللغة العربية، والعربية كانت لسان القائمين بالدولة الإسلامية. هجر ما عداها في جميع الممالك. فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. هجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك التي خفقت عليها رايات الفاتحين. وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم. وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها. وغريبة عنها، قاله ابن خلدون:

ولذا أتت ثلاثة قرون على بقايا الأسبانيين المتراجعين إلى الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما إليها من الأصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التي اعتصمت في أقصى الشمال أن تصانع وتعاهد وتتعلم من أعدائها، وهم أرقى منها نظامًا ومدنية

وحكومات أوربا الكبرى لذاك العهد تطلب رضاها وتتعلم منها وتتلطف معها. حتى بلغ الأمر بعبد الرحمن الثالث الذي أشبه ملكًا من ملوك هذا العصر لا ينقاد لأوهام العنصر والدين، ولا يتوقف في أمر فيه مصلحته، وتسير سياسته بحسب الأحوال - إن وجد له حلفاء من زعيم البربر إلى ملك إيطاليا إلى إمبراطور القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والألمان تتوارد على قرطبة. وقد وضع هذا الخليفة حدًّا للحروب بين العرب والأسبانيين والبربر في الأندلس، وحصن حدود مملكته من ملوك لبون وقشتالة ونافار واستولى بأسطوله على غربي البحر المتوسط. وبسط سلطانه على أفريقية الشمالية فكان ميسين [1] العلوم والفنون وحامي التجارة والصنائع وقد أصبحت أسبانيا العربية على عهده وعهد أخلافه في القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن إدارة قالته دائرة المعارف الإسلامية.

لا جرم أن خلفاء الأندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذي يغبطون عليه، ويجب التنويه به. لأنه لم يسبق له نظير في عصورهم عند الأمم الأخرى، فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحرارًا وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم، إن كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة إلى دينهم، وكان عبد الرحمن الثاني عزم أن يجمع مجمعًا مقدسًا من النصارى برئاسة رئيس أساقفة أشبيلية لقمع عادية التعصب الأسباني إذ أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الإسلام جهارًا حتى يقتلوا في سبيل دعوتهم، وتكتب

---

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الروماني استعمل نفوذ مولاه لتنشيط الآداب والعلوم فأغدق نسمه على فرجيل وهو راس وبرونروس وأصبحت كلمة ميسين مرادفة لحامي الآداب والعلوم والفنون ومات في السنة الثامنة قبل المسيح.

لهم الشهادة بزعمهم. ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨.

ولطالما أرخى خلفاء الأندلس العنان لخطبائهم ووعاظهم ومؤرخيهم وكتابهم يوسعون المجال لأقلامهم وألسنتهم، حتى في أعمال الخلفاء، ولا يجدون منهم إلا لطفًا وعطفًا، وذلك أن الناصر كان كلفا بعمارة الأرض. وإقامة معالمها. وتكثير مياهها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه، وعزة سلطانه. وعلو همته، فإنه لما ابتنى الزهراء. واستفرغ وسعه في تنجيدها وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، انهمك في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع، فقرعه القاضي منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة بخطبة على المنبر أمام جمهور المؤمنين ابتدأها بقوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم أفضى إلى ذكر المشيد. والاستغراق في زخرفته، والسرف في الاتفاق عليه. فجرى في ذلك طلقًا، وتلا فيه قوله تعالى: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب في ترويع الخليفة وتقريعه، ولم يحسن السياسة في وعظه. فاستشاط الخليفة غضبًا، وأقسم أن لا يصلي خلف الخطيب الجمعة أبدًا فقال له ابنه: وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره أبوه وانتهره وقال: أمثل منذر ابن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل في إرضاء نفس، ناكبة عن الرشد.

مثال آخر: شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين في الأندلس، فخنق ابن الملك وهمَّ بقتل المؤرخ، فلما شعر أبوه بذلك قال له إليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لأكونن أنا المطالب بدمه. تقتله ليعيرنا الناس بأننا نقتل مؤرخينا. حتى إذا مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم، فلما خرج ليلبس ثيابه، رأى فيها صرة تضم ألف دينار، ورقعة من الملك يقول فيها: إن الذي أوصل إليك هذه الدراهم وأنت لا تشعر، قادر أن يرسل إليك من يقتلك فكف غرب لسانك عنَّا وإذا عدت فأرخت ثانيًا لا تشنع علينا أعمالنا. قال دوزي إذا قيست حرية العرب بحرية الإفرنج تشبه هذه الاستبداد.

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب في الأندلس إلى المرابطين والموحدين وكانوا أفريقيين لا يخلون من شيء من التعصب وليس فيهم تسامح الأمويين العرب فتبدلت الحال بعض الشيء. وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التي أقاموها وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا أن قام الملوك من بني نصر في غرناطة، ورأبوا الصدع. وجبروا الكسر. وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم. زادت الرقعة الباقية ارتقاء، فتنتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم. إلى بلاد يرفرف عليها علمهم، ويزيد ملوكهم تسامحًا مع ذمتهم ومجاوريهم. وهمة في تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التي حصنوها بالعدل والإحسان.

العرب والأسبان
٩٥

قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس [١] بحروب دينية في القرن الخامس لتعذر على المسلمين فتح أسبانيا. ونحن نقول لو لم يفتح العرب الأندلس ويحمل إليهم عبد الرحمن الأموي مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قرونًا عن الظهور في ربوع أوربا [٢] وقد أجمع المنصفون أن العرب لو لم ينجلوا عن الأندلس لكانت حال أسبانيا اليوم أرقى مما هي بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقد رأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم. وأكلت نوابغه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الديني. أن تنشأ له نهضة كنهضة إيطاليا في القرن الخامس عشر تنتقل منها إلى أوربا بأسرها.

وإن المرء إذا نزل أسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما في القسم الجنوبي منها أنه في بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية. ويرى كثيرًا من السحنات أشبه بوجوه العرب منها بوجوه الأمم اللاتينية. وبعض عاداتهم وطبائعهم تتم عن روح عربية على سعي رجال الدين في نزعها من بينهم، منذ استعاد الأسبان أرض الأندلس أواخر المئة التاسعة. لا جرم أن أربعة

---

(١) كلوفيس (٤٦٥ - ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح صقع باريز واستخلصه من أيدي الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الأكيتين من الفيزيغوت وغلب الألمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من وحد بلاد غاليا (فرنسا) في دينها وسياستها.

(٢) من تاريخ الكنيسة تعريب هنري جسب قال موسهليم الجرماني: حق علينا أن نقول إن العرب ولاسيما عرب أسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة في الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في أوربا منذ القرن العاشر فصاعدًا.

قرون ونصفًا لم تكف لأن تنزع من القوم ما تأصل فيهم في ثمانية قرون وتمثلوه وتمثل بهم من مدنية العرب.

ذكر بعضهم أن في الأندلس أهم آثار أسبانيا. والأندلس من أسبانيا بمثابة إقليم البروفانس في جنوبي فرنسا وصقلية من إيطاليا. وقد جمعت الأندلس جميع المحاسن والغرائب المبعثرة في طول أسبانيا وعرضها؟ ولهجة الأندلس ماثلة إلى العربية كثيرًا والاحتفالات والأخلاق قد حفظت فيها الأساليب العربية.

نعم لا تزال تسمع في اللغة الأسبانية كثيرًا من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات. وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هي عربية لا محالة، ومن الأسماء ما يبدأ ببني ومنها ما يبدأ بوادي فدخلت مئات من الألفاظ في اللغة الأسبانية وتأصلت فيها كما دخلت البورتقالية والإيطالية والإفرنسية لغات الأمم اللاتينية، وهي ظاهرة كل الظهور في اللغة الأسبانية وأقل منها في اللغة البورتقالية وإلى اليوم تسمع بوادي الرامة ووادي الحجارة ووادي القتال ووادي البياضة ووادي الكبير وقلعة وقليعة والرملة وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل والأنبيق والساقية والمنارة والربض والمسجد والربع والشمسية والفندق والمحراب ومئات غيرها أفردها علماء اللغة منهم بالتأليف.

أخذ الأسبان عن العرب أشياء ظنوها بعد من مصطلحات أجدادهم وبنات أفكارهم، وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا يشعرون. حدثني الثقة أن أحد علماء المشرقيات من الأسبان وهو موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتابًا يثبت فيه بالأدلة التاريخية أن الموسيقى الكنائسية في القرن الثالث عشر كانت مقتبسة من الموسيقى العربية. ويخيل لمن يسمع

الموسيقى الأسبانية والغناء الأسباني ويرى الرقص الأسباني أنها عربية إلا قليلًا بحيث ساغ لنا أن يقول إذا كان الروسي شرقيًا «تأورب» واستغرب فالأسباني عربي شرقي «تأورب» واستغرب أيضًا.

ولا تزال إلى اليوم ترى كثيرًا من النابهين من الأسبانيين يدعون أن أصلهم عربي يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك من أمارات الشرف والتغني بذكرى القديم الجميل. وقد رأينا الأسبانيين في القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس بها للبحث عن ماضيهم أو ماضي أسبانيا الإسلامية وصرفوا في ذلك وقتًا ومالًا وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجمل حرص على الأخذ من المدنية العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم.

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان في الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقي والدؤوب المحمود وهو مما يقل الآن فينا بعد أن أورثنا الأسبانيين أخلاقنا وطباعنا وإليكم البيان: قال لي الأستاذ الأب آسين بلاسيوس مدرس العربية في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه: جمع أكثر هذه الخزانة أستاذي ريبرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزازات «الفيش» التي رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الأندلس وقد استنسخها البرنس ليوني كايتاني الإيطالي صاحب تاريخ الإسلام الكبير ليطبعها في جملة ما يطبع من آثار العرب. قال: لما كنت في بلدي وجئت مجريط لأعمل مع أستاذي أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضممت مجموعتي إلى مجموعته في هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزبًا أوصى لي بكتبه على أن أشتغل بها مدة حياتي وأفتح أبوابها لطلاب

الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى فيه الكفاءة للعمل بعدي أو أجعلها في إحدى دور الكتب العامة.

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور أوسما Osma ناظر مالية أسبانية سابقا وهي من الفسيفساء والقيشاني الأسباني والسلاح والرخام والسجاد والأدوات والأواني الفضية والزمردية والأواني الخزفية والبلورية والألبسة والنقوش والتصاوير والأعمال الخشبية والنقود العربية الأسبانية ذهبية وفضية ونحاسية من صنع عرب الأندلس وصنع أسبانيا المسيحية في القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن السادس عشر من الآثار النصرانية وقد بدأ بجمع هذه المجموعة عم السنيور أوسما والد زوجته وأحد أشراف أسبانيا منذ زهاء خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا المغاليَ بالآثار الإسلامية والنصرانية. ولما جاءتها الوفاة أوصت بالقسم الذي جمعته في حياتها والذي ورثته عن أبيها لزوجها السنيور أوسما على أن تدعي المجموعة كلها باسم لقب والدها فسميت مجموعة مجمع بلنسية للدون خوان.

وصحت عزيمة الوزير الأسباني Instituto de Valencia de Don أن يضيف إلى المجموعة ما جمعه في حياته ويجعله في دارين بناهما في أهم أحياء مجريط Jaun الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز الأندلسي والثانية على الطراز المسيحي في القرون الوسطى وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة في الدار التي تناسبها فأصبحت الداران متحفًا مرتبًا ترتيبًا علميًا راقيًا بمعرفة صاحبها الآن وإشارة من يختلف إلى داره من غلاة العاديات والآثار وحملة العلوم والفنون الذين يضمهم في ناديه مرة في الأسبوع يتفاوضون الصناعات والنفائس. وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخرًا مجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الأمناء منهم

الأستاذ آسين المشار إليه ووقف عليها مبلغًا من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاها خزانة كتبه البالغة ألفي مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون في أسبانيا وقد توخى في وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والأجانب على درس هذا الفرع من العلم في أسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الإنكليز ممن يصرفون مدة في مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الإنكليز طلبة جامعة إكسفورد لأنه درس فيها في صباه فأراد أن يعني عناية خاصة بمن يتخرجون فيها.

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام في أذهان خاصة الأسبان مثل هذه الأفكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لأمة غالبة ولعدت في أسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تربح ولايات الأندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التي يقصدها السياح من عامة أقطار الأرض.

العلم في الأندلس
٩٥

قال لنا الدكتور روزيه [١] رئيس جامعة لوزان في سويسرا سابقًا أنني طوفت بلاد الأندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب، فأعجبت بها كل الإعجاب، ومما شهدته السدود القائمة إلى اليوم في ولاية بلنسية، فإن أهل هذه الولاية من الأسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسي العرب

(١) من محاضرة «العرب في الأندلس» ألقيناها في النادي العربي بدمشق مساء ٢ حزيران ١٩١٩.

لهذه السدود، ولم يتيسر لمدنية القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم في القرون الوسطى، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذي دك كثيرًا من المعالم في أرض أندلس على نسف هذه السكور على وادي الأحمر وغيرها وإلا لهلك أهل ذاك الإقليم عطشًا. ومن الأسف إن مدنية هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها. فقبح من قضوا عليها، وأوصلوكم إلى ما أنتم عليه من الانحطاط.

جملة لا يزال صداها يتردد في أذننا منذ فاوهنا بها العالم السويسري من بضع سنين وقد ذكرنا بها عهد الأندلس وعهد عمرانه الزاهر. وارتقائه الباهر. ذكرنا بالأمس أمة عربية أوروبية تشبه الغربيين في تصوراتها وآدابها وعلومها، ولكنها شرقية عربية مسلمة بإقامة شعائر دينها وأخلاقها وعاداتها، وقلنا إننا معاشر العرب على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقييد علوم ديننا ولساننا وما إلى ذلك. لم نكن في العناية بالعلوم التي هي اليوم العلوم الحقيقية كالرياضيات والطبيعيات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون ذلك بكثير. وإلا لما قامت مصانع الأندلس على النظام الذي يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور، ولما أعجب الأستاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسية الباقية لعهدنا، بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون.

ولقد حدث الثقات أن الغربيين من المجاورين للأندلس كالفرنجة أي الفرنسيس والألمان وسكان بر رومية أي الطليان وكانوا أمثل الأفرنج مدنية لذاك العهد لم يكونوا إلا دون جيرانهم عرب الأندلس في العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا علماء الكيمياء والهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت المدنية في أوربا زمنًا طويلًا.

ولذلك كانت الأندلس في عهد العرب كعبة العلم يحج إليها أذكياء الطلاب من فرنسا وإيطاليا وغيرهما كما يحج اليوم طلاب العلم إلى كليات فرنسا وألمانيا وإنكلترا والبلجيك وسويسرا وهولاندة.

أخذ عشرات من الإفرنج العلوم عن عرب الأندلس وترجموها باللاتينية ومنها ما فقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط[1]. وأن العلوم التي تلقاها جربرت الذي أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثاني عن عرب الأندلس كانت موضوع إعجاب معاصرين حتى اتهموه بالسحر.

كانت الأندلس قبل أن تغلب بني أمية عليها سنة ٩٢هـ خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به، إلا إنه يوجد فيها طلسمات قديمة في مواضع مختلفة وقع الإجماع على أنها من عمل ملوك رومية إذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم. ولما استقر الأمر لبني أمية عني جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفي أيام الأمير الخامس من بني أمية وهو محمد بن عبد الرحمن أي في أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم أي غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهرون ظهورًا غير شائع إلى قريب وسط المائة الرابعة.

ذلك لأن رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس. ومن عادة من جهل شيئًا أن يعاديه. فتوهم بعضهم أن هذه العلوم الدنيوية مدرجة إلى الزهد في العلوم الأخروية. فكانوا يشددون التكبر على من يتعاطونها. ولكن أكثر ملوك بني أمية ومن بعدها من ملوك الأندلس، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم في النيل ممن يريدون في الإيقاع بهم. لمخالفتهم لهم في العلوم التي يمتون بها.

---

(١) راجع ما كتبه هوار في تاريخ العرب في أسماء نقله الأفرنج في العلوم عند العرب وما كتبه مالينو في كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع في رومية.

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة مسلم البلنسي المعروف بصاحب القبلة كان عالمًا بحركات الكواكب وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة كان بصيرًا بحساب النجوم والطب وغير ذلك، متصرفًا في العلوم. متفننًا في ضروب المعارف، وكان معتزلي المذهب. توفى سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن إسماعيل المعروف بالحكيم وكان عالمًا بالحساب والمنطق نحويًا لغويًا توفى سنة ٣٣١.

انتدب الأمير الحكم في أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة الرابعة إلى العناية بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار الشرق عيون التواليف الجليلة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاهي ماجمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة. فكثر تحرك الناس في أيامه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم.

وقام بعده ابنه هشام فعمد إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج ما فيها من ضروب التأليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم النطق وعلم النحو وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر بإحراق ماعدا ذلك وإفسادها فأحرق بعضها. وطرح بعضها في آبار القصر. وهيل عليها التراب والحجارة. وغيرت بضروب من التغايير. فعلى ذلك تحببًا إلى عوام الأندلس وتقبيحًا لمذهب الخليفة الحكم عندهم. إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم، مذمومة بالسنة رؤسائهم. وكان كل من قرأها متهمًا عندهم بالخروج عن الملة. ومظنونًا به الإلحاد في الشريعة. فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك. واضمحلت نفوسهم. وتستروا بما كان عندهم

من تلك العلوم. ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس.

قال هذا القاضي صاعد وتؤيده رواية ابن سعيد في المغرب قال: وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء. إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظًا عظيمًا عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة. فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه. فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقربًا لقلوب العامة، وكثيرًا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري.

قال ابن حزم: وأما كتب الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جحدها لما رأى من انحراف منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن منصور المذكور على هذا العلم بأشبيلية وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، وكان مطرف الإشبيلي قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه إلى الزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن، فكان لا يظهر شيئًا مما يصنف.

وقال أيضًا من رسالة أهل قرطبة: إنهم من التمكن في علوم القراآت والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء. واسع العطن، متنائي الأقطار فسيح المجال. وقد ذكر ابن حزم في رسالته هذه من نبغ في

الأندلس من المؤلفين في علوم الدين والنسب والتاريخ والطب وغد بعض كتبهم قال: وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونًا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على تمكنه من هذه الصناعة وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة، وتامة الحسن، فائقة الجودة عظيمة المنفعة. وقال لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر.

وقال آخر: وأما كتب علم الموسيقى فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي من ذلك فيه كفاية. وهو في الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق وإليه تنتسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد، وليحيى الخدج كتاب الأغاني الأندلسية على منزع الأغاني لأبي الفرج، وهو ممن أدرك المئة السابعة قال صاعد ولما افترق الملك في صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة من امتحان الناس، واضطرت الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع. فبيع ذلك بأوكس ثمن، وأتفه قيمة، انتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس، ووجد في خلالها أعلاق من العلوم القديمة، كانت أفلتت من أيدي الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر وأظهر أيضًا كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك في طلب العلم القديم شيئا فشيئًا، ثم أبيحت تلك العلوم إلى أن زهد الملوك فيها وفي غيرها فقل طلاب العلم وصاروا أفرادًا بالأندلس.

فمن أعلام هذه العلوم علي ذاك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضي كان مشهورًا بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة بعلم

الهندسة. وعبد الله بن محمد المعروف بالسري كان عالمًا بالعدد والهندسة وكان ينسب إليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدمًا في العدد والهندسة والنجوم وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك في أيام الحكم. وعبد الرحمن بن إسماعيل ابن زيد المعروف بالإقليدي كان متقدمًا في علم الهندسة معتنيًا بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبي (٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد بن محمد العدوي كان معلمًا بعلم العدد والهندسة نافذًا فيها وأبو عثمان سعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالخمار السرقسطي كان محققًا إمامًا في علم النحو واللغة، وله تآليف في الموسيقى ورسائل في الفلسفة. وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرجيط كان إمام الرياضيين في الأندلس في وقته، وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وله كتاب حسن في تمام علم العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني، وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي. وصرف تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة توفى في سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة، ولم ينجب عالم بالأندلس مثلهم، فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهراوي والكرماني وابن خلدون.

فأما ابن السمح القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس فكان متحققًا بعلم العدد والهندسة متقدمًا في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له مع ذلك عناية بالطب وله تواليف حسنة في الهندسة وعمل الاسطرلاب والأزياج، ومنها زيجه الذي ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفى سنة ٤٢٦ وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان متحققًا أيضًا بعلم العدد والهندسة

والنجوم، وقعد في قرطبة لتعليم ذلك، وكان له أخ يسمى محمدًا مشهور بعمل الاسطرلاب، لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعًا لها منه.

وأما الزهراوي فهو أبو الحسن علي بن سليمان كان عالمًا بالعدد والهندسة مغنيًا بعلم الطب. وأما الكرماني فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين في علم العدد والهندسة، رحل إلى الشرق وانتهى إلى حران من بلاد الجزيرة وعني هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع إلى بلاد الأندلس وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا. ولم يدخلها أحد من أهل الأندلس قبله، ومحله من العلوم النظرية المحل الذي لا يجاري فيه، توفى بسرقسطة سنة ٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمي من أشراف أهل إشبيلية في علوم الفلسفة مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب، مشبهًا بالفلاسفة في إصلاح أخلاقه، وتعديل سيرته، وتقويم سياسته، توفي سنة ٤٤٩.

ومن مشاهير تلاميذ أبي القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ابن برغوث والواسطي وابن شهر والقرشي والأمطش المرواني وابن الغطار فأما ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث كان متحققًا بالعلوم الرياضية مختصًا منها بإيثار علم الأفلاك وهيئاتها وحركات الكواكب وإرصادها وكان له مع ذلك تحق بعلم النحو. ومعرفة القرآن والفقه والوثائق. وإشراف حسن على سائر العلوم. توفي سنة ٤٤٤ وأما الواسطي فهو أبو الأصبغ عيسى بن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد بقرطبة لتعليم ذلك. وله أيضًا بصر بجمل من علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وأما ابن شهز فهو أبو الحسن مختار بن شهر الرعيني كان بصيرًا بالهندسة في النجوم متقدمًا في اللغة والنحو والحديث والفقه شاعرًا متكلمًا ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ وأما ابن

العطار فهو محمد بن خيرة العطار فكان من تلاميذ ابن الصفار متقنًا لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها.

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمع أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى بن الناشئ وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار المنطبب ومن نظراء هذه الطبقة عبد الله بن أحمد السرقسطي كان نافذًا في علم العدد والهندسة والنجوم. وقعد لتعليم ذلك في بلده توفي سنة ٤٤٨ ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم الأشبيلي كان بصيرًا بعلوم البرهان واللسان والمساءلة متفننًا في ضروب المعارف صنعًا لطيف اليد توفي سنة ٤٢٠.

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث بن الليث وابن الجلاب وابن حي فأما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققًا بعلم العدد والهندسة معنيًا بعلم حركات الكواكب وإرصادها وكان مع هذا بصيرًا بالنجوم واللغة والفقه توفي سنة ٤٠٥ وأما ابن حي فهو الحسن بن محمد النجبي من أهل قرطبة كان بصيرًا بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على مذهب السند هند وخرج من الأندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم رحل إلى اليمن واتصل بأميرها المسيحي وكان ملكه إذ ذاك يشتمل على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز وتهامة ونجد واليمن حظي عنده وتوفي سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية بالمنطق والعلم الطبيعي.

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني المعروف بابن الوقشي من أهل طليطلة أحد المتفننين في العلوم المتوسعين في ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة والأحكام لعلم الفقه والأثر والكلام وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالأنساب والأخبار والسير مشرف على جمل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة أحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لذات القاضي أبي الوليد هشام بن أحمد بن هشام وأبي إسحاق إبراهيم بن لب التجيبي المعروف بالقويدس قعد للتعلم بذلك زمنًا وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ونفوذ في العربية توفي سنة ٤٥٤ ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طلمس الوزير كان كاتبًا كاملَ الصناعة يجمع إلى ذلك النبوغ في علوم كثيرة من الحساب والتنجيم والهندسة توفي سنة ٤٤٨.

وكان في القرن الخامس للهجرة أفراد من الأحداث في الأندلس مشتغلون بعلم الفلسفة ذوو أفهام صحيحة وهمم رفيعة فمنهم من سكان طليطلة وجهاتها أبو الحسن علي بن خلف بن أحمر وأبو مروان عبد الله بن خلف الاستجى وأبو جعفر أحمد بن يوسف التهلاكي وعيسى بن أحمد بن العالم وإبراهيم بن سعيد السهيلي الاصطرلابي ومن أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر أحمد بن جوشن. ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد.

وأبرع هؤلاء في الهندسة علي بن أحمر الصيدلاني وأبو جعفر أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقيال - والزرقيال نسبة لآلة سموها

الزرقلة وهي صحيفة لرصد الكواكب - فإنه أبصر أهل القرن الخامس بأرصاد الكواكب وهيئة الأفلاك وحساب حركاتها وأعلمهم بعلم الأزياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد بن يوسف يعرف بابن كماد (حماد؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجامة وبني أزياجه ومنها القبس والمستنبط على أرصاد أبي إسحاق الطيطلي المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأمير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء في العلم الرياضي منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعي والعلم الإلهي.

وكان عبد الرحمن بن إسماعيل بن بدر المعروف بالإقليدس الأندلسي متقدمًا في علم الهندسة معتنيًا بصناعة المنطق. وموسى بن ميمون الإسرائيلي الأندلسي قرأ علم الأوائل وأحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة عالمًا بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره في مصره وله تصانيف في الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين قال القفطي إلا أنه يتمسك بالسياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعية استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته في سنة ٥٣٣.

وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلسفة أبو محمد بن حزم القرشي وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزر لابنه المظفر وكان ابنه أبو محمد وزيرًا أيضًا لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعني بعلم المنطق. ومنهم أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى وكان أبوه أيضًا أعمى عني بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفًا كبيرًا ذهب فيه إلى مذهب متّى بن يونس وهو بعد هذا أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله في اللغة تواليف جليلة منها

المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح إصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨.

ومن أعاجيب النوابغ الأندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحناط الكفيف الذي قال فيه ابن حيان إنه كان أوسع الناس علمًا بعلوم الجاهلية والإسلام بصيرًا بالآثار العلوية عالمًا بالأفلاك والهيئة حاذقًا بالطب والفلسفة، ماهرًا في العربية واللغة والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية. ولد أعشى ضعيف البصر. متوقد الخاطر، فقرأ كثيرًا في حال عشاه، ثم طفئ نور عينيه بالكلية فازداد براعة ونظر في الطب بعد ذلك فأنجح علاجًا وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي البصير ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الاستنباط، وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة فاعترف له بمنافع جسيمة.

وأما العلم الطبيعي والعلم الإلهي فلم يعن أحد من أهل الأندلس بهما كبير عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التيجاني وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداي الإسرائيلي. وأما صناعة الطب فلم يكن بالأندلس من استوعبها ولا لحق بأحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالأندلس أحمد بن إياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف بالحراني ومنهم يحيى بن إسحاق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخي أحمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر صاحب العقد وكان له بصر بحركات النجوم ومهاب الرياح وتغيير الأهوية. ومنهم عمر بن بريق وأصبغ بن يحيى وأحمد بن حكم بن حفصون وكان هذا طبيبًا نبيلًا. دقيق النظر، بصيرًا بالمنطق، مشرفًا على كثير من علوم الفلسفة، ومنهم محمد بن تمليخ وأبو الوليد محمد بن

الحسين المعروف بابن الكناني كان عالمًا بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك الثقفي كان عالمًا بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس بن أحمد الحراني. ومنهم محمد بن عبدون الجبلي وكان قبل أن يتطبب مؤدبًا في الحساب والهندسة ومنهم سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل وعبد الله بن إسحاق المعروف بابن الشناعة المسلماني الإسرائيلي وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكناني المظفر وكان بصيرًا بالطب متقدمًا فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ومنهم أبو العرب يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفى سنة ٤٣٠.

ومن أشهرهم أحمد بن إبراهيم الأنصاري من أهل بلنسية كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لا يجاري في التعاليم قعد لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغونس عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن اللخمي عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وأرسطو طاليس وغيرهما من الفلاسفة وتمهر في علوم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره وألف فيها كتابًا جليلًا لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدوس وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة وكان له في الطب منزع لطيف، وذلك أنه لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريبًا منها. فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها، ما وصل إلى التداوي بمفردها، فإن اضطر إلى المركب، لم يكثر التركيب، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه.

ومنهم أبو مروان بن زهر الأشبيلي وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الذهبي وأبو عبد الله محمد البجائي المعروف بابن العباش معنن بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعي ومشاركة في الإلهي

وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة المنطق. وممن عني بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفًا في ضروب من الأعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة.

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافقة بالأندلس قديمًا وحديثًا فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحي بن أحمد المعروف بابن الخياط وأبو مروان الاستجي أحد المتحققين بعلم الأحكام والمشرفين على كتب الأوائل والأواخر وله في التسييرات ومطارح الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد إليها، ومن المذكورين أبو الإصبع عثمان الفري من أهل قرطبة وكان علمه الذي ينسب إليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن بن وافد اللخمي من أهل طليطلة رحل إلى قرطبة فلقي بها القاسم خلف بن عباس الزهراوي وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه في ذلك فقيهًا عالمًا متفننًا وله في الفلاحة مجموع مفيد وكان عارفًا بوجوهها وهو الذي تولى غرس جنة المأمون بن ذي النون الشهيرة بطليطلة توفي سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى بن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر بإشبيلية وأخذ عنه علمه وبرع في الطب والأدب وتوفي سنة ٥٤٧.

ومن الأطباء بالأندلس جواد الطبيب النصراني كان في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط وله اللعوق المنسوب إلى جواد وله دواء الراهب والشرابات والسفوفات. وكان خالد بن يزيد بن رومان النصراني بقرطبة صانعًا بيده عالمًا بالأدوية الشجارية وابن ملوكة النصراني كان في أيام الأمير عبيد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويقصد العروق وكان على بابه ثلاثون كرسيًا لقعود الناس وعمران بن أبي عمران وإسحاق الطبيب المسيحي كان مقيمًا بقرطبة وكان صانعًا بيده

مجربًا يحكى له منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم سليمان أبو بكر بن تاج كان في دولة الناصر وابن أم المؤمنين وأبو بكر أحمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفي كان أديبًا عالمًا بكتاب إقليدس وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الأشبولي وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم والرميلي كان بالمرية في أيام ابن معن المعروف بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله ومنحم بن الفوال يهودي من سكان سرقسطة كان متقدمًا في صناعة الطب متصرفًا في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة ومروان بن جناح كان يهوديًا وله عناية بصناعة المنطق وتوسع في علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم إسحاق بن قسطار وكان يهوديًا أيضًا وكان بصيرًا بأصول الطب مشاركًا في علم المنطق مشرفًا على آراء الفلاسفة وله تقدم في اللغة العبرانية وبراعة في فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم حسداي بن إسحاق وكان من أحبار اليهود متقدمًا في علم شريعتهم وهو أول من فتح لأهل الأندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون في فقه دينهم وسنى تاريخهم ومواقيت أعيادهم إلى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم فلما اتصل حسداي بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل به إلى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الأندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه.

ومنهم الفضل حسداي من ساكني مدينة سرقسطة ومن بيت شرف اليهود بالأندلس عني بالعلوم على مراتبها وتناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب ونال حظًا جزيلًا من صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم وفهم صناعة الموسيقى. وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن بطرق البحث والنظر واشتغل

أيضًا بالعلم الطبيعي، وكان له نظر في الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حداي كان آية في الطب والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر.

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري من مرسية وأعيان أهل الأندلس وأكابرهم فاصلًا في معرفة الأدوية المفردة وكان أبو جعفر الغافقي والشريف محمد بن محمد الحسني وخلف بن عباس الزهراوي وابن بكلارش من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلد دانية من شرق الأندلس وهو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم وكان أوحد في العلم الرياضي متقنًا لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود.

ومن أعظم فلاسفة الأندلس أبو بكر محمد بن يحيى أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة وكان في العلوم الحكمية علامة وقته متميزًا في العربية والأدب والطب متقنًا لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قالوا إنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم فإنه إذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي وهما اللذان فتح عليهم بعد أبي نصر بالمشرق في فهم تلك العلوم ودونا فيها بأن لهذا الرجحان في أقاويله وفي حسن فهمه لأقاويل أرسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الإلهيين أو المتصوفين الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صاحب الفتوحات دفين دمشق.

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية في علوم الأوائل والطب وأبو مروان بن أبي العلاء زهر وكان من كبار الأطباء. والحفيد أبو بكر بن زهر كان متميزًا في العلوم ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد بن أبي بكر بن زهر وأبو جعفر بن هارون الترجالي من أعيان إشبيلية وكان محققًا للعلوم الحكمية متقنًا لها معنيًا بكتب

أرسطاطاليس وغيره من الحكماء المتقدمين فاضلًا في صناعة الطب عالمًا بصناعة الكحل، وأبو الحجاج يوسف بن موراطير من شرقي الأندلس وموراطير قربة من بلنسية كان فاضلًا في صناعة الطب فالأمور الشرعية أديبًا شاعرًا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان عبد الملك بن قبلال وأبو إسحاق إبراهيم الداني وكان أمين البيمارستان وطبيبه بالحضرة وكذلك ولداه وأبو يحيى بن قاسم الأشبيلي كان صاحب خزانة الأشربة والمعاجين التي يأخذها الخليفة المنصور من عنده.

وأبو الحكم بن غلندو الطبيب وأبو جعفر أحمد بن حسان وأبو العلاء بن أبي جعفر أحمد بن حسان وأبو محمد الشذوني وله معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو الحسين بن أسدون شهر بالمصدوم الطبيب وعبد العزيز بن مسلمة الباجي وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري وابن الحلاء المرسي وأبو إسحاق بن طملوس من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبي وأبو العباس بن رومية النباتي العشاب وأبو العباس الكنبنازي وابن الأصم وغيرهم من الأطباء الذين كانوا يجمعون إلى الطب أدبًا وشعرًا أو فقهًا وحديثًا وقرآنًا أو فلسفة ومنطقًا أو نجومًا أو كيمياء.

هذه جملة إجمالية في بعض رجال العلم غير الديني في الأندلس ذاك القطر الذي إليه تنسب نحو نصف المدنية العربية الذي نقل أهله المدنية القديمة إلى أهل المدنية الحديثة فكانوا خير صلة وعائد بين الرومان واليونان والفرس وبين الإنكليز والطليان والألمان والفرنسيس وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب وملوكهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أحد ملوك الأندلس عالمًا مفننًا مكرمًا للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن

صحبه من العلماء والمتفننين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققًا بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي نبهه إلى أبي الوليد محمد بن رشد، وأشار إليه بتلخيص كتب الحكيم أرسطاليس لأن أمير المؤمنين كان يشكو من قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه.

ومن المتأخرين في هذه العلوم أبو علي الصعلعل حسن بن محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال لسان الدين: وكان فقيهًا إمامًا في علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلة والنبهاء قائمًا على الأظلال والرخائم والآلات الشعاعية ماهرًا في التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات وتواليف نسيج وحده وزجعة وقته، ومثل أبي جعفر بن حسن بن باضة السلمي الموقت بالمسجد الأعظم بغرناطة كان نسيج وحده وقريع دهره معرفة بالهيئة وأحكامًا للآلة الفلكية ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعي الحيرة جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ في ذلك درجة عالية ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب إليه من ذلك كثيرًا من الأعلام المتقدمين وازرت آلاته بالحمائريات والصفاريات وغيرها من آلات المحكمين وتغالى الناس في أثمانها أخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة في هذا الفن، ومثل أبي العباس أحمد بن مفرج النباتي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور والوزير بن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية بصيرًا باتخاذ الآلة الحربية الجافية والعمل بها انتقل إلى فاس

واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى. والمحيط المتعدد الأكواب الخفي الحركة، ومنهم ابن خاتمة الأديب الطبيب من أهل المئة الثامنة الذي كتب في الوباء [١] كتابًا عرف فيه الميكروب والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا العصر، وفيه يقول ابن الخطيب إنه حسنة من حسنات الأندلس، ومن رجالات الأندلس وأعلامها ابن طملس الوزير، كان كاتبًا مهندسًا إلى من ضارعهم في علمهم من الأطباء والفلاسفة والحكماء والكيماويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين في صف العلماء جهلًا وتعنتًا.

هذا في العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية والرياضية وقد نبغ في الأندلسيين من العلماء في التاريخ والجغرافيا والأدب والرحلات أفراد ما برحت كتابتهم مرجعًا إلى اليوم لكل عالم ومؤلف.

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد في العناية بالعلوم المادية وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظماء على ما رأيت سابقًا وألفوا فيها فأحسنوا إحسانهم في صنائع لا يحسنها إلا صنع الأيدي دقاق النظر وكثيرًا ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون في تحقيقها ومنهم من يؤلف العشرة والعشرين مجلدًا في علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس فألف كتابه في ستين مجلدًا وألف أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم في مئة مجلد وموضوعه اللغة جعله على الأجناس في غاية الإيعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة. وكثر فيهم المكثرون من التآليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة تأليف جيد. وقالوا إن تآليف ابن حزم بلغت نحو أربعمائة مجلد وتواليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي بلغت ألفًا.

---

(١) المقتطف م ٢٨ ص٣٠٤.

ومن مشاهيرهم ابن جبير الكناني (٦١٤) الذي رحل إلى المشرق كما رحل كثير من علماء الأندلس قبله إلى مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها في طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا إلى بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة.

واشتهر في الجغرافيا أبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبي بكر الزهري الغرناطي من أهل المئة السادسة والشريف الإدريسي صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك لأنه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي إيطاليا سنة ٥٤٨ وغيرهم.

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضي وابن بسام وابن بكشوال وابن الآبار وابن سعيد وابن الخطيب ومن أدبائهم المشهورين ابن جزي وابن هاني وابن سهل الإسرائيلي ويحيى القرطبي وابن رزين وابن عمار وابن لبون والباجي وابن الدباغ وابن الجد وابن القبطرنة وابن عبد البر وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبانة وابن الصائغ وابن سارة الشنتريني وعبادة وابن وهبون وابن خروف وابن خاقان والمصحفي والأشجعي وابن جهور وابن سلمة واللماني وابن برد وابن أبي أمية ومنذر بن سعيد والزبيدي وابن القوطية وابن العربي (أبو بكر) وابن الأعلم والرمادي ومن أديباتهم حفصة بنت الحاج الركوني وعائشة بنت فادم وفاطمة الشيلاري وولادة بنت المستكفى بالله ومريم الفيصولي (الفصولي) وصفية بنت عبد الله التربي والغسانية والبلشية والوادي آشية ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة كاتبة الأمير الناصر لدين الله وغالية المعلمة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامي. وقمر البغدادية وحسانة التميمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة العزيز الشريفة الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن

صمادح المرية. والعروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية جارية المعتضد وبثينة بنت المعتمد بن عباد، وحفصة بنت حمدون، وزينب المرية. وغاية المنى وعائشة القرطبية، وأسماء العامرية، وأم الهناء بنت القاضي عبد الحق، ومهجة القرطبية، وهند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي الشلبية، وحمدة بنت زياد المكتب وأختها زينب، قال ابن سعيد إنهما شاعرتان أديبتان من أهل الجمال والمال والمعارف والصون إلا أن حب الأدب كان يحملهما على مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها. وسعدونة وغيرهن.

هذه حالة العلوم في تلك المملكة التي بادت وباد سلطانها، وقد رأيت كيف كثر المهندسون في بلنسية وغرناطة وقرطبة وإشبيلية وغيرها من حواضر الأندلس وبأعمال هؤلاء الأعلام زخر بحر العمران، وقامت مدنية العرب على أمتن بنيان حتى دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزيه السويسري على ما تقدم بك آنفًا.

تفنن عرب الأندلس
٩٧

لم تقف همة الأندلسيين عند حد الإبداع في هندسة الدور والمصانع وعمل النقش والتزويق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء الجسور وتعبيد الطرق وإنشاء السكور والسدود، فإن هذه الأعمال في العمران كانت نتائج لازمة للثروة العظيمة التي فاضت عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومناحرهم، فقد تفننوا أنواع التفنن في الزراعة. ونقلوا إلى الأندلس من الشام أنواعًا من الأشجار والأزهار والغراس والبقول لم يكن لأسبانيا

عهد بها ومنها انتقلت إلى أوربا الغربية، ومن جملة ما أدخلوه من أنواع الشجر والنبات والفستق والموز والنخيل والأرز والقطن والتوت وقصب السكر والزعفران والهليون وزهر الكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الياباني وغير ذلك. وتفننوا في هذا تفنن العربيين لعهدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت الأندلس المعتدلة الإقليم، الحسنة المناخ. تعطي ثلاثة مواسم في السنة لحسن استثمارها. فندر على أهلها أخلاف الرزق والغنى سواء في العناية عندهم الأعذاء أي الأراضي التي تسقى بالأمطار أو التي تسقى سيحًا أي بماء الأنهار. ذلك لأنهم حفروا آبارًا. وأسالوا المياه من القاصية، وعمروا خزانات وسدودا.

وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضًا صناعة صقل السيوف وهي الصناعة التي نسبت إلى دمشق حتى اليوم فقيل لها بالأفرنجية Damasqunage أو Damasqumene أو Damasqquinure أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ وقد اشتق منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من الحرير والكتان مزينة بالرسوم من دمشق أيضًا فنسبت إليها عندهم وقالوا في فعلها Damasser أي عمل ثيابًا على النمط الدمشقي.

واختصت قرطبة بدبغ الأديم أي الجلود وإشبيلية بالحرير (كان فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفًا من العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعمائة نول فقط وذلك بعد جلاء العرب والإسرائيلين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما «يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها إلى أقاصي البلاد» وإلى اليوم ينسبون هذا الصنف إلى مالقة فيقولون في بلاد الشام المالقي للصحاف والأواني المعروفة. واشتهرت المرية بعمل الوشي والديباج والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للأجواخ) و «للكورة باجة خاصية في دباغة الأديم وصناعة الكتان» وكان

في المرية «لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللأسقلاطون[١] كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللأصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر[٢] المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف».

وكان الديباج والوشي يعمل أولًا في قرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يتفق في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية. وانفردت سرقسطة بصنعة السمور ولطف تدبيره وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لأهل هذا الصقع «وفي جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق» وكان في جيان ٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد في رية والسلاح والحلي في قرطبة ومرسية وطليطلة وسرقسطة. وأخذت شاطبة تصدر الورق بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفي شاطبة يعمل الكاغد الجيد ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس وبالجملة فلأهل هذه الديار «خصائص كثيرة ومحاسن لا تحصى وإتقان لجميع ما يصنعون» قال ميجون: كانت في الأندلس عدة معامل مشهورة لصنع الفسيفساء ويسمونه المفصص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان.

وهكذا رسخت الصنائع في أمصار الأندلس، برسوخ الحضارة وطول أمدها قال ابن خلدون: فأنا نجد في الأندلس رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ، وأصناف الغناء واللهو، من الآلات والأوتار والرقص، وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف، وجمع المواعين وإقامة الولائم والأعراس،

---

(١) بلد بالروم تنسب إليه الثياب السقلاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها سقلاطونًا قال في التاج هي كلمة رومية.

(٢) المعجر ثوب يمني يلتحف به ويرتدي والجمع المعاجر.

وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم، فهم على حصة موفورة من ذلك، وحظ متميز بين جميع الأمصار.

وذكر سيديليو إن العرب من حيث الأخلاق والعلم والصناعة كانوا أرقى بكثير من الأسبان وهم أمتن أخلاقًا وطبائع. وفيهم الكرم والإخلاص، والإحسان الذي لم يكن عند عداتهم كما أن فيهم عزة النفس التي امتازوا بها في كل زمن، وكان الإفراط المضر فيها داعيًا إلى أحداث البراز. وساعد على عظمة العرب في أسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشارًا كثيرًا وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق في اللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع. والشعر يرقي النفوس. وغدت المنافسة الشريفة على أتمها في الأفكار. وكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها، واسم بانيها. والأمة تمدح المحسن بها، والمحسن لبنائها، وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص إلى درجة ذات بال، ولا يزال إلى اليوم في الغرب يدرس أسلوب بنائهم، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش، وكان لدولة الموحدين في الأندلس ذوق خاص في البناء أنشئوا الجوامع والمآذن والأماكن العامة والمستشفيات والرباطات، في كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الأنهار اهـ.

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطرون السكر ويعملون اللبود «المشهورة في جميع الأرض بالجودة والصبغ الحسن. ولهم من الألوان والأصباغ والحشائش التي يلون بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس في بلد من بلدان الأرض له نظير حسنًا وكثرة.» ويحملون حاصلاتهم ومصنوعاتهم إلى أقطار المملكة العربية بل إلى أقاصي البلاد

الشرقية والغربية في البحار على سفن الأندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل في كل فرصة من فرضهم تقلع على الدوام من مواني الأندلس لتحمل إلى شواطئ أفريقية وآسيا وأوربا ما يروج فيها من سلعهم ومعادنهم وثمارهم وحبوبهم.

قال كاباتون: كانت مدنية العرب في أسبانيا ظاهرة في الأمور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لإخصاب الأراضي البائرة في الأندلس من الأساليب العلمية التي اتخذوها لريها وهي أساليب إن لم تكن من اختراع العرب فهم الذين أكملوا نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحرير والجلود والبلور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب وأقاموا ما لا يحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعي إعجاب الأمم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من إنشائه اهـ.

وقال أحد علماء الفرنجة: كان في الأندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان أسبانيا اليوم نحو ٢١ مليونًا وسكان البورتقال ٦ ملايين) وعلى ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التي يعجب الناس إلى اليوم بخرائبها وعلى ذاك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة العرب كانت المياه تجري إلى كل مكان في بسائطها فتحمل الخصب والأمراع. وقال آخر: إن عهد استيلاء العرب على أسبانيا كان أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل غراسهم وزروعهم وحسن استثمارهم لمعادن الأرض ومناجمها ولما اغتنت البلاد كثر فيها سكان الدساكر والقرى كما كثر سكان المدن الكبرى.

ولا عجب - وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعدين المناجم واتساع التجارة قد بلغ هذا الحد - إن كانت جباياتها من حقوقها

وغير واجبها إلى سنة ٣٤٠هـ نحو عشرين ألف ألف دينار قال ابن حوقل: ولست أشك على ما يوجبه النظر وتواطأ به الخبر فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادرين الذين كانوا في جملته عن أسباب الأندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها وإعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار ويلغ خراج الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته تستوفيه عينًا ٦.٢٤٥.٠٠٠ دينار. وحكي ابن خلدون عن الثقات من مؤرخي الأندلس: إن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملتها بالقناطر خمسمائة ألف قنطار وكان هذا الملك يقسم الجباية أثلاثًا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق[1] والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار بالإنصاف.

كان للأندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من ذلك أن عباس بن فرناس حكيم الأندلس صنع في بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود وهو الذي استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمثقال (؟) ليعرف الأوقات على غير مثال واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة ثم سقط. فهو أول من حاول الطيران من بني الإنسان وكان أهل قرطبة أول من عني بتبليط المدن وكذلك إنارة الطرق في الليل عرفت لأول مرة في قرطبة أيضًا ولما ارتقت العلوم على عهد بني الأحمر في غرناطة اكتشفوا بل

(١) الستوق الزيف البهرج اللبس بالفضة.

اخترعوا بارود المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم التي ذافعوا بها عن غرناطة محفوظة إلى اليوم في أحد متاحف أسبانيا.

وفي الأندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق في مضمار هذا الاختراع الذي لم تنتفع الإنسانية بأفيد منه. فكانت لهم فيه طريقة لم ينته إلينا خبرها بالتفصيل بل عرف إجمالًا أن عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المئة الرابعة «كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج إليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه» فإذا كان هذا هو الطبع المعروف وما نظنه إلا هو فيكون ابن بدر العربي قد سبق غوتمبرغ الألماني مخترع الطباعة بنحو أربعة قرون.

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو ما فعل لويز الرابع عشر وكولبر في فرنسا. وعني الأندلسيون بتأليف رسائل يفهمها كل إنسان تكون معوانًا على الانتفاع بالأعمال العامة وهم أنشأوا دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله.

واخترع الأندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا الموشحات التي استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها وكانت طبقاتهم في نظمهم ونثرهم لا تخفى على بصير ولم يكن يخلو بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل «كان من مدنهم مثل شلب قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه» وخص أهل وادي آش بالأدب وحب الشعر. وعلل ذلك أحد العارفين بقوله إن أهل الأندلس أشعر الناس لما أكثر الله تعالى في بلادهم وجعله

نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم أحد في هذا الشأن.

وكانت للأندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه ونبغ كثيرون منهم في هذا المعنى وألفوا فيه التآليف الممتعة. وكانت لهم مدارس لتعليم القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم على اختلاف ضروبها في الجوامع من غير نكير يعلمون الفلك والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادئ الطبيعة والكيمياء والمواليد الثلاثة ذكروا أنه كان في قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها مليون نسمة وأن الموحدين أنشئوا في الأندلس مدارس عامة ومدارس عليا وأغدقوا إحسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا إلى الأندلس بهاءها على عهد الأمويين وأن الحكم أنشأ في قرطبة سبعًا وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفي ذلك يقول بن شخيص:

وساحة المسجد الأعلى مكللة   مكاتب لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم   يا خير تاليها وواعيها

وأحدث رضوان النصري (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون في جميع العلوم في المساجد بأجرة فهم يقرأون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريًا فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ذلك أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم.

وكثيرًا ما كان ملوك الأندلس يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلاني من كتب الأدب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار فما هو إلا أن يحفظه مئات طمعًا في الجائزة وعم التلذذ بالأدب جميع طبقات المجتمع

عندهم. وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون بشعرهم الملوك والأمراء يمدحونهم فيصلونهم ويؤونهم زمنًا على نحو ما كانت الحال في القرون الوسطى في المتشاعرين المتغنين بالشعر المتكففين به في بلاد الإفرنج ويسمونهم بالإفرنسية التروبادور والتروفير [1] Les Troubadours et les Tronvères.

وكان تعليم البنات شائعًا عندهم وكثير منهن يحفظن بضعة دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالأوربيات اليوم وإذا عرفت أن المدارس كانت مبذولة في المدن والقرى فلا تستغرب بعد ذلك أن قال أحد مؤرخي الإفرنج أن سكان أسبانيا الإسلامية إلا قليلًا كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان أهل الطبقة العليا في أوربا المسيحية أميين لا يقرأون ماعدا أفرادًا قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم.

وكان للأندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتبًا وأهلها اشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة. وقد أنشأ الحكم الثاني عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه إلى المشرق يستنسخون الأسفار فما هو إلا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل إلى خليفة الأندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعمائة ألف مجلد جاء فهرسها في أربعة وأربعين مجلدًا ولطالما أجزل ملوك الأندلس الصلات لبعض مؤلفي الشرق والأندلس

---

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الإفرنسية القديمة في القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بلغة وال من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر كانوا يختلفون إلى الملوك والعظماء ينشدون الأشعار ويضربون على الأوتار وربما أقاموا في قصورهم مدة ثم يتنقلون.

حتى يذكروا في مقدمتها أنهم ألفوها برسم خزائنهم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه.

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والأدباء في الأندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الأكاديميات في هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية. وكان المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالأدب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفري في خمسين مجلدًا في الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبي عامر أمير الأندلس في دولة هشام المؤيد مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته.

وقد أنشأ الحكم مجمعًا في قصر مروان وقلده غيره من أمراء الأندلس فأنشئوا مجامع لهم. وأنشأ أحمد بن سعيد النصري مجمعًا في طليلة فكان يجتمع عنده أربعون عالمًا من طليطلة والبلاد المجاورة ثلاثة أشهر في السنة أي في شهر تشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني يعقدون اجتماعاتهم في ردهة فرشت أحسن فرش فيبدؤون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون في تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد إلى البحث في فنون شتى من العلم والحكمة.

وكان أمير المسلمين على بن تاشفين لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء [1] فكان إذا ولى أحدًا من قضاته كان فيما يعهد إليه

---

(١) كان للقضاة في الأندلس مشاورون حتى لا يصدروا إلا عن آراء ناضجة وإليك مثالًا من تقليدهم: هذا كتاب تنويه وترفيع، وإنهاض إلى مرقى رفيع، أمر بكتبه الأمير الناصر

أن لا يقطع أمرًا ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيمًا لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. وأمير المسلمين هذا هو الذي اجتمع له ولأبيه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار فانقطع إليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرتهما حضرة بني العباس في صدر دولتهم وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعيادًا ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم.

كان أهل دانية أقرأ أهل الأندلس لأن مجاهدًا العامري كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الأموال فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا في بلاده قلنا وإذا كان عرض للأندلس في بعض أدوارها ما فرق جامعتها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها فقد كان لتفريقهم إلى ممالك صغرى داعيًا إلى التنافس أحيانًا حتى صار لكل إقليم مزية ليست لغيره، واختص كل ملك بشيء فاتخذ أسباب النجاح فيه، واستدعى أهل الأخصاء من رجاله.

ومن لطيف تدبيرهم في الإنفاق على الجند دون تحميل الأمة أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جهور رئيس قرطبة من جعل أهل

للدين أبو جعفر بن أبي جعفر أدام الله تأييده ونصره، للوزير الفقيه الأحل المشاور الحسيب الأكمل أبي بكر بن أبي جمرة أدام الله عزه أنهضه به إلى الشورى ليكون عند ما يقطع بأمر، أو يحكم في نازلة، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه، لما علمه من فضله وذكائه وجده في اكتساب العلم واقتنائه، وليكون هذه المرتبة ليست طريفة له بل تليدة، متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه، فليتحملها تحمل المستقل بأعبائها، اللحن بأنبائها، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وأنحائها، والله يزيد تنويها وترفيعا ويبوءه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعا، وكتب في التاسع لذي حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل أهـ.

الأسواق جندًا وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه في الدكاكين وفي البيوت حتى إذا دهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه.

ومن أجمل أعمالهم في إقامة قسطاس العدل إن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان يبعث إلى الكور قومًا عدولًا يسألون الناس عن سير العمال ثم ينصرفون إليه بما عندهم. واعترض له يومًا متظلم من أحد عماله فبدر إلى الشاكي وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه فإن كان ضربك فاضربه أو هتك لك سترًا فأهتك ستره أو أخذ لك مالًا فخذ من ماله مثله إلا أن يكون أصاب منك حدًّا من حدود الله فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أقيد منه.

ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على اجتهادهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفي عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضًا على الأبواب في أيام معلومة فترفع إليه فيه الظلامات وتصل إليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرحبًا مستطيلًا لذلك فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقته بيده ولا إنهاء مظلمة على لسانه وفتح بابًا في قصره سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يومًا معلومًا في الجمعة ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترًا. فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا أن يتحفظوا من كل أمر يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم.

وهكذا فإنه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة إلا قام به أو ببعضه ملوك الأندلس وأهلها حتى التماثيل فإنها كانت تجعل في قصور العظماء والصور تزين بها غرفهم وردهاتهم لذلك أبقوا على أكثر ما كان في البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصًا بعد أن انغمسوا في الحضارة قال أبو عامر البرياني في الصنم الذي بشاطبة:

بقيـة مـن بقايـا الـروم معجبـة ... أبدى البناة بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم ... تتابعـت بعـد سـموه لنـا صـنما
كـالمبرد الفـرد مـا أخطـأ مـشبهه ... حقًّـا لقـد بـرد الأيـام والأممـا
كأنــه واعــظ طــال الوقــوف بــه ... ممـا يحـدث عـن عـاد وعـن إرمـا
فـانظر إلـى حجـر صـلد يكلمنـا ... أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حدائق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع الثيران فضارعوا الأسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال [1] والكرج والعود والروطة والرباب

---

(١) الخيال هو الذي يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز «قره كوز» وبالفرنسية Mariounette, pohchinelle والكرج تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان، ويحاكين بها امتطاء الخيول فيكررن ويفررن ويثاقفن وهي من آلات الرقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, Chevaun de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الأندلسية Rotta أو Rote وبالإفرنسية rotte أو Rote والمؤنس قربة يركب فيها مزمار ولعلها من أصل أسباني يقابلها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالأصابع Cithare والقثار Guitare آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومة إلى أنصاف ألحان يركب عليه دساتين والرلامى نوع من المزمار هو تصحيف الرنامى نسبة إلى زنام مستنبط الناي وكان زمام زمارًا مشهورًا عند هارون الرشيد يضرب به المثل في حسن صناعته. والشقرة والنورة مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه

والقانون والمؤنس والكثيرة والقيثار والزلامى والشفرة والنورة والبوق وكان في مدينة آبدة من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ما تظنهن فيه أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر وإخراج القزى والمربط والفتوخة.

أما الموسيقى فقد كان زرياب أدخلها الأندلس فكان يجري عندهم مجرى الموصلي في الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه وعلا عند الملوك وأحسنوا إليه حتى كادوا يفرطون وشهر شهرة ضرب بها المثل. ولا عجب إذا قلنا أن تفرق الأندلس أصقاعًا وممالك كان أشبه بتفريق ألمانيا وإيطاليا قبل وحدتهما إلى إمارات صغيرة تتنافس في مضمار العلم والصنائع والعمران.

والعود معروف وبالفرنسية Luth والرباب معروف وبالفرنسية Rebee والقانون مشهور وبالفرنسية Harpe والبوق معروف. والذكر نوع من الرقص أو اللعب يعرفه الزنج والحبش وبالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب المشعوذين والفتوخة جمع فتخة وهي خاتم كبير وهي لعبة الخاتم «من مقالة للعلامة الأب انستاس ماري الكرملي: المقتبس م١، ص٤٣٥».

مدينة مجريط
٩٨

سار بنا القطار من باريز إلى جنوبي فرنسا مارًّا بأرض عامة بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتفننهم في ضروب الحياة المادية والأدبية ولما اجتزنا جبال البيرنات «جبل الثنايا» دخلنا ليلًا محطة إرون الأسبانية قاصدين إلى مجريط عاصمة أسبانيا الحديثة كثرت لواعج الأشواق إلى الصقع الأندلسي واشتدت تباريح الذكرى:

وأكثر ما يكون الشوق يومًا ... إذا دنت الخيام من الخيام

تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية، وما أثلته من الأمجاد في هذه البلاد، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية، تذكرت جيلًا عظيمًا، لم يبق سوى التحدث بطيب أخباره. والتطلع إلى جميع آثاره، ذكرت عشرات الألوف من العظماء ضمت الأندلس أعظمهم، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال لهم في أمة في القرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة المعري حين قال:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض ... إلا من هذه الأجساد

وحرام بنا وأن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هي عاصمة أسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم يقربون من سبعمائة ألف وهي العاصمة التي اختارها فيليب الثاني لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصنًا أو بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهرًا كبيرًا ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديمًا في أرباضها بعض الغابات فحطمت ولم يبق منها إلا القليل. على أن فيها

اليوم ما في جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع. زرت بعضها وهي لا تختلف عن مصانع الأمم اللاتينية إلا قليلًا بل هي أقل عظمة من مصانع إيطاليا وفرنسا وليس في مجريط أثر يعتد به من آثار العرب، وأما آثار الأسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيرًا لأنها حديثة عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية في كل مصنع من مصانعهم.

وأكثر أحياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المنحطة في أوربا إلا أن بعض الأحياء والدور المستحدثة هي على طراز الغربي الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة. وقد أنشئت في زمن الحرب العامة في مجريط وغيرها من مدن أسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب أي الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم أسبانيا لحيادها وقد أحسنت لنفسها بالتزامها خطة المسالمة ومن هذه البيوت ما يقتضي ألوفًا من الليرات. فلما اشتدت الأزمة على أوربا عامة لحق أسبانيا من أثرها شيء بالطبع فوقف العمل في بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التي أحدثوها مغتنمين فرصة تقاتل جيرانهم.

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التي لا شأن لها في نظر التاريخ وعلم العاديات. وليس لها مقام رفيع في باب البناء الحسن. والمصانع التي من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكي اليوم محل القصر العربي وكان هنري الرابع جعل هذا القصر محلًا للصيد. وفي متحفها الوطني بعض آثار العرب التي أفلتت من أيدي الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها وأتلفوها. أما تاريخ هذا الحصن العربي أي مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه إلى أن استولى الأسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ فأصبحت مجريط يومئذ أسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها

في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبورتقال وقد أنشئ فيها في العهد الأخير ترامواي كهربائي Metropohtain تحت الأرض على مثال ترامواي باريز ولندرا وبرلين ونيويورك.

دير الأسكوريال

٩٩

أهم ما في ضاحية مجريط دير الأسكوريال على أحد وخمسين كيلو مترًا منها بناه فيليب الثاني ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكي وقيل إنه أنفق على الدير خمسة عشر مليونًا ونصف مليون من البستاس أي الفرنك الأسباني.

والأسكوريال كما قال عنه واصفوه من الإفرنج مثال مما تعمله الإرادة ومما لا تعمله فقد قيل إن الإرادة قادرة في بعض الأحوال وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الشعلة الإلهية قد نقصت في عمل باني الدير: فمن أنه نشأ في عهد لم يشتهر بقوة الإيجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافًا رغم ما تعاوره من أيدي المهندسين لم يتم عن لطف ولا حوى أسباب الجمال. وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أبهته وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه في هذا الشأن فلم يكن لهم هم إلا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذي أبقاه للأعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال الهندام والنظام أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت.

وأهم ما يلفت النظر في هذا الدير دار كتبة وفيها خمسة وأربعون ألفًا من المجلدات حوت كثيرًا من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك أسبانيا في القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالأسبانيولية أو اليونانية ومنها المزين بأجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهي ألفا مجلد كانت السفن الأسبانية غنمتها من مركب لأحد ملوك مراكش المتأخرين. وكان في هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في الدير مع ما التهمت من الكتب الأخرى.

فليست الكتب العربية في خزانة الأسكوريال أسبانية المصدر كلها كما أكد لنا علماء الأسبان وصاحب البيت أدري بالذي فيه أخبرني أن الأسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لأحد سلاطين الغرب الأقصى فوقعت في أيدي الأسبان وقال آخر إن أصل هذه المجموعة كانت لأحد سفراء أسبانيا لدى الباب العالي ولمّا غادر الأستانة أهداها لملكه فوضعها هذا في الدير الذي كان ملكًا له ولآله من بعده والرواية الأولى أصح.

وقد وصف هذه الكتب باللاتنينة أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩، ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطًا رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذي يهمني منها.

عراني في هذا الدير ماعرا كثيرين قبلي من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التي تدعو إلى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وإنك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الأسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الأديار كما تشعر في مدارس أكسفورد وبيعها والنازل

هنا بطبيعته يرى دافعًا من نفسه يدفعه إلى أن يشغل نفسه بشيء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر في كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد.

قرطبة والزهراء

١٠٠

بأربعة فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

لم يكتب لي أن أزور مدينة طليطلة لا شهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها القائمة إلى اليوم وعادياتها المأثورة وكانت من عظائم مدائن الأندلس وهي من قرطبة على عشرين يومًا فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الأندلسية قرطبة وإشبيلية وغرناطة وهي العواصم الثلاث التي تأصل فيها حكم العرب وطالت أيامه.

وقرطبة كانت في عزها أعظم مدائن الأندلس فأصبحت الآن وليس فيها من السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل إن مساجدها بلغت ألفًا وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون إنه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص [1] تكون الفتيا في الأحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه بأحوال بلدهم.

---

(١) المقلس هو الذي يلبس القالس أو القلنسوة وكان يحق للمقلس وحده في الأندلس أن يفتي وكان عليه أن يستظهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف حديث وللمفلسين الحق أن يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزي في ملحقه على المعجمات العربية).

قال المراكشي: بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغًا لم تبلغه بلدة. حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال كان بالزبض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشي يستضيء بسرج قرطبة ثلثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء.

وفي تواريخ الإفرنج أن قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أي أوربا وليس ما يشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ ربضًا وهي مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بأنواع الأشجار على طول الوادي الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان في هذا الوادي الكبير أربعة عشر ألف قرية.

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالأندلس وليس بجميع المغرب «لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق» ووصفها المقدسي فقال: «وصف ما شئت من طيبها ورحبها فإنها جنة الأندلس على ما حكي لي وهي مصر الأندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وإن ثم عدلًا ونظرًا وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة ودينًا وهي في جهاد ونفير أبدًا مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد» وذكروا أن لأهل قرطبة رئاسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم.

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الأعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبدًا للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الأموي في دمشق

يوم بني جامعها واستصفى النصف الآخر من أربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس أخرى.

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للأذان وهو من أعجب البنيان. وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربع جميع ما جرته إليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثور الأندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عامًا بعد عام على ضعفائهم إلا أن تكون بقرطبة مجاعة فتفرق فيهم.

ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية إن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التي بقصرها الزهراء أربعمائة دار وذلك لسكني السلطان وحاشيته وأهل بيته.

وقالوا إن المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة قد هدمها مرور النهر على ممر الأزمان فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما اتصل به خبرها فأمر المسح بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة. وربما كان هذا أول عمل في العمران قام على أيدي عرب الأندلس في القرن الأول للهجرة.

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة أهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من أعظم

مساجد الإسلام وقيل إنه بني على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقي منها الآن ٨٦٠ وهي أدق من سواري الجامع الأموي اليوم وقال آخر إن الباني وإخلافه جلبوا هذه السواري من أبنية قديمة وبيع مسيحية في القاصية كجنوبي فرنسا وأفريقية أي قرطاجنة والأستانة وتبين أن أكثرها من مقالع أندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لا يزال محفوظًا وهو دهشة إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم وعلو قبته تسعة أمتار حفر في قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة. وله اثنان وعشرون بابًا معمولًا بالنحاس بقي الآن منها ١٢ بابا وعلى بعضها صورة نقوشها الأصلية وقد قام البرج الذي هناك مقام المنارة التي أنشأها عبد الرحمن الناصر. يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التي أقاموها وسط الجامع على عهد شارلكان في مكان آخر لصار لها شأن وهي هنا من أبشع آثار الهندسة إذ أحدث بانوها بها ضررًا على بناء وحيد من نوعه في العالم.

وكان في جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمقصص وغيرها فتزيد في جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقي إلى اليوم من أغرب أبنية الأرض.

قال غوتيه: لا سبيل إلى وصف التأثر الذي يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الإسلامي القديم فيتراءى لك أنك تسير في غابة مسقوفة لا في بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك في صفوف من السواري تلتقي وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اهـ.

نعم إن البيعة التي أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التي جعلت في أكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وأبدلته عن أصله وفي نية ديوان الآثار فيما بلغني أن يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى بدون زيادة ولا نقصان طرازًا في البناء منقطع القرين في الأرضين إلا أن البيعة الوسطى بيعة شارلكان يصعب نقل إنقاصها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال.

هذا ما بقي من آثار الأجداد في قرطبة وقد زرتها وأرباضها فرأيتها وهي على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحي دمشق وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربي البديع ولأهلها إلى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم. وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموي في ست عشرة سنة وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعًا وجعل في سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصورًا للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل إليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام وأما الوردي والأخضر فمن أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الأندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم.

وقال أحد المؤرخين إن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد الفتيان

فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذي جلب من مقالع الأندلس أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الإنسان ولما جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثنى عشر تمثالًا. وقال بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمسًا وعشرين سنة وفي الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة:

ديار بأكناف الملاعب تلمع ... وما إن بها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فتصمت أحيانًا وحينًا ترجع
فخاطبت منها طائرًا متفردًا ... له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب البربر وسقطت قرطبة في أيدي العدو سنة ٦٣٣هـ بعد أن كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في أيدي العرب ولم يعد حكمهم إليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع إلى أمره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخربت قرطبة وعمرت إشبيلية.

مدينة اشبيليه

١٠١

على شاطئ الوادي الكبير في أجمل بقاع الأندلس وأعدلها هواء وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التي كانت من أعظم مدن الأندلس بعد سقوط قرطبة في أيدي الأسبان وكانت مدينة الحظ والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم في إشبيلية بقايا كثيرة من آثار العرب إلا الجيرالدا أو منارة الجامع الأعظم وهي أعجوبة إشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من سنة ١١٨٤ - ١١٩٦ لأبي يوسف بن يوسف من دولة الموحدين وهي من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت في الهواء وقاعدتها عبارة عن مربع ذي ١٣ مترًا و٥٥ سنتمترًا ويزيد سمك الجدران على مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الأسبان بعد خروجها من أيدي الحرب وهي الآن قبة جرس البيعة الكبرى.

قال في ذيل اللباب: فدخل (يعني أمير المؤمنين يعقوب بن يسوف بن عبد المؤمن) إشبيلية في غرة صفر سنة ٥٩٣ فأخذ في إتمام بناء الجامع وتشييد مناره وعمل التفافيح من أملح ما يكون من عظمة لا أعرف له قدرًا إلا أن الوسط منها لم يدخل على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذي ركب عليه أربعون ربعًا من الحديد وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلي وموهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهبًا اهـ.

ومن أجمل ما في كنيسة إشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس من الصلب فيه بقايا خريستوف كولمبس الملاح الجنوى الذي اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك أرغون وملك ليون وملك

نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢ كان في كنيسة هافان ثم نقل إلى إشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد أن تحررت كوبًا من أسبانيا.

تقرب إشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها: ليست الجيرالدا ولا سائر مصانع إشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هي التي اشتهرت بها إشبيلية البديعة ورددت المثل الذي سار فيها «من لم ير إشبيلية لم ير غريبة» بل إن ما اشتهرت به في جميع أسبانيا مظاهر فيها سرور الحياة فيها من مراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة الدائمة التي تنبعث من سكانها على الدوام.

جرت مناظرة بين يدي منصور بن عبد المؤمن بين العالم أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه: ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية. وبهذا عرفت إن إشبيلية بلدة طرب وسرور في معظم أدوارها ولطبيعة الإقليم دخل كبير في هذا الشأن.

في إشبيلية قصور كما في قرطبة مصايف زرتها وزرت حدائقها وطوفت في أعطافها وهي ملك لأناس من أغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم إلى سيد ومنها ما جعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل إليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل إلى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلا من النقود لتصرف منه على الترميم فليس في البلاد ما يعفي الناظر إليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار إلا إذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة

التي قامت في كل ناحية من أنحاء البلاد التي ظل فيها حكم العرب نافذًا دهرًا طويلًا.

كانت إشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت في أيدي الأعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم إلى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بني نصر تخفق. وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ ألفًا وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم إلا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها إلى الحضيض.

مدينة غرناطة

١٠٢

بلد يجف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره

هذا ما قاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ما حكمته العرب من أرض الأندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمروها فأدهشوا العالم بعمرانها. جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا أن يبقوا في البلاد التي وقعت في قبضة العدو يجتمعون بملوكها من بني نصر جاؤها ألوفًا ألوفًا من قرطبة وإشبيلية وبلنسية يحملون إليها ما كان مبعثرًا من الصنائع والثروة في تلك الأرجاء.

قالوا إن غرناطة قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلًا يخترقه نهر شنيل المشهور

وسواه من الأنهر الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة. وحكى ابن سعيد إن غرناطة تسمى دمشق الأندلس لكني أهل دمشق بها عند دخولهم الأندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والأشجار وقد أطل عليها جبل الثلج Siena Nevada - كما أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق - وفي ذلك يقول ابن جبير:

يا دمشق الغرب هاتيك	لقد زدت عليها
تحتك النهار تجري	وهي تنصب إليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير إلى أن غرناطة في مكان مشرف وغوطتها تحتها تجري فيها الأنهار ودمشق في وهدة تنصب إليها الأنهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنة تجري من تحتها الأنهار. أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق بأشجارها الملتفة ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرداء ولذلك كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع إذا أطللت عليه من سفوح لبنان الغربي. وغرناطة في كورة البيرة من أشرف كور هذا الإقليم نزلها جند دمشق. قال الرازي: وخص البيرة أي سوادها وريفها لا يشبه بشيء من بقاع الأرض طيبًا ولا شرفًا إلا بالغوطة غوطة دمشق.

وقال ابن الخطيب: وفحصها أي فحص غرناطة لا فيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالي قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الأنهار والجداول وتزاحم فيه الغرف والجنات في ذرع أربعين ميلًا ونحوها تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب والجبال لمتطامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منه المدينة فيما يلي المركز من جهة القبلة مستندة إلى

أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال.

وينزل الثلج شتاء وصيفًا على جبل غرناطة وينبجس منه ستة وثلاثون نهرًا كما تنبجس من سفوحه العيون. قال أبو الحجاج ابن حسان:

أحـن إلـى غرناطـة كلمـا هفـت ... نـسيم الـصباتهدى الـصبا وتـسوق
سـقى الله مـن غرناطـة كـل منهـل ... بمنهـل سـحب مـاؤهن هريـق
ديـار يـدور الحـسن بـين خيامهـا ... وأرض بهـا قلـب الـشجي مـشوق
أغرناطــة العليــاء بــالله خبـري ... أللهــائم البــاكي إليــك طريــق؟
ومــا شــاقني إلا نــضارة منظـر ... وبهجــة دار للعيــون تــروق
تأمـل إذا أملـت حـوز مؤمـل ... ومـد مـن الحمـرا عليـك شـقيق
وأعـلام نجـد والـسكينة قـد علـت ... وللـشفق الأعلـى تلـوح بـروق
وقـد سـل شـنيل فرنـدًا مهنـدًا ... نـضى فـوق در ذر فيـه عقيـق
إذا نـم منـه طيـب نـشر أراكـه ... أراك فتيـت المـسك وهـو فتيـق
ومهما بكـى جفـن الغمـام تبسمت ... ثغـور أقـاح فـي الريـاض أنيـق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الأحمر من دولة بني نصر بالسيف تارة وبحسن لسياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين الأسبانيين وبني مرين المراكشيين تارة أخرى جعلها العرب الذين طردوا من المدن المجاورة وطنًا لهم ونشط ملوكها لصنائع والتجارة وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فأتم الثاني ما بدأ به الأول وزينوا البلاد بأبنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة في شبه جزيرة بيريا وبحكمة أمرائها انبعثت منها شعلة المدنية المغربية في أسبانيا وأنست عنايتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة وما كان فيها من العلوم

والصناعات وجمال البناء وأصبحت قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة «فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود» ولما استولى عليها الأسبان سنة ١٤٩١م بعد أن حاصروها سبعة أشهر فنيت في خلالها أزواد المحاصرين من العرب وفنيت خيلهم كما فني كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات - كان سكانها نصف مليون نسمة (نفوسها اليوم ٧٦ ألفًا) فانحطت على عهد الأسبان بعد حين وأقفرت من السكان بما أصدره الملوك الكاثوليك من الأوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان التفتيش الديني ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجًا متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب إن الأبراج بلغت إلى ما يناهز أربعة عشر ألفًا وكان في جوارها ما ينيف على ثلاثمائة قرية عدا ما يجاور الحضرة من قرى الأقليم أو ما استضيف إليها من حدود الحصون المجاورة (وكان أكثرها أمصارًا فيها ما يناهز خمسين خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الأيدي وتتوجه الوجوه ويشتمل سورها وما وراءه من الأرجاء الطاحنة بالماء ما ينيف على مائة وثلاثين رحى).

قصر الحمراء

١٠٣

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقياوكم ... ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشأن

الحمراء ويقال لها القصبة الحمراء ومعنى القصبة عندهم القلعة وتسمى حمراء غرناطة وهي مطلة على مدينة غرناطة إطلال الصالحية من

سفح قاسيون على دمشق، سميت بالحمراء لإحمرار جدرانها بل للون التربة التي قامت عليها في سفح جبل غرناطة ومعظمها مبنى بالخزف والكلس والحصباء. وفي قصبة الحمراء قصور العرب وهي ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى القائمة على تلك الأكمة وقد بني كل قصر منها في زمن غير زمن القصر الآخر وبقي من القصر الأول شيء قليل وهي المقصورة والكنيسة وكان جامعًا بناه محمد الثالث من ملوك بني نصر قال فيه ابن الخطيب إن أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش وفخامة العمل وأحكام أنواع الفضة وإبداع أثرها أنفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يتيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه.

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة. والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلًا وكان فيه دائرة حرمه ومساكنه الخاصة وفي هذا القصر صحن الأسود وهو في الجزء الأوسط منه.

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ مترًا بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه إلى الشمال أمام المدخل وهي تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت في كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمي أو الشمسية تدفع حرارة الشمس. ونقش هذه القاعة من أجمل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطري على الجدران في قوالب من حديد وهي إلى الحمرة والزرقة المشبعة.

أما فناء الأسود فهو صحن واسع فيه اثنا عشر أسدًا رابضًا من الرخام تحمل الإناء العظيم القائم وسط الدار ويخرج الماء من أفواها وتسيل

الفوارات من أعلى الصحن الذي جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق القديمة وكأن ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عندما وصف دار المنصور ببجاية فقال:

واعمر بقصر الملك ناديك الذي ... أضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو أنك قد كحلت بنوره ... أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه ... فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسي «الصبيح» مع «المليح» بذكره ... وسما ففاق خورنقًا وسديرا
ولو أن بالإيوان قوبل حسنه ... ما كان شيئًا عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الأولى ... رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... لملوكهم شبهًا له ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا ... غرفًا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم ... ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت ... حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الأفلاك إلا أنه ... حقر البدور فاطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر ... ثم انثنيت بناظري محسورا
وظننت أني حالم في جنة ... لما رأيت الملك فيه كبيرا
وإذا الولائد فتحت أبوابه ... جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم ... فغرت بها أفواهها تكسيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها ... من لم يكن بدخوله مأمورا
تجري الخواطر مطلقات أعنة ... فيه فتكنو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه ... فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه ... مسكًا تضوع نشره وعبيرا

يستخلف الأصباح منه إذا انقضى ... صبحًا على غسق الظلام منيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارًا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعًا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النهي تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما ... قنصت لهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لواقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موضع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤًا منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الأبواب تبرًا نظروا ... بالنقش بين شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت ... فلك النهود من الحسان صدورا
خلعت عليه غلائلًا ورسية ... شمس ترد الطرف عنه حسيرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه ... أبصرت روضًا في السماء نضيرا

وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأن ماء اللازورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الأرض الذي أضحى له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة منها ودمرت العدا تدميرا

وهناك قاعة الحكم وقاعة بني سراج والمقصورة. تخرج من واحدة فتدخل في أخرى فتخالك في جنة عالية قطوفها دانية لا تستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة الأختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها من أقصى ما بلغه النقش العربي من الإتقان وأهم ما فيها المقرنص الذي حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف منها مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر والعمل وكأنها كانت في يد صانعها كالعجين يعمل فيها ما شاء من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسسها يد بشر.

وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهي حديقة كبرى فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها في منحدراتها وأكماتها وبسائطها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح ومغاور ومخابئ وفوارات وسياج تشبه المصايف الإيطالية في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة يدعونها سروة السلطان عمرها

نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال تواعدت امرأة أبي عبد الله مع ابن سراج.

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة في غرناطة ما يناهز مائة جنة مثل جنة العريف على ما روى صاحب الإحاطة وناهيك بمدينة فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك في الحقيقة من أمارات المدنية والرفاهية.

ورد ذكر الحمراء لأول مرة في واقعة حدثت سنة ٢٧٧هـ فاعتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الأسبانيين فنجا الأمير الأموي بحيلة غريبة وخرج مخرجًا مدهشًا مع رجاله ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون إلى هذا القصر. واشتهرت الحمراء على عهد دولة بني نصر أو بني الأحمر الذين استقلوا بإمارة غرناطة بعد سقوط قرطبة وإشبيلية وجعلوها عاصمتهم فأنشا محمد بن الأحمر صره الملكي بالقرب من السور والقلعة وفي عهد الإمبراطور شارلكان جعل جامع الحمراء كنيسة فأندلت صورة القصر الملكي القديم وأنشئ باب المدخل الذي يجتاز منه السور الذي طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج.

وقالوا إن فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكية عنيا كل العناية بالحمراء لما اغتنما فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على إخراج جميع العرب من أسبانيا وقد أمرا بترميم نقوشها الداخلية ورمما جدرانها وكان شارلكان على شدة حرصه على آثار الحمراء والإبقاء عليها غمر مباني ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا في معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب إليه من القول عندما وقع بصره على آثار الحمراء: يا لشقاء من أضاع كل هذا.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية: وإذا وقع التنظير بين قصر الحمراء والقصور والجوامع التي بنيت على ذاك العهد في القاهرة مثلًا كجامع السلطان حسن الذي بني سنة ١٣٥٦م تبين الفرق العظيم بين البنائين فإنك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالًا كثيرة في حين بني قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد في مملكة من الممالك قصر إسلامي مثل الحمراء وبقدمه لم يبن له شبيه مع أنه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم إلا أبنية العصر الأموي التي عثر عليها الباحثون في بادية الشام شرقي بلاد موآب وبعض الخرائب من العصر العباسي في سامرا والرقة.

وقصارى القول أن الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة ومتنزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه تبهر الأبصار وفي مسالك الأبصار: إن الحمراء كثيرة المباني الضخمة والقصور ظريفة جدًّا يجرى بها الماء تحت بلاط كما يجرى في المدينة فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من أبدع الجوامع حسنًا وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جملة ما نمق به من الذهب والفضة ومنبره من العاج والآبنوس.

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سلموها إلى مهندسين من العرب بلغ من حذقهم إنك لا تعرف ما أدخلوه فيه من الإصلاح ولا تميزه عن الأصل الذي كانت عليه من قبل. ودام هذا الترميم في الحمراء إلى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفي سنة ١٥٢٢ أصيبت بهزة أرضية وفي سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها في القرن السابع عشر والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسمًا منها بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصنًا وذلك عند

جلائهم عن أسبانيا ثم أخذت همة حكومة أسبانيا تتجدد لا عادة الحمراء إلى حالتها الأولى.

ويقول جوسيه إن ملوك أسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا آثار خصومهم معاملة أعداء بل معاملة أصحاب. وبعد أن ذكر كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا إلى مهندسين من العرب استخدموهم لترميمها قال: وأهملت الحمراء من بدء القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود بياطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرانيون وأسرات فقيرة فكانت الأوساخ فيها وفي جدرانها والناس يعبثون بما فيها وربما أصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة أسبانيا على تعهد تلك القصور وإرجاعها إلى حالها وكانت الهمة في هذا الشأن تفتر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك أسبانيا ودرجتهم من العقل والفهم.

وفي هذا القصر أو المدينة البديعة ماعدا الآثار العربية قصر شارلكان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من الجزية التي كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم بإجراء بعض شعائرهم. ومن أعمال شارلكان أبنية لم تتم لقلة المال فيما يظهر والغالب أنه حاول بما أنشأه من الأبنية أن يطمس آثار العرب ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ما أراد وبقيت الحمراء أجمل مثال في القصور على مر العصور والدهور.

وليس في الحمراء من الفرش والأواني الباقية من عهد العرب سوى جرة طولها أكثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها لمعان لازوردي وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهي من صنع معامل غرناطة في القديم.

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلى يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكأن ابن حمديس وصفه إذ قال:

قصر يقصر وهو غير مقصر ... عن وصفه في الحسن والإحسان

وكأنه من درة شفافة ... تعشى العيون بشدة اللمعان

لا يرتقي الراقي إلى شرفاته ... إلا بمعراج من اللحظان

عرج بأرض الناصرية كي ترى ... شرف المكان وقدرة الإمكان

في جنة غناء فردوسية ... محفوفة بالروح والريحان

وتوقدت بالجمر من نار يحها ... فكأنما خلقت من النيران

وكأنهن كرات تبر أحمر ... جعلت صوالجها من القضبان

إن فاخر الأترج قال له ازدجر ... حتى تجوز طبائع الأيمان

لي نفحة المحبوب حين يشمني ... طيبًا ولون الصب حين تراني

متى المصبغ حين يبسط كفه ... فبنان كل خريدة كبناني

والماء منه سبائك فضية ... ذابت على درجات شاذروان

وكأنما سيف هناك مشطب ... ألقته يوم الحرب كف جبان

كم شاخص فيه يطيل تعجبًا ... من دوحة نبتت من العقيان

عجبًا لها تسقي الرياض ينابعًا ... نبعت من الثمرات والأغصان

خصت بطائرة على فنن لها ... حسنت فأفرد حسنها من ثان

قس الطيور الخاشعات بلاغة ... وفصاحة من منطق وبيان

فإذا أتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان

وكأن صانعها استبد بصنعة ... فخر الجماد بها على الحيوان

أوفت على حوض لها فكأنها ... منها إلى العجب العجاب رواني

فكأنها ظنت حلاوة مائها شهدًا فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من أنبوبها ماء يريك الجري في الطيران
مركوزة في الرمح حيث ترى له من طعنه الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمي السماء ببندق مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نقطًا أحرقت في الجو منه قميص كل عنان
في بركة قامت على حافاتها أسد تذل لعزة السلطان
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها فلذلك انتزعت من الأبدان
وكأن برد الماء منها مطفئ نارًا مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها يطرحن أنفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان إذ لم تخشها أخذت من المنصور عقد أمان
كم مجلس يجري السرور مسابقًا منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سمكها علوية وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٠٤

تقرأ في قصر الحمراء كثيرًا من الآيات والمواعظ والأشعار زبرت على المجر أو بالجص بالخط الأندلسي المشبك وهو أقرب إلى النسخ المتعارف في هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربي ومما تقرأه على أحد الأبواب «أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب الشريعة أسعد الله به شريعة

الإسلام كما جعله فخرًا باقيًا على الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافي الله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فشيد ذلك في شهر المولد المعظيم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعلة الله عزة واقية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية».

ومنها «الملك الدائم والعز القائم» ومنها «الحمد لله على نعمة الإسلام» ومنها «عز لمولانا أبي عبد الله» ومنها «ولا غالب إلا الله» ومنها «وما بكم من نعمة فمن الله» ومنها «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين» ومنها «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» ومنها «فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين» ومن الأبيات التي رسمت على إحدى القباب في مدح أبي الحجاج يوسف الأول:

تبارك من ولاك أمر عباده	فأولى بك الإسلام فضلًا وأنعما
فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها	وأمسيت في أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الأسار فأصبحوا	ببابك يبنون القصور تخدما
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة	ففتحت بابًا كان للنصر مبهما
ولو خير الإسلام فيما يريده	لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

إلى أن قال:

فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا	وأربهت حتى النجم في كبد السما
فإن رعشت زهر النجوم فخيفة	وإن مال غصن البان شكرك يمما

ومنها:

ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا   وصيرت ما فيها لجيشك مغنما

وكتب في قاعة السفراء:

أنـا محـلاة عـروس   ذات حـسن وكمـال
فـانظر الإبريـق تعـرف   فـضل صـدقي فـي مقـالي
واعتبـر تـاجي تجـده   مـشبهًا تـاج الهـلال
وابـن نـصر شـمس فلـك   فـي ضـياء وجمـال
دام فـي رفعـة شـأن   آمنًـا وقـت الـزوال

وكتب أيضًا:

وحكيت كرسي العروس وزدته   أني ضمنت سعادة الأزواج
من جاءني يشكو الظماء فموردي   صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام إذا بدا   والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروس المثابة ماغدا   بيت الإلاه مثابة الحجاج

وكتب على القبة:

تحييك مني حين تصبح أو تمسي   ثغور المنى واليمن والسعد والأنس
هي القبة العليا ونحن بناتها   ولكن لي التفضيل والعزفى جنسي
جوارح كنت القلب لاشك بينها   وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وإن كان أشكالي بروج سمائها   ففي عدا ما بينها شرف الشمس

ومما كتب أيضًا على بركة صحن الأسود وهو من نظم الوزير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين بن الخطيب:

تبارك من أعطى الإمام محمدا مغاني زانت بالجمال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدائع أبى الله أن يلفي لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها تحلى بمرفض الجمان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد فلم ندر أيا منهما كان جاريا
ألم تر أن الماء تجري بصفحها ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلالة تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلدًا تجدد أعيادًا وتبلى أعاديا

ومما كتب في إحدى القاعات أيضًا من نظم الوزير ابن زمرك:

أنا الروض قد أصبحت بالحسن تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الإمام محمد بأكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فإنه يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزه تجد به (؟) نفس الحليم الأمانيا
تبيت له خمس الثريا معيذة ويصبح معتل النواسم راقيا
به القبة الغراء قل نظيرها ترى الحسن فيها مستكنًا وباديا
تمد لها الجوزاء كفّ مصافح ويدنو لها بدر السماء مناجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في أفق السماء جواريا

ولو مثلت في ساحتيها وسابقت إلى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجب أن فاقت الشهب في وإن جاوزت فيها المدى المتناهيا
فبين يدي مولاي قامت لخدمة ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللته بحليها من الوشي تنسى السابري اليمانيا
وكم من قسى في ذراه ترفعت على عمد بالنور بانت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
سواري قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها على عظم الأجرام منها لآليا
فلم نر قصرًا منه أنعم نضرة وأعطر أرجاء وأحلى مجانيا
مصارفة النقدين فيه بمثلها أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا
فإن ملأت كيف النسيم مع الضحى دراهم نور ظل عنها مكافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها دنانير شمس تترك الروض حاليا

ومن الأبيات اللطيفة:

وجاد بها برد الهواء نسيمها فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية تقبس عنها الشهب في الأفق الأعلا
وإني بهذا الروض عين قريرة وإنسان تلك العين حقًّا هو المولى

وفي الأندلس إلى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها ومدارسها وترَبها وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى بعض كتابات من النظم والنثر وبعضها مثال البلاغة والفصاحة لأن الأندلسيين

عاشوا وتنعموا في أرض معتدلة الهواء جميلة الطبيعية فلا بدع إن جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت في كتابهم وشعرائهم آثار الإبداع والإعجاب.

ذكرى مؤلمة
١٠٥

مضت أعوام تلتها أعوام، والنفس تتحدث بالارتحال إلى الأندلس المحبوبة، تستنفض معالمها ومجالها، وتستبطن معاهدها ومصانعها فتتدبر وتدكر، وتستفيد وتفيد.. ولما أناحت لها الأقدار بلوغ تلك الأمصار، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكرى، ذكرى التطواف في الأندلس بعد عزها للاعتبار، بالدمي والأحجار، واستنطاق الآثار، واستقراء الأخبار، لمعرفة عمل العرب في تلك الديار.

اتفق نزولي غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني، اليوم الذي خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر من عاصمة الأندلس. وانتقلت أحكامها إلى أيدي الغالبين من الأسبانيين. والجرس يدوي في كنيسة الحمراء دويًا متواصلًا لا متساوقًا مدة أربع وعشرين ساعة، احتفالًا بهذا اليوم الذي يعده أهل أسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الغر. احتفلوا به ضروب الاحتفال، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة أدبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حللته في جوار الحمراء واسمه نزل «واشنطون» على اسم واشنطون محرر أميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم.

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم، وقد رفع الصليب الفضي على أعلى برج في الحمراء إشارة إلى ظفر الأسبان الأخير وخروج العرب من هذه الديار، وقد أخذ أبو عبد الله بن الأحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن يبغته العدو فيها، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج إلى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي، وأمه ترافقه وتقول له: لا تبك كالنساء ملكًا لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال.

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوي وقد احتفلوا به حتى اليوم أربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على أعدائهم ويومًا تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية، وقد مثلوا أفظع مأساة ارتكبتها أنفس متعصبة جاهلة، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقًا بشعة، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم، وهم في رفعة ومنعة، وغبطة وسعة. يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون أرواحهم ليوقظوها. ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليعلموهم أن غلبة سنة ١٤٩٢ وإن كانت من باب تسلط الجهل على العلم إلا أنها دلت على أن الثأر لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون.

وما كان أجدر بالعرب أن يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الأندلس من أيام البؤس المشتملة بالحزن المملوءة بالاستعبار، يتناشدون فيه التعازي والمراثي، ويتطارحون حديث محنة مضت، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد.

قيل إن أناسًا من جالية الأندلس في بر العدوة ما برحوا إلى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلدًا نبت لهم فيه العز، وأثمر المجد والسعد، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلفاته ، مفاتيح داره في

الأندلس على أمل أن يعود أولاده إليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها. تذكار إن عده بعضهم في باب الهزل، وقيده في سجل المستحيلات، يحوي ولا جرم في مطاويه أجمل العظات، وأعظم التذكارات.

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله أن يقيم كل سنة المآتم على ما حل به خصوصًا في البلاد التي يبعث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فإن بعض العناصر الأوربية كالأسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلاد مراكش أن يجلوهم عنها بعد أن تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرنًا أقاموا خلالها مدنيات وأنشأوا أمجادًا لهم ودولات.

إن العرب الذين أنشأوا من العدم مدينة الأندلس وقاموا في عصور الظلمات بأعـ ـن لا يكاد يصدق الناظر إليها أنها بنت قرائحهم، وثمرة عقولهم، لو لم تتناصر على ذلك أصدق الروايات، لا يعجزهم اليوم، والعصر عصر النور، أن يقوموا بمثل ما عمله أجدادهم، لو نفس خناقهم، وملكوا زمنًا قياد أنفسهم. بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره، وأمامه أسبانيا والبورتقال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب اليوم عددًا وعددًا، ومضاء وغناء.

أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل إقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يدًا للمحسن إليها ولا إساءة مجرم جان عليها. العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة أبيريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية في عرف أهل تلك الديار،

أفليس من العدل أن تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة، في جانب ما حملوه إلى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات. ومستحسن الآداب والأخلاق. العرب حملوا إلى الأندلس حضارة رائقة، ونظامًا محكمًا، أحلوهما محل الفوضى والتوحش، والسخافات والخرافات.

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها أن تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها، فهل ينال العرب هذه الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الأوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلو الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الإنكليز والألمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور.

جلاء المسلمين وتنصيرهم
١٠٦

لما استولى المسلمون على الأندلس لم يكرهوا أحدًا من سكان البلاد الأصليين على الدخول في دينهم، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف، وأطلقوا للناس حريتهم في ذلك، فكان بعض الأسبانيين يدينون بالإسلام برضاهم.

فعهد العرب إذا في الأندلس كان عهد تسامح وحرية. لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي إلا دعاته المفرطون، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع، ويدعون المسلمين إلى دينهم، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة، وساووهم في جميع الأمور بأنفسهم. مثال من لطف الحكم تعلمه

الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة. وهم في عز سلطانهم، والقول الفصل في الأرض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة.

هكذا فعل العرب في أبان قوتهم. فانظر ماذا صنع الأسبان يوم قوي سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلًا عن شاهد العيان قال:

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل منتميس وحصن قمارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين. وحملوا ما قدروا على حمله من أموالهم فمنهم من جوزه العدو إلى أرض العدوة ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار إلى أرض المسلمين التي بقيت بالأندلس.

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وبلش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ. وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة.

وكان صاحب قشتالة كثيرًا ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التي يستولى عليها يبني بأنقاضها مسورات في بضعة أيام كما فعل في غرناطة. ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة. ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة

بالغرب يبيع أصله، ويحمل أمتعته. ويحمله في مراكبه إلى أي أرض أراد من المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين، ومن أراد الإقامة من المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتابًا، وأخذوا عليه عهودًا ومواثيق في دينه مغلظة. وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الأسبانيون. ولما سمع أهل البشرة أن أهل غرناطة دخلت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالأندلس.

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ما له ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن، ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعة، ومن المسلمين من طمعوا في عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالًا رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام في الأندلس.

ثم إن الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة إلى قرية اندرش من قرى البشرة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه، ثم ظهر له أن يصرفه فبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة فعاس من عدوة المغرب.

وأخذ ملك الأسبان بعد حين ينقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون، وشرع يفرض عليهم الفروض، وثقلت عليهم المغارم، وقطع لهم الأذان، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى،

وبعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهًا وصارت الأندلس كلها نصرانية، وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قرية ونجر والبشرة واندرش وبلفيق، فأخاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم، وامتنع أناس في غربي الأندلس من التنصر وانحازوا إلى جبل وعر منيع، فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالًا أعطاهم الأمان على أن يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على أن لا يسرح لهم شيئًا من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للإسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة.

قال السلاوي: التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهي سبعة وستون شرطًا عروة عروة ومنها إقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك إلى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة. وكان أهل الأندلس كثيرًا ما يهاجرون إلى بلاد الإسلام غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم (غير العرب من الأسبان) وأثر فيهم ذلك أثرًا ظاهرًا لطول صحبتهم لهم، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم إلى أن كانت سنة ست عشرة وألف، فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها. وفي خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية[1].

---

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا بإهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أي الأسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الجميادو - Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ما ليس بعربي أعجميًا وجرى على منوالهم

قال المقري: كان النصارى بالأندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى إنهم أحرقوا منهم كثيرًا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلًا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارًا ولم يقيض الله لهم ناصرًا إلى أن كان إخراج النصارى إياهم أعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفههم (١) ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام.

هذا ما رواه مؤرخو العرب وإليك ما قاله مؤرخو الإفرنج في هذه الكارثة: جاء في التاريخ العام للأفيس ورامبو: صحت النية سنة ١٦٠٩

الأندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أي الأسبانية باسم «الأعجمية» ثم انتقلت هذه اللفظة إلى اللغة الأسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الإفرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الأجاميا) ولما كان أهل أسبانيا يقولون أغلب الحيمات حاآت قالوا (الأحاميا) أو (الحميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم هي توضع في آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أي الأعجمي. (السفر إلى المؤتمر)

(١) قال ابن أبي دينار إن المهاجرين من الأندلس إلى تونس سنة ١٠١٧ - ١٠١٨هـ كانوا خلقًا كثيرًا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن وبنوا أكثر من عشرين بلدًا فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الأشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد، وذكر السيد حسن حسني عبد الوهاب من علماء تونس في رسالة بالإفرنسية ذكر فيها أصول التونسيين أنه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الأندلس لا أقل من مئة ألف أندلسي وأن الطبقة المتبدنة الغنية من الأندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء والإدارة والتعليم.

على نفي العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصرًا خاصًا عصى على التمثل ولم ينزل عن مشخصاته ومميزاته على كثرة ما بذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل ما يمكن لإهلاكهم فعمدت الحكومة إلى الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولإنجاز وحدة أسبانيا وإنقاذ البلاد من أولئك المحالفين سرًا للأتراك والإنكليز والفرنسيس على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت أسبانيا العواقب وقام رئيس أساقفة بلنسية يدعو إلى طرد العرب مدعيًا أن منهم تسعين ألفًا يستطيعون حمل السلاح وإذا أغار على أسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقعها. وإذا كان القشتالي كسلانًا فقيرًا كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي أكسبتهم غنى بفضل اقتصادهم نادي رئيس الأساقفة إن مما يخشى منه أن يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين إلى العدم والشقاء. وقال غيره إنهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض أسبانيا. وعلى هذا كان من التعصب الديني أن قضى على العرب. ولما تعذر تنصيرهم رأوا أن الطريق الوحيد إلى الخلاص من خطرهم المادي والمعنوي يكون بطردهم فقوي نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الإشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لأنهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ريعًا كبيرًا فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى أن يعمد إليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب في بلنسية والأندلس ومرسية وقشتالة وأرغون وكتلون أن غربوا (أيلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا إلى أفريقية حيث هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفًا منهم فاعتصموا في جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت أسبانيا بهم على أقرب تقدير من خمسمائة إلى ستمائة ألف من أحسن العاملين في الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وجدتها

الدينية بالثمن الغالي وفرح الرأي العام الأسباني إذ ذاك بما تم في هذا الشأن وعدوه من أعظم الأعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء! وقال مؤرخ أسباني: يا لسعادة ملك توفق إلى أن يعمل هذا العمل من طرد العرب. ولكن الأمم خارج أسبانيا عدوا عمل الأسبانيين من تغريب العرب جنونًا بل وصفه ريشليو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون.

وفي التاريخ العام أيضًا أن خضوع العرب في أسبانيا قد أقلق ملوك الكاثوليك [١] وفتح أمامهم مأسلة تطالوا إلى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشي وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا أن بعض مئات الألوف من الإسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم وهم على ما هم فيه من النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الأسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ما عليه الجمهور فبدأوا بالإسرائيليين حتى إن ميكل لوكاس أعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لإتهامه بالعطف على الإسرائيليين.

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ أن اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة أن يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع إلى دينه الأصلي أو كان ظاهرة مسيحيًا وقلبه وعاداته قلب إسرائيلي وعاده. وكان منهم طبقة غنية محترمة وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثاني إلا أن ديوان النفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم

(١) يريد ملوك أسبانيا فإن ملك أسبانيا لا يزال إلى اليوم يدعى في الرسميات صاحب العظمة الكاثوليكي Sa Majesté Cataica.

يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس [١] الذي عمد إلى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الأولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فإنهم لم يسلموا أيضًا واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم وكان الأسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الديني سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم.

وقال ريناخ: لم تكتف أسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين وإحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس أنه لا سبيل إلى قيام وحدتها إلا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢ ونفي العرب (١٦٠٩) فسار مئات الألوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الألوف فحرمت أسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل في أسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مئة ألف إنسان على الأقل ونفي منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة.

وقال سيديليو: كان طرد العرب من أسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفًا للكثلكة فاضر ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بإحراق ثمانين ألف مخطوط عربي في ساحات غرناطة.

---

(١) هو مرشد أزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة حكم أسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قصوا على العرب ومدنيتهم على ما مر بك في الفصول السابقة.

سقوط الأندلس
١٠٧

كان العرب في الأندلس في جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطئ طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها، ورفعوا علم الأمويين على ربوعها، ودفعوا بأعدائهم إلى أقصى الشمال. يسكن الجلالقة وغيرهم حينًا إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلًا إليهم أو نزوعًا إلى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الأسبانيين والبورتقاليين على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بني أمية أوائل المئة الخامسة وإن كان الثوار لم ينقطعوا تمامًا في الداخل عن مجاذبة الأمويين حبل السلطة.

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الأندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الأندلس ودعى نفسه ملكًا فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور.

مما يزهدني في أرض أندلس	أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخًا صورة الأسد

أو كما قال ابن حزم، فضيحة لم يقع في الدهر مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم في إشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الأمم الأسبانية والبورتقالية من الشمال والغرب.

سقطت الأندلس لتشتت أهواء أمرائها وأصبح بعضهم «ولا هم له سوى كأس بشربها وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه» واسترسلوا إلى اللذات وركنوا إلى الراحات، وأغفلوا الأجناد واحتجبوا عن الناس، ولم يعودوا ينظرون في الملك، ومنهم من قتل كبار قواده. ووسد الأمور إلى الضعاف فكثرت المظالم والمغارم، وكثر الثوار مرات بشرق الأندلس وغربها من القضاة وغيرهم، وهكذا تبدد شمل الجماعة «فضبط أشراف العمالات أزمة أمورهم، وركبوا ظهور غرورهم، فأتوا من ذلك بكل شنيعة».

قال ابن حزم: كانت طرطوش وسرقسطة وأفراغة ولاردة وقلعة أيوب في يد بني هود وبلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغراى ما فوق طليطلة من جهة الشمال في يد بني رزين وطليطلة في يد بني ذي النون وقرطبة في أيدي أبناء جهور وإشبيلية في يد بني عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بني برزال من البربر والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح ودانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العامري وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة في يد بني الأفطس وأصبح كل امرئ وما اختار من الألقاب والأسماء حتى إن المستعين لما جلس على عرش الخلافة قال للناس أجمعين: ارتعوا كيف شئتم، وارتسموا بما أحببتم من الخطط، فتسمى بالوزارة في أيامه منفردة ومثناة (أي الوزير وذي

الـوزارتين) أراذل الـدائرة، وأخابـث النظـار، فـضلًا عـن زعـانف الكتـاب والخدمة.

قسمت الأنـدلس بعـد سقوط الأمـويين، إلـى تسع عشرة مملكـة منهـا قرطبـة وإشـبيلية وجيـان وقرمونـة والغـرب والجزيـرة الخضراء ومرسـية وبلنسية ودانيـة وطرطوشـة ولاردة وسرقـسطة وطليطلـة وباجـة ولـشبونة وغيرها. ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع أمر الدولة الأموية أن تـسقط الأنـدلس دفعـة واحـدة ولكـن قـدر الله أن يكـون ملـوك الجلالقـة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة أهواؤهم وقيض للبلاد دولة أخرى جديـدة قويـة جاءتهـا مـن الجنوب أي مـن المغـرب الأقـصى وهـي دولـة المـرابطين فـأفرج بهـا عـن العـرب بعض الفـرج فجـاء يوسـف بـن تاشـفين وقاتـل الأدفـنش سنة ٤٨٠ وانتـصر عليـه وكانـت الـبلاد إلى البـوار بـسبب استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة.

ثـم عـادت أحـوال الأنـدلس فاختلـت اختلالًا مفرطًـا آخـر دولـة أمـير المـسلمين علـي بـن يوسـف أوجـب ذلـك «تخـاذل المـرابطين وتـواكلهم، وميلهم إلى الدعـة، وإيثارهم الراحـة، وطـاعتهم النسـاء، فهـانوا علـى أهـل الجزيرة، وقلوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدو، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم». حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبـل بـدعوة عقـلاء الأنـدلس وأمرائهـا وقـد كـانوا يـدعونهم إلـى نـصرتهم بضروب الفصاحة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة.

لما اشتد الحصار على أهل إشبيلية سنة ٦٤٥ صنع إبراهيم بن سهل الإسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بأمراء العرب وذلك إذ كان العدو عليها قال فيها:

يـا معـشر العـرب الـذين توارثـوا شـيم الحميـة كـابرًا عـن كـابر

إن الإلـه قـد اشـترى أرواحكـم بيعـوا ويهنـئكم وفـاء المـشترى
أنـتم أحـق بنـصر ديـن نبـيكم وبكـم تمهـد فـي قـديم الأعـصر

إلى أن قال:

والخيـل تـضجر فـي المـرابط عـرة إلا تجـوس حـريم رهـط الأصـفر
كـم نكـروا مـن معلـم، كـم دمـروا مـن معـشر. كـم غيـروا مـن مـشعر
كـم أبطلـوا سـنن النبـي، وعطلـوا مـن حليـة التوحيـد صـهوة منبـر

إلى أن قال:

عنـد الخطـوب النكـر يبـدو فـضلكم والنـار تخبـر عـن ذكـاء العنبـر
لـو صـور الإسـلام شخـصًا جـاءكم عمـدًا بـنفس الوامـق المتحيـر
ولـو أنـه نـادى النـصير لخـصكم ودعـاكم يـا أسـرتي يـا معـشري

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب في الأندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب في صقلية سنة ٤٣١ فإنهم بعد أن دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية إلى إمارات صغرى فأنشئوا جمهورية في بلرم وأخرى في سرقوزة وكان ذلك من أكبر الدواعي في زوال سلطانهم. لا جرم أن ضعف الوازعين الديني والمدني من ميل القوم إلى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربية فيهم وانتشار الفوضى في أحكامهم كان منه أن تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من أن رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الأندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لأن للعرب عامة غرامًا به والأدب وسيلة إلى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرفت تاريخها بالفصاحة والبلاغة.

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والأسبان والبورتقاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الأندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظمًا أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الأندلس يعتمدون على جنود لهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الأسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف والرمح لقتال أعدائهم [١] والعرب لا يجوزون أن يستبدلوا العادات الحربية بأعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون إلى الخدمة في الجندية ويرافق الأشراف ملوكهم إلى الحرب مع أتباعهم.

أما العرب فلا يخرج أحدهم إلا إلى الجهاد وإذا خرج فيكون خروجه على الأغلب متكارهًا لمدة معينة فكانت أوضاع الأسبان حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال أما في البحر فكان العرب أشد بأسًا وأقوى أساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الأندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل إشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفنًا جديدة تمخر في عرض البحار.

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله: وحلل هذه الأمة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقة، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية، عادة العرب الأول وأخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال، والزحف على الأقدام، أميرهم ومأمورهم، والجثو على الأرض، أو الدفن في التراب، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الألحان المهيجة، ورماتهم قسيهم عربية جافية، وكلهم دروع، ولا لجام عندهم، والتقهقر مقدار الشبرذنب عظيم وعار شنيع، ورماتهم يسبقون الحيل في الطراد، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب أهـ.

استولى الملوك من بني الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك وهم الذين استولوا على بقايا مجد العرب بعد أن انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣هـ على الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلدًا من جملتها إشبيلية ومرسية ثم عاد العدو وأخذ بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقوي الأسبان باتحاد إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك الأراغون أي باتحاد المملكتين الرئيستين في الشمال تأذن الله بفناء الأندلس فلم يبق أمامهم إلا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم.

جبل طارق وطنجة

١٠٨

كان جبل طارق الذي نسب إلى طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو المكان الذي بلغه في جيشه أواخر المئة الأولى بأيدي العرب مدة استيلائهم على الأندلس فلما دالت دولتهم عاد إلى الأسبان ولبث في حكمهم إلى القرن الثامن عشر واستولى الإنكليز عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الأسبان في سنة ١٧٠٤-١٧٧٩ بمعاضدة الأسطول الفرنسوي للاستيلاء عليه فلم يستطع الأسطولان الفرنساوي والأسباني تخليص هذا الحصن من أيدي الإنكليز.

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ مترًا وهو متصل مع القارة الأوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة. وقد جعل الإنكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من أحصن ما في العالم من الحصون. فهو في الحقيقة قطعة من أرض أسبانيا ولكنه إنكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث أوربا أميركا وأفريقية.

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألفًا ماعدا الحامية الإنكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية وكذلك أبنيتها مزيج من طراز الأبنية عند الأمم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الأسبانية والإنكليزية. ولا يحق اليوم لغير الإنكليزي التبعة أن يقتني ملكًا في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الأجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بني في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر.

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل أسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة.

وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الأوربية عليها فينتقل السائح انتقالًا فجائيًا من مدنية راقية إلى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الأوربية والأفريقية إلا مجاز صغير العرب يسمونه الزقاق.

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الإنكليزية التي تسافر من جبل طارق إلى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في أرجائها وسكانها اليوم نحو أربعين ألفًا فيهم كثير من الأسبانيين والبورتقاليين والطليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ما تداول عليها من الأمم بعد الإسلام فقد استولى عليها البورتقاليون سنة ١٤٧١م والإنكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والأسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الأقصى. ويقيم فيها كثير من معتمدي الدول والسلاطين المخلوعين من أمراء المسلمين في الغرب الأقصى أمثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ.

نعم إن المراكشيين مازالوا في هذا الثغر وما وراءه من البلدان على تصلبهم في عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من أوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحرًا لا يفصلهم عنها إلا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلًا «وهو أضيق موضع فيه وأوسع موضع

فيه نحو ثمانية عشر ميلًا» قال الفقيه لمرادي المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله إلى مدينة سبتة:

سمعت التجار وقد حدثوا ... بشدة أهوال بحر الزقاق
فقلت لهم قربوني إليه ... أنشفه من حر يوم الفراق
فلما فعلت جرت أدمعي ... فعاد كما كان قبل التلاق

علم المشرقيات في أسبانيا
١٠٩

كان على أسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون أن تكون أول دولة غربية تعني باللغة العربية ولكنها تعد من الأواخر لأن الارتقاء يتبع بعضه بعضًا ولا تنفق أمة إلا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ أن أول مدرسة [1] عربية أنشئت في طليطلة أوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الأسبانيين على مناحي العرب وفي سنة ١١٣٠ أنشأ رئيس أساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والأفكار العربية في أسبانيا المسيحية. وكان من نتائج وقعة العقاب أن حررت أسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة أن ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وأنهم في حاجة بعد إلى أن يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم إلا لداء من العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لأسبانيا المسيحية ما عمله العرب لإعلاء شأن الإسلام وذلك بالأخذ بأحسن ما في الحضارتين ومزجهما بالحضارة

---

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع.

الأسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ في إشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى إلى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليلطة الثانية وقوامها اختيار أحسن المعارف النافعة وهي أقرب إلى التسامح من المدرسة الأولى إذ كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني.

كان لليهود يد طولى في نقل العلوم من العربية إلى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الأندلس بعد الأمويين كانوا إلى التعصب. بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الإسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدنية العرب في الأندلس.

ثم بدا لرجال الدين من الأسبان أن يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فأخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربي باللغة الأسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٣١١ - ١٢ امتدح البابا أكلمنص الخامس في أحد المجامع الدينية من إنشاء درس لتعليم العربية في مدرسة صلمنكة وفي أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة في نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية في ميرامار وأنشأ المجمع الديني في طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية إلى القرن الثامن عشر في أسبانيا هي القائمة بدعوة المستشرقين إلى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه.

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة في أوربا حتى غدت إحدى المراكز العلمية الأربعة وهي باريز وإكسفورد وبولون إلا أنها بتأثير العلم العربي أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن في مدرسة صلمنكة في أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية وأخرى للعبرانية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب.

ولما أعلن الأسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصرون المسلمين بالإكراه وفي سنة ١٥٠١ - ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الإسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لأنها أفسدت أفكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وقام في أذهانهم أنها خطر عليهم.

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد أن أحرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية أن تباد كتب العرب من بلاد أسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها إلى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد. وأخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه إبادة كل أثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا إبداء أسفهم إلا سرًّا وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أي المكتوبة بحروف أسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمهم.

وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية وعن

أجسامهم الألبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه في سواد أبناء المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية في أسبانيا غير ذكراهما وزهد القوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في تعليم العربية في أسبانيا اللهم إلا على طريقة إفرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصًا ولربما اتهم من يتعلمها بالإلحاد بعد أن كان أهل الطبقة العليا من الأسبان أيام عز العرب يحلون بأقوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستنفيد لا درس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة.

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان في أشبيلية من أساليب تعلم العربية إلا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد إلى أسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهبانًا موارنة من سورية ليعلموا الأسبانيين لغتهم الأصلية الثانية ويحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر أن يباهي بأساتذة متمكنين من أسرار العربية في أسبانيا.

ولما أدخل الإصلاح إلى الكليات القديمة في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات أسبانيا رسميًا ولما استلمت الحكومة الأسبانية سنة ١٨٥٧ زمام إصلاح التعليم من دون رجال الدين أو الملك أو الإشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود إليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة أسبانيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر فأخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الأسكوريال ومكتبة الأمة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية

المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة. دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات.

والعربية اليوم تدرس رسميًا في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة إلا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الأسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتبًا عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الأندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالأغلاط والتحريف وهو دون ما نشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والطليان من هذا القبيل من حيث الصحة والإتقان.

وأنت ترى أن الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي إليه كما كان في معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة أبيريا أي في أسبانيا والبورتقال قليل. وفي جامعة لشبونة عاصمة البورتقال درس عربي اليوم ومدرسة الأستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البورتقال اليوم كما أن الأستاذ آسين مرجع الأسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي.

أسبانيا بعد العرب

١١٠

من ألقى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة أسبانيا يوقن أن الانحطاط دب في أهلها منذ قرون وأن تراجع أمرها يرجع تعليله إلى أمور كثيرة أفاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء، وانحطاط الأسبان كيف

كانت الحال مؤكد لا يختلفون هم فيه ومنهم من يقول أن منشأه حروبهم مع العرب وفتح أمريكا فنفدت قوة الأمة في أعمال هي الجنون بعينه. ويقول - القشتاليون إن جلوس ملك غريب على عرش أسبانيا أنتج سلسلة من المصائب ما زالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها. ويزعم بعض مؤرخيهم أن الأصل في انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعدها على النمو. ويدعي آخرون أن السبب في بقاء أسبانيا منحطة ميل الشعب إلى المقاومة والمشاكسة وغرامه في الاستقلال بحيث انقلب ذلك إلى فوضى وغدت بلادهم مسرحًا للفتن الأهلية وشغلت برد غارات المغيرين عليها ويدعي فريق آخر أن هذه الأخلاق في الأسبانيين وتحمسهم في رد غارات العدو وتغني أهل كل صقع بمزاياهم وركونهم إلى العزلة والاستئثار - كل ذلك من أمارات الوطنية فيهم وإن كانوا في الأكثر إذا شكا عضو من أعضاء البلاد أو قطر من أقطارها لا يشاركه في شكواه جاره ولا أخوه. وعماد الوطنية عندهم هو لدين الكاثوليكي يسيرون بسيره ويندفعون بعوامله. ولا شأن في أعمالهم للآراء التي تمليها المصلحة وتنبعث من عظمة الأمة. وينسب بعض الكتاب الذين كتبوا عن أسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر في انحطاط أمتهم إلى تشبعها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويجيب آخرون أن ضعف الوازع الديني في قومهم هو الذي كان به مبدأ انحطاطهم وما قام مجدالًا منه قديمًا إلا بسائق الدين فلما قل المعتقدون كثر المنحطون.

ويقول فوليه: إن أسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الأهوية المختلفة فالشمال منها أوربي والجنوب أشبه بقطر أفريقي - فيه الليمون والبورتقال والتمر والرطب وأنها في بعض أصقاعها تشبه روسيا حرها مدة ثلاثة أشهر من السنة كحر جهنم وشتاؤها تسعة أشهر وقد فطر الأسباني على

شيء من القسوة تشبه لفحات جباله وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمسه وأنه ظل أفريقيًا وإن كان يعد في الأوربيين.

ومزاج الأسباني صفراوي عصبي ومعنى ذلك أن في باطنه حرارة شديدة تحرقه فيعرف كيف يقمع هواه المذيب وإن في استطاعته أن ينام على أحقاده طويلًا حتى إذا عرضت له الفرصة وثب، وهم قساة على الحيوانات الأهلية قساة على الإنسان قساة على أنفسهم. وقد جاءتهم القسوة من اعتيادهم النظر إلى الإنسان يحرق بالنار أيام ديوان التفتيش الديني وما زالت القسوة متسلسلة في دمهم يساعدها أيضًا اعتياد الأسبان صراع الثيران وإذا ادعى بعضهم أن صراع الثيران يورث النشاط - ومتى كانت قسوة القلب تورث نشاطًا - فإن هذا الصراع هو التوحش بعينه وليس من الضروري إهراق الدماء حتى ينشأ أبطال.

الأسبانيون صادقون مخلصون إذا أعطوا عهدًا وعندهم شعور بالاحترام والشرف وهم كرام يحبون إقراء الضيفان وربما زاد هذا الخلق فيهم في الجنوب أكثر من الشمال ولكن لا يجزم بأنهم يميلون كثيرًا إلى الإنسانية.

أما تعصبهم فيه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم. قالوا إن التعصب بالنسبة للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للحب وإذ كان الأسباني غيورًا جدًّا في حبه فهو متعصب جدًّا لدينه ومع هذا فقد رأينا الإيطالي غيورًا في حبه ولكنه غير متعصب في الدين. قال فوليه إن أغناس دي لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية) على ما كان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون إرادته على أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الأسبان ومراقبتهم كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الأسباب التي قضت على النفوس بالانحطاط. قال ولم ينشأ في أسبانيا فلاسفة لأنه لا يتأتى

تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون نصفه لاهوتيًا والنصف الآخر فيلسوفًا وإلى اليوم لا يزال الحال كذلك ليس للفلسفة من يمثلها في أسبانيا في الحقيقة ونفس الأمر.

لا جرم أن الأسباني شأن كل أمة انحطت يحتاج إلى دراسة تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جدًا في مضمار العلوم - والتربية. وقد غرس في العنصر الأسباني الصبر والثبات وحب الإقدام. ودعا اختلاف طبيعته إلى تخالف السكان في المناحي والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل إنشاء الخطوط الحديدية والطرق المعبدة منعزلًا بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات إلى فتح زهاء مئة نفق طويل في أنحاء البلاد حتى يتيسر ربط الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال في صعوبة المواصلات البحرية فإن فرضها وسواحلها على كثرتها وملولها صعبة المجاز على السفن. ومع هذا رأينا أممًا كثيرة غزت شبه جزيرة أيبريا مثل الأيبريين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلتبين والفينقيين واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافين والفانداليين والوزيغوطيين والعرب والإسرائيليين والسوريين والبربر والمرابطين والموحدين.

ولم تمتزج تلك الشعوب التي دخلت أسبانيا على توالي القرون في بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين في طبائعهم تخالفهم في بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ما هنالك من صلات ضعيفة سياسية لأن أفراد الأمة لم يتعاونوا كلهم على تأليف هذه الوحدة. فإنا نرى البغضاء قد تأصلت في قلوب الأسبانيين فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين أهل المدن المتجاورة شأن الأمم المنحطة. كان الأسبانيون وما زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الأندلس ويحتقرونه وأهل برشلونة يبغضون أهل بلنسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية وأهل مرسية لا يميلون - إلى القرطاجنيين وأهل قادس يمقتون أهل شريش

وهكذا يستعدي أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى ولو لم يقم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شملهم ويدفعون العرب عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لو لم ينضو أمراء النصرانية في تلك الحقبة - من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لا يتأخر اتحاد الأسبانيين حتى يقوم الملوك المتأخرون بلم شعثهم لو لم يكن أمراؤهم مختلفين بينهم وكذلك كان يصعب زحزحة العرب عن سلطانهم لو لم يكونوا على اختلاف بينهم أيضًا.

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة أسبانيا - وهم الذين قاموا بأعمال مهمة في جمع سلطان الأسبان وطردوا العرب من الأندلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم في الدين من العرب النازلين في أسبانيا ولو لم تفتح أميركا وتشتغل أسبانيا في حرب فرنسا وإنكلترا وتبدد قوتها في الممالك التي ضمت إليها من طريق الإرث لتم لها ما تريد من فتح مراكش.

لم تستفد أسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوصلة لم تقو على نزع الفوارق في طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية لا تتعدى حماسته أسوار بلده خلافًا للفرنسيس والإنكليز والألمان والطليان وغيرهم من الأمم الكبرى فإنها نهضت متحمسة حماسة ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى أسبانيا لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها في بلادها وفي الخارج وأن فقد الشعور الوطني هو أهم عامل في انحطاط أسبانيا تضاف إليه أسباب سياسية واقتصادية.

لا مراء في أن النسبة مفقودة بين المشاريع التي قام بها ملوك أسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية. ومن الجنون أن يعتقد أن التوسع في الفتوح في الخارج ينمي قوى المملكة. ومن أبشع

الجنون أن يعتقد ملوكهم أن مناجم الذهب في العالم الجديد أميركا لا تنضب أبدًا وأن الذهب المجلوب من أميركا يغني الأمة على وجه الدهر. قال فوليه: وكان في افتتاح الأسبان أميركا باعثًا على تقلقل النفوس وتزعزع المبادئ فأصبح الناس يرقبون الفرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون إذ رأوا كثيرين منهم اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك. وهكذا ماتت الإرادة في هذا الشعب. وما تاريخ استعمار أسبانيا الأمثال وأي مثال لشعب ينتحر.

ثم إن ديوان التفتيش قرض بيوتًا وأسرًا كانت مباءة ذكاء وجراثيم فهم وعلم فبقضائه عليها قضى على الصناعات والفنون والآداب. وكانت أسبانيا تستعمل في دعايتها للدين «النار والحديد» فتسطو على الوجدانات المتحمسة وتقضي على الإرادات القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فيزيد العقم ويقل النسل ثم إن حروب شارلكان الجنونية ولاسيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والإقدام وأضعف طبقة الإشراف بل قرض العالم من القرى فأقفرت وأغلقت بيوت برمتها وأن طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩، ١٦١٠ قد حرمها شعبًا عرف بهمته ومضائه فحلت محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب إلى الكسل المغروس في سكان الجنوب المعروفة باحتقار الأعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال مخافة أن يفشو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص.

والظاهر أن الأسبانيين لم يكن لهم في دور من الأدوار ذوق في الأشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل نزوح العرب منها فما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهي من هذه

الوجهة لا تشبه فرنسا ولا إيطاليا بحال من الأحوال. وبعد فإذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغتا درجة حسنة في بعض العصور والأمصار في أسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد. وما زالت معامل إشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأسلحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك. فللغريب إلى اليوم اليد الطولى على أسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الإنكليز والفرنسيس والألمان وغيرهم.

إذا اشتهر عن الأسباني أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جندية. وشتان بين من يحارب منفردًا لحساب نفسه وفائدتها وبين من يقاتل صفوفًا صفوفًا بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمي إليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الأسباني من غير الأسبان في حروب إيطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الأسباني وهكذا في كثير من حروبهم في جنوب أميركا وفي جزائر البحر.

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconqaista الفكر الديني في الأمة ومورِدها أموال الرهبان وبركات البابا الرسولية وتنشيط الأشراف فلما أراد الأسبانيون أن يعملوا خارج تخومهم خانتهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بأن ما ساعد على انحطاط أسبانيا أكثر من فقر تربتها وبوار أراضيها وشقاء سكانها وأوهام حكامها وفتح أميركا وطرد العرب واليهود منها فحرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة - إن ما ساعد على انحطاطها في الأكثر كان اعتزالها الديني الذي فصلها عن بقية العالم وأهم ذلك رسوخ أقدام قوميات في أرضها ولم يشعر الأسبان في زمان من أزمنة تاريخهم بأنهم متضامنون ولذلك كانت الأمة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودًا حتى إذا ظفروا في القاصية تقيم الأعياد والحفلات تكريمًا لهم وأدهش من

ذلك ما قال أحد المؤرخين: بين أكثر أمم أوربا عقيب النهضة تحاول أن تكسر قيود الرق الديني كانت أسبانيا تقاوم كل فكر إصلاحي يرمي إلى التجدد وتقاتل في أرضها وخارج أرضها كل ما يراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت أسبانيا تساعد البابوية الأيمن في الضرب على أيدي المجددين والمصلحين الذين كانت تنبعث أنوار عقولهم في الغرب بسرعة البرق.

وكان من جهاد أسبانيا أن فقدت جميع أملاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وإن خرجت عنها البورتقال وكادت بلاد الكتلانكيين أن تودي معها واقتطعت إنكلترا من أرضها جبل طارق وجاءت عليها أدوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه إلا رجال الدين وطبقة الأشراف حتى كادت أسبانيا أن تقسم أجزاء كما قسمت بولونيا قديمًا.

وكلما قام المصلحون فيها أذوا وقتلوا حتى كان أحد ملوكهم يقول إن الأسبانيين كالأولاد يبكون كلما حممتهم وغسلتهم وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستوري في نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها إلا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الأغلب مصالحهم الشخصية. أما النواب فيوشكون أن يكونوا اسمًا بلا مسمى وليس هناك رأي عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد أسبانيا لا تشبه بإدارتها الحكومات النيابية إلا قليلًا وذلك لأن كبار الموظفين الذين يختارون أعضاء لمجلس الشيوخ - كالقواد والحكام ورؤساء الأساقفة قد اعتادوا أن لا ينظروا المسائل التي يبحثون فيها إلا من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الأشراف والمنتخبين من الولايات لا يجرون إلا على هذا المثال أما القضاء فيكاد يكون هزؤًا والدعاوى تكلف نفقات

باهظة أكثر من كل ممالك أوربا والذي يوكل إليه جلب الجناة قد يفسح لهم في الأكثر مجال الهرب مقابل مال قليل لأن الدرك يتقاضى راتبًا ضئيلًا فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبدًا غاصة بجمهور منهم وقد قال أحدهم: إن أسبانيا لا يحق لها أن تحسد مراكش على قضائها لأن القضاء في الأولى هو كالقضاء في مراكش إلى الانحطاط والسقوط. وسوء الاستعمال محسوس الأثر في كل عمل من أعمال الحكومة هناك.

لا يقل عمل العمال في دواير الحكومات الأوربية كما يقل في حكومة أسبانيا فإن من موظفيها من لا يعمل أكثر من ساعتين ومنهم من يأتون خلسة إلى دوائرهم ثم يذهبون خالًا دون أن يأتوا بعمل. ومتى فوضت الوزارة إلى أحدهم وزارته لا تطول أكثر من أشهر - لا يفكر في عمل مفيد بل يحرص على يقين أقاربه والمخلصين له في المناصب. ومن أقبح قواعد الإدارة في أسبانيا تأسيس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين شرطيًا ولا حارسًا بل إن حق التعيين من شأن العاصمة مجريط ولا بسط المسائل ملفات من الأوراق طويلة عريضة لا ينظر فيها أشهرًا وصاحبها يذوب كمدًا على إنجاز عمله. وإذا خلت وظيفة التدريس في إحدى مدارس الولايات لا يعين الخلف قبل مضي شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأولاد.

وليس للأعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والدساكر فإنها محرومة من كل نظام صحي. وتخف التبعة الملقاة على عاتق الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى في الحقيقة أحدًا يسأل عن عمله والشعب لا يهتم إلا لإرضاء سادته ورؤسائه وقلما يثور للمطالبة بحق له إلا إذا فقد الخبز أي بسائق الجوع ولا يثور دفاعًا عن أفكاره وأمانيه الوطنية. الشعب الأسباني ملكي يتفانى في الحكم الملكي كما هو مغموس في الدين وكان

لرجال الكنيسة عندهم في كل دور شأن وأي شأن. وجميع الحروب المدنية التي نشبت في أسبانيا لم توقد جذوتها إلا باسم الدين فإذا بدأنا بحرب الأسبان مع العرب لإنقاذ أسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل الأكبر فيها - اختلاف الأديان. وهكذا مقابلة الأسبان للإصلاح الديني وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيس لإلحادهم أكثر من حربهم لهم لأنهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم على أمرهم ولولا حماية الأسطول الإنكليزي ما وجدت البرتستانتية لها منفذًا في بعض مدن الساحل من أسبانيا.

لئن كانت المرأة في أسبانيا لا شأن لها في الشؤون العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك أوروبا الراقية فلها شأن في بعض المسائل التي يهتم لها رجال الدين فيسوقونهن إلى التدخل فيما ليس من خصائصهن توصلًا إلى مقاصد لهم. ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضي المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علنًا ومنها ما تستثمره بالواسطة. وسلطة الرهبان وثروتهم تزيد مع الأيام قوة واستحكامًا. وفي أسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستاس أي ثمانين مليون فرنك في السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الأسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة في بلادهم فأجابني بين الهزل والجد: عندنا يا سيدي ثلاث صناعات رائجة وهي صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران [1].

---

(١) كل صراع الثيران إلى القرن السادس عشر خاصًا بالفرسان يعمدون إليه للتمرين الحربي أو للاحتفال بأعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين إذ يقضي على الفارس أن ينحر ثور برمحه وفي أوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطرًا وجعلته الحكومة للفرجة وأنشأت له معاهد وهي تربو على مائتي معهد في

كانت أسبانيا في أوائل القرن الماضي أمة زراعية يحكمها الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ إلى ١٨١٥ أمة حربية وكان للجيش المقام الأول في كل عمل حتى صار ينفق ستون في المئة من ميزانية الدولة على الجيش. وأتى عليها زمن في أواخر حرب كوبا وعندها ٤٩٩ قائدًا و٥٧٨ زعيمًا وزهاء ٢٣ ألف ضابط أي نحو خمسة أو ستة أضعاف ما يلزمها لجيشها المنظم. فأصبحت القوتان العظيمتان الرهبنات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية يضاف إلى ذلك سوء إدارة الحكومة هناك ففقد التناسب في أجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة السكان في العمل ومنهم من يعدونه شائنًا فيدعون الشرف ولا يسعون لأدنى عمل ولذلك تركوا في الماضي الأعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم أخذ فكر الاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى أصبح أفراد منهم يهيمون على وجوههم في الأرض ليغتنوا في برهة قليلة ونشأت من ذلك مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب.

ولك بعد هذا أن تتصوركم عدد المتسولين - عددهم مئة ألف - والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الأصناف. لا جرم أن عددهم لم يبلغ في مملكة ما بلغه في أسبانيا. وكان من نتائج طرد العرب واليهود من أسبانيا أن انتقلت صناعات هؤلاء وأعمالهم إلى الغرباء من غير

أسبانيا لها أوقات معلومة في السنة ويفتخر من كان ثوره عاصيًا على الصراع والنزال إذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته أما إذا صرعه فحدث عن تفاخره ولا حرج. وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تتسع لألوف من المتفرجين وذلك في أمهات مدنها فميدان بلنسية يسع ستة عشر ألفًا وميدان إشبيلية اثنى عشر ألفًا وميدان غرناطة سبعة عشر ألفًا وهكذا أحدثت أسبانيا ساحات لهذه الفرج في مالقة وسرقسطة وصلعكة وقادس ومجريط والجزيرة وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف نسمة ومن ذلك تحكم على مبلغ صبابة القوم بصراع الثيران ومكانته من نفوسهم.

الأسبانيين ولا تزال إلى اليوم. حتى أن بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت بخروج العرب من الأندلس ولا تزال معامل غرناطة وإشبيلية وطليطلة وغيرها آخذة في الانحطاط سنة عن سنة.

ومن أسوأ الأعمال في أسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد الطرق في إنفاقه فلو استعاضت أسبانيا عن الإنفاق على الجيش وعلى عشرات الألوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين الذين لا يعملون عملًا بفتح مدارس وتعبيد طرق وفتح أقنية وغرس أشجار لكان حقيقًا في ذلك نجاحها الاقتصادي على ما أثبت ذلك المفكرون.

وبينا نجد في فرنسا عشرين مليونًا ونصف مليون من سكانها البالغين زهاء أحد وأربعين مليونًا يعملون في الزراعة نجد خمسة ملايين من الأسبان فقط أي ربع سكانها يعملون في الزراعة. والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد. ونجد في أسبانيا ٤٨٠٨ في المئة من أرضها بورًا على حين لا ترى في بريطانيا العظمى سوى ٢٨٠٤ من أرضها لا يستفاد منه و٢٣ من أرض هولاندة و١٩٠٣ في إيطاليا و١٠٠٢ في المجر و٩.٠٩ في ألمانيا و٩.٠٤ في البلجيك و٦.٠٩ في النمسا و٩ في فرنسا أما الاثنان والخمسون في المئة من أرض أسبانيا فإنها لا تزرع إلا زراعة ناقصة بحيث إن الكيلومتر المربع لا يقوم بإطعام أكثر من أربعين شخصًا وهذا ولا شك منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء.

في أسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و٥٥ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة في حين ترى في فرنسا ومساحة المملكتين واحدة تقريبًا ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة و٥١٠٤٣١ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية وليس في أسبانيا سوى ٢٩٨ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية في كل عشرة آلاف كيلو متر على أنك تجد في مثل هذه

المساحة في إيطاليا ٥٨٠ كيلو مترًا وفي النمسا ٧٦٢ وفي فرنسا ٨٧٤ وفي ألمانيا ١٠٠٧ وفي بريطانيا ١١٨٠ وفي البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر في أسبانيا أن يركب القطار من بلدة إلى أخرى قريبة ومنها يذهب في تعاريج على غير فائدة لأنها ليست متصلة بجارتها بسكة حديدية مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد أصيبت بمرض البلاد نفسها وأعني سوء الإدارة ورداءة الحال.

داءان قتالان كان على الحكومة هنا أن تقاتلهما وأعني بهم أنانية الأغنياء وجهل الفقراء. فالعلم متأخر جدًّا في أرض أسبانيا لأن نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفي إحصاء آخر أن من سكان أسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون ويقرأون وأربعة عشر مليونًا أميون وليس في البلاد أكثر من ٥٢ ألف كتاب ومدرسة للذكور والإناث ولكليهما معًا وفي فرنسا ٨٢.٢١١ مدرسة ابتدائية و١٠٥٧ مدرسة وسطى وفي أسبانيا عشر جامعات وهي جامعة مجريط وبرشلونة وغرناطة وأفيدو وصلمنكه وسانتياغو وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وفالادوليذا وإذا فرضنا أن الواجب تعليمهم أربعة ملايين من الأولاد لاقتضى أن يكون لهم ٨٠ الف معلم ومعلمة إذا أردنا أن نسلم خمسين ولدًا لكل مرب في حين ليس في البلاد سوى ٢٦ ألفًا أما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها نحو ستة آلاف أستاذ دع رداءة التعليم فإن التلميذ يصرف أوقاته في التعليم الديني والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلًا بل قد يستجدي ويستوكف الأكف أحيانًا لأن الحكومة قد تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أماكن لائقة بالتدريس وحقيق بمن كان مثل هؤلاء المعلمين أن يحتاج إلى من يعلمه.

التعليم في أسبانيا صوري غير عملي وجميع طبقات المدارس محتاجة إلى الإصلاح الكثير وفي أمثال الأسبان «المعرفة الكثيرة تقود إلى

الإلحاد» قال أحدهم: وليس على من يدعون أن التعليم لا فائدة منه وليس في العلم من الفضائل التي تنسبونها إليه في ارتقاء الشعوب إلا أن ينظروا إلى أسبانيا فهناك مثال من الجهل يضاف إليه اعتقاد أعمى.

كانت أسبانيا أيام عزها تملك البورتقال ونابل وميلان وأقليم الفرانش كونته والفلاندر في أوربا ومعظم ما يدعى اليوم باسم أميركا الجنوبية وكثيرًا من المستعمرات المهمة في أفريقية والهند وماليزيا ومن بورنيو إلى كليفورنيا وما كان المحيط الكبير إلا بحيرة أسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني تناقشت وزارات أوربا في الطريقة التي يجب بها تقسيم أسبانيا ولم تنجح هذه الأمة في مستعمراتها لأنها لم تحسن حتى الآن أن تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين وغيرهما من أرخبيل المحيط قرونًا بدون أن يخطر لها أن تستعمرها ولا تزال غير محتفلة بأملاكها في خليج غينة وجزائر كناريا وقد تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلي في سنة ١٨٤٥ وعن الأرجنتين في سنة ١٨٥١ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوبا وبورتوريكو وفيلبين سنة ١٨٩٧ وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها في تلك المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن أسبانيا ترسل إلى أميركا الجنوبية - بل إلى سائر مستعمراتها - سوى رهبان وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما نفعوها. ولطالما أنذرت المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها. ولقد أنذرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ أنها إذا لم تبدل قانونها الاقتصادي والجمركي تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت أسبانيا بهذا القول لأن أسبانيا ومستعمراتها كانت إذ ذاك ٣٨ مليونًا من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز الثمانية ملايين نسمة بيد أن العبرة بالكيفية لا بالكمية ولم تربح أسبانيا من حكمها الأعوام الطويلة

بلاد أميركا الجنوبية إلا نشرها لغتها ولا سيما في المكسيك[١] وعدد السكان الأصليين هناك يقدر بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال الهجرة متصلة فتفقد أسبانيا كل سنة نحو مئتي ألف أسباني يهاجرون إلى أميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا إليها ولكنها تربح منهم أموالًا فيرسلون إليها كل سنة بنحو مائة وخمسين مليون بستاس ومنهم من ينشئ المدارس والكنائس والمباني المخلدة المتلدة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم ومعرفتهم جميلها. وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس إلا.

أخذت الشعوب الأسبانية في أميركا تميل بالعلم المجرد عن كل صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الأسبانية يجب علينا إذا أنصفنا أن نذهب إلى أميركا نتعلم في جامعاتها لأنهم صبوا إلى العلم المحض على حين لم تزل كلياتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت. وكتب أحدهم منذ مدة ليس عندنا معاشر الأسبانيين ديوان تفتيش ديني الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذي ما زال يسري فينا ويذلنا. ولذلك ترى ألوفًا من أبناء جمهوريات أميركا الجنوبية يرتحلون إلى أوربا ليدرسوا في جامعاتها ولا يغشون أسبانيا التي تجمعهم بها رابطة الدين والجنس واللغة لعلمهم بانحطاطها وهيهات أن يعود إلى جامعة صلمنكة الأسبانية - المشهورة في القرون الوسطى بأنها إحدى الجامعات الأربع التي كانت تفيض النور على عالم النصرانية - بهاؤها ورونقها القديم والمدارس في جنوبي أميركا تسير على خطة المدارس في فرنسا.

---

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الأسبانية أو القشتالية في أسبانيا وأمريكا الجنوبية عدا البرازيل وغريانا وأمريكا الوسطى والأنتيل وفيلبين وفي مستعمرات أسبانية أخرى بزهاء ثمانين مليونًا. ولغة البرازيل البرتقالية وعدد المتكلمين بهذه اللغة في أوربا وأميركا نحو ثلاثين مليونًا.

يقول بعض من كتبوا على أسبانيا أنها بلاد ديمقراطية والحال أنها أرستقراطية لأن الثروة والتعليم والتهذيب العقلي والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفئة صغيرة من أهلها وجمهور الأمة يعيش محرومًا كل ذلك والغلاء فاحش في البلاد لا في الكماليات التي تجلب من الخارج بل في الحاجيات وليس للأسبان حياة المجتمعات فإن الاجتماعات والضيافات خاصة بالكبراء وقلّما يخرج القوم من بيوتهم وقلّما يسافرون ولا ذوق لهم في الاستمتاع بالطبيعة لسماع أصوات الطيور في الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهري عليها على أنك ترى في الشعب السذاجة والاستقامة والكرم صفات أحتفظ بها.

العامة في الأسبان تتكلم كالخاصة لغة واحدة فصيحة لا تفاوت بينها والشعب خاضع صبور يحتمل مصابه. وقل أن ترى في أسبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملًا صالحًا اللهم إلا في بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة في الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى. وإن القوم لينقصهم كثير من مبادئ الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيس والإنكليز والألمان وغيرهم فتراهم يدخنون في كل مكان خاص وعام ويبصقون في القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تشمئز منها النفس. والطبقة العليا الغنية في الأسبان تعيش عيشًا يقرب من عيش جمهور الناس في إنكلترا وفرنسا.

كانت التيوكراسية والبلوتكراسية والبور وكراسية أي الحكم الإلهي والديني والقرطاسي - أو الحكومة التي تدعي بأنها تصدر عن وحي سماوي أو تكون مأخوذة بوازع ديني أو تطيل في أوضاعها ومعاملاتها - من أمراض أسبانيا الاجتماعية فيما مضي ويزيد عليها اليوم مرض آخر

وهو حب الجندية La Caciquism وليس في الأسبان عيوب متأصلة في عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة من التربية وقلة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هذه الأمراض عارضي. ثم إن الأسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون غيرهم ويكرهون الغريب وإن أظهروا له على رواية بعضهم كرمًا ولطفًا وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين.

وإنا على ما نرى الآن من عيوبهم في قذارتهم وتشردهم وجهلهم وقلة عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم إلى الاعتناء السريع نشهد فيهم صفات صالحة للبقاء وهي الثبات والصبر وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل إلى الشعر وهم من كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية في هزلهم واستكانتهم وتبلغهم بميسور العيش أو انبعاث هممهم إلى أقصى مراميها. والأسباني ولاسيما في الجنوب يميل إلى البطالة والراحة ويتفخل ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم في المدن والقرى يجتمعون أولادًا ونساء ورجالًا على الأبواب وفي منعطفات الطرق ويتهازلون ويتلاكمون حتى لتظنك في قرية كبيرة من قرى الشام تبرنط أهلها فقط أي لبسوا البرانيط أو البراطيل أو القبعات وأحسن ما فيهم كثرة النسل ومنه مادة نجاحهم في المستقبل وزيادة السكان تساعد على الانتخاب الطبيعي في المجتمع وتضطر الناس إلى العمل وتضمن النجاح الأخير للذكاء.

إن الأمة الأسبانية التي وحدت قواها فطردت العرب في القرون الوسطى ثم وحدت قواها في القرن التاسع عشر فطردت الفرنسيس على عهد نابليون من أرضها قد أثبتت إذا أنصفنا وطنيتها في تينك الوقعتين المهمتين بيد أن من عيوبها أنها لا تستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها ورقيت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن عادت

فجدثتها نفسها بامتلاك الريف وحرب أهله في مراكش ففشل جيشها وكان مؤلفًا من ثمانية عشر ألفًا أسر مع قواده وضباطه فعادت أسبانيا وأرسلت على الريفيين أو بادية المغرب الأقصى مئة ألف مقاتل وما تدري أيلتئم انتصارهم على هؤلاء البدو على ما في نفوسهم من شمم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم ولكن بمن؟ وإذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل أمام قوى. وإذا استولى الأسبان على الريف وخضع لسلطانهم من أقصاه إلى أقصاه لا يساوي جزءًا من المال والدم المهراق وأرض أسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار.

البورتقال بعد العرب

١١١

ليس بين أسبانيا والبورتقال حدود طبيعية ولما وافى العرب شبه جزيرة إيبريا لم تكن مملكة البورتقال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب إلى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم في لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فرسخت حضارتهم في لشبونة وشنترين وشنترة ويابره وبطليوس وشلب وولب وباجة وطبيرة وقلمرية وشنت مارية كما رسخت في برشلونة وطرخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادي آش وغرناطة وجيان وإشبيلية وقرطبة. وكان غرب الأندلس أو أكثر بلاد البورتقال من أول ما تخلص من حكم العرب في القرن السادس.

ولم يشتهر البورتقاليون كثيرًا في كتب العرب الأندلسيين بل كانوا يطلقون في الغالب اسم الروم على الأسبانيين والبورتقاليين معًا كما كانوا

يطلقونه على غيرهم من أجيال الفرنجة وإذ كان مقام البورتقاليين في شبه جزيرة أيبريا ثانويًا - بالنسبة للأسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضًا في اللغة البورتقالية أقل منها في اللغة الأسبانية وتأصلت فيهم عادات العرب أقل من تأصلها في جيرانهم.

غزا العرب البورتقاليين في الزمن الذي غزوا فيه الأسبان ففتحت بلادهم أواخر القرن الأول للهجرة على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر فنزلوها وعمرت بهم كما فعل إخوانهم في بلاد أسبانيا حتى أصبحت كأنها مملكة إسلامية من بلاد العرب.

ولما انحلت الدولة الأموية في المشرق خضع لسلطان عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة أيبريا ومن جملتها بلاد البورتقال فأورثها هو وأخلافه عمرانًا وثروة وبلغت لشبونة (أشبونة) عاصمتها أقصى مراقي العمران في أيامهم ولم تكن بالبلد الطيب قبل العرب، وما لبث البورتقاليون أن ألفوا حكومة لهم في بلاد الجلالقة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على الأغلب مع مملكتي قشتالة وأراغون جنبًا إلى جنب في قتال العرب.

قال مؤرخو الإفرنج: خرب العرب بلاد البورتقال يوم خربوا أفيلا وصلمنكة سنة ٣٩٩هـ وافتتح الفونس الخامس جزءًا من البورتقال سنة ٤١٨ - ١٠٢٧ وسنة ٥٤٣ أخذ ملك البورتقال لشبونة وشنترين [1] وشنترة

(١) قال الإصطخرى في كتاب الأقاليم: وشنترين التي على البحر المحيط بها يقع الغبر ولا يستلم ببحر الروم والبحر المحيط موضع غير الابشترين ... ويقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبر في لون الحر لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئا وهو عزيز قليل فيجمع منه وينسج منه ثيابا فيتلون في

وفي سنتي ٥٥٣ و٥٧٣ توسع البورتقاليون في فتوحهم وفي سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصًا لشبونة ثم عاد البورتقاليون في السنة التالية ٥٨٥ - ١١٩٠م فاستولوا على عدة حصون، ويقول مؤرخو العرب إن ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهي من كبار مدن المسلمين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والأندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وسلموا ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطرو ابن الريق( ) مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه على أن يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها ثم عاد المسلمون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصنًا يقال طرش.

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونية حكموها إلى سنة ١٣٨٣م فقووا قلوب أهلها واشتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم، وعاونوا إخوانهم الأسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين في وقعة شنترين وخلصوا جزءًا مهمًا من بلادهم وغلبوا العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ في وقعة العقاب التي أفضت كما قال ابن الأبار إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧م، ٥٤٣هـ جيش مؤلف من الصليبيين الفرنساويين والإنكليز والألمان والفلاماندبين للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبي من البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarbe ١٢٤٩ - ١٢٥٣ بعد أن ملك العرب هذه

اليوم ألوانا ويحجر عليها ملوك بني أمية فلا تنقل إلا سرا وتريد قيمة الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه أهـ قلبًا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قريبة منه.

الولاية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، ومنح ملك البورتقال المغلوبين الذين بقوا في لشبونة من العرب بعض الحرية فظلوا فيها، وقويت بهم التجارة البحرية، وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك إلا النادر منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الغارة كما يحسنون الإدارة فوسعوا حدود بلادهم وقووا الوطنية البورتقالية وعرفوا أمتهم طعم الاستقلال حتى إن أحدهم جلس على سرير الملك خمسًا وستين سنة وقوي ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده وخلصها كما خلصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت فلم تترك البورتقال مجالًا لجارتها القوية أسبانيا أن تأخذها.

ولما فتح البورتقاليون إقليم الغرب في أقصى الجنوب الغربي من شبه جزيرة أيبريا أخذوا يتوسعون في فتوحهم فركبوا البحر وفتحوا بعض مدن الغرب الأقصى ولاسيما طنجه وأرسلوا إلى بر العدوة من الجند بقدر ما كان أهل بر العدوة يرسلون منه نجدة لإخوانهم الأندلسيين العرب ثم شغل البورتقاليون بعد ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن التوغل في الغرب الأقصي بل أزمعوا الرحيل منه.

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على لشبونة لا بأس بأن نشير إلى أن الأسبانيين والبورتقاليين كثيرًا ما كانوا يستنصرون بجيرانهم من ملوك الإفرنج فينجدونهم فقد جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسويين لمعاونة أسبانيا على العرب وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفي سنة ٦٠٨ قصد صاحب الأندلس قلعة عظيمة للإفرنج تدعى شلب تره ففتحها بعد حصار تضييق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرغب فخرج الأدفنش إلى قاصية بلاد الروم مستنفرًا عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية ووافقه صاحب

أرغن وفي سنة ١٢١٠م تحالف جميع ملوك النصرانية على التعاون على المسلمين واستنفر البابا أينوسان الثالث جميع أمم أوربا إلى غزو عرب الأندلس فاجتاز جبال البيرنات ستون ألف مسيحي لقتال العرب.

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة في سنة ٥٩١ أقبح هزيمة عاد إلى بلاده وركب بغلا وأقسم أنه لا يركب فرسًا حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة إلى أن ملكوا أكثر مدن الأندلس.

وهكذا كان ملوك الإفرنج ينصرون ملوك قشتالة وأرغن وليون خصوصًا من عرف منهم شوكة العرب إذ ذاك أمثال حكومات إيطاليا وفرنسا. ولكن الفرنج كان ملوكهم من الضعف في تلك الأزمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده دع استخلاص بلاد غيره، ثم إن الحروب الصليبية التي دامت نحو قرنين أخرت قليلًا إخراج العرب من الأندلس ولو سيرت عليها بعض القوة التي سيرتها إلى الأرض المقدسة لمَّا طال حكم العرب على الأندلس إلى أواخر القرن التاسع للهجرة.

كانت البورتقال تعتبر شريفًا كل برتقالي أسره العرب ولم يصبأ عن دينه إلى الإسلام، وكذلك كل من حاربوا العرب في وقعة أوريك سنة ١١٣٩ التي كتب فيها النصر للبورتقاليين ولا تعد في الأشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو هربوا من معركة وقعت للبورتقال مع العرب.

وما برحت البورتقال تئن من سلطة رجال الدين أنين جارتها أسبانيا وهي في يد الباباوات كالخاتم في يد لابسه يقلبه كما يشاء حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة بالجمهورية وتخلصت من سلطة الكهنوت، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة اليسوعية من بلادها واستصفاؤها أديارها والقضاء

على الرهبان والراهبات انتقامًا منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم في قتل فريرا رجل الأسبان الحر وكانوا قتلوه بمساعيهم لدى الحكومة على أبشع صورة عرفت في عصر النور والمدنية فتخلصت البورتقال كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكي ولها اليوم ٣٨٥٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانها عشرين مليون نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة ينزلون في ٩١٩٤٨ كيلو مترًا ولا تزال حصون العرب إلى اليوم على قمم الجبال في مدينة شنتره، وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره إلى الآن وعلى مقربة منه قبر دفن القوم فيه عظامًا وجدوها ولم يعلموا أنها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال والقسم الذي كانت تسكنه العرب في لشبونة يعرف عندهم باسم الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب التحريف الغاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra المعروفة في كتب العرب باسم قلمرية. وهي الآن دار العلم ومحط المعارف في بلاد البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها في كتب العرب بورتقال وبها يسمى هذا القطر بورتقال. وفي هذه المدينة دار البورصة بنيت على الطراز العربي ونقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربي وزينوه بالزخارف وكتبوا في ضمن رسومها أشعارًا عربية. وفي متحف لشبونة على ما حدثني به الثقة كثير من الآثار العربية ولا سيما ما أخذه الألمان من الشام قبل الحرب الأخيرة فوقع في أيدي الحلفاء فأعطوا السفينة الألمانية وما حوت للبورتقال لأنها أسرت في بحرها وذلك من جملة مكافأتهم لها على محاربتها في صفوفهم وتجنيدها ثمانين ألفًا من كماة رجالها.

برلين
١١٢

كنت أود أن أرى إنكلترا وألمانيا بعيني من عرفهما مباشرة لا بالواسطة وأن أسمع الإنكليزي والألماني يتكلمان بلغتهما فأفهمهما وأجيب على كلامهما دون أن أعمد إلى اللغة الإفرنسية. وإذا سهل التخاطب بهذه اللغة مع خاصة الإنكليز والألمان وغيرهم من شعوب الغرب فيتعذر التفاهم مع العامة من جمهور تلك الأمم إلا بواسطة ترجمان والترجمة يصعب أن تؤدي الروح الحقيقية في المخاطب والمخاطب. وأن روح الأمة لتتجلى للسائح بالاحتكاك بالخاصة والعامة وربما أخذ عن العامة مالا يتيسر له أخذه عن الخاصة ولذلك ساغ لنا أن نقول إننا في البلاد التي ينطق أهلها باللغة الإفرنسية كأننا في بيوتنا وفي غيرها غرباء.

عرفنا الألمان بما كتبه عنهم الفرنساويون في الكتب والمجلات والصحف. وفي ذلك الغناة في معنى إدراك مقومات هذه الأمة ومشخصاتها. ولكننا نشعر أن هناك أمورًا يتعذر إصدار الحكم الصحيح عليها دون الوقوف على أسرار لغتهم والنزول عليهم أشهرًا طويلة والاحتكاك بأهل الطبقات المختلفة منهم وقد يهتم الشرقي في الغرب بأمور لا يحفل بها الغربي قال مونو المؤرخ الفرنساوي (١٨٤٤ - ١٩١٢) أن ألمانيا الوطن الثاني لجميع الرجال الذين يدرسون ويفكرون.

قضيت أحد وعشرين يومًا في زيارة برلين وليبسيك وهاللي ومونيخ أشاهد نموذجات من معاهدها ومشاهدها ومكاتبها ومتاحفها وما أظن هذه الأيام تكتفي لاستبطان عوامل الحياة المنبثة في هذا الشعب الذي

جعل العلم رائده وقائده في كل حركة من حركاته. وبتأثيره جدد شبابه بعد الهرم وجمع شمله وقد أنبت منذ القدم.

اثرت الحرب العامة الأخيرة في الغالب والمغلوب من أمم الغرب على أنهم كلهم مغلوبون في نظر العقل الصحيح بما صرفوه من الرجال والمال وخربوه من العمران ولقد أثرت عوامل الحرب بالمتحاربين والمتحايدين. وهل العالم إلا سلسلة إذا اهتز منها جانب تأثرت له سائر الجوانب، ولذلك ترى الضعف باديا الآن في بعض أوضاع ألمانيا كسككها الحديدية وتراموایاتها وطرقها. فقد كانت برلين قبل الحرب تغسل شوارعها كل يوم بالماء والمطهرات وهي الآن قذرة بالنسبة لنظافتها السابقة لا قياسًا لها مع عواصم الممالك الأخرى وكان بريدها وأسباب مواصلاتها مثلًا سائرًا في النظام فلما كثر اعتصاب العملة لسقوط أسعار الورق المالي أصيبت بالخلل والشلل أحيانًا.

كل شيء جديد في عاصمة بروسيا بل عاصمة جرمانيا لأنها هي جديدة وقل أن ترى فيها بناء عمره أكثر من عمر الإنسان المعمر.

أدخل إلى متحف من متاحفها يشتغل نظرك وعقلك في أسلوب البناء أكثر مما يشتغلان بما حوي من التحف والعاديات كأن أبنيتهم الجديدة أنشئت على غير مثال وكلها نموذج من العلم العملي والنظام الغريب.

شوارع برلين وجاداتها وأسواقها على نمط متوافر متساوق لأنها قامت في وقت واحد على تخطيط جرى التصميم عليه لأول اختطاطها فلم يحيدوا عنه قيد غلوة والحال ليست كذلك في لوندرا وباريز مثلًا فإنهما أنشئتا مع الزمن الطويل على أساليب مختلفة. وشتان بين ما تجده من القدم الداعي إلى التفكر والتأثر وبين ما تجده من الحداثة وما يتبعها من اللطافة والنضارة. ولقد شبه أحد أصدقائنا من علماء الترك برلين وباريز

بشخصين أحدهما حديث النعمة بحسن بزته وما يبدو عليه من الذهب والماس والآخر عريق في المجد لا يبالي أي شيء اكتسى ويبعد عن الزينة ما أمكن.

قال هوره [1] لا يعتبر الألمان برلين فقط عاصمتهم بل إن كولون وليبسيك وهمبورغ ودرسله ومونيخ وجميع المدن القديمة لا تعترف لها بالأرجحية عليها أما أنا فأحب عاصمة بروسيا لأنها تسر وفيها قد توفرت أسباب الحياة والظرف والقرى وابتهج بمنظرها اللامع الجديد وبشوارعها الحديثة وواجهات أبنيتها البيضاء وشرفاتها المفضضة وزهورها وبيوتها الطريفة التي أخذت بحظ وافر من الجمال والنور والتنويع والتعريش مما يأخذ كله بجامع قلبي. أما المدن القديمة فإنها أيضًا تخلب الألباب كأنها الملكات ويرغب المرء في زيارتها أحيانًا للاستراحة من طفولية الشباب المفرطة وهذا حال باريز فإنها حوت المزيتين تقدم لزائريها ماخلا لطائف التاريخ والصناعة ما يفتن الفؤاد ويأخذ بالقلب من أسباب السرور والتجديد. أما في المدن التي فيها ما يعجب ولاسيما قدمها فإن الغرباء يصرفون فيها بعض أيام عطلة سريعة ولا يسكنون فيها مختارين دع المرضى والمنهوكة قواهم ممن عساهم ينزلونها إذ يجدون فيها وفيما حوت من العاديات الميتة أو العتيقة نغمة قد تنجع في مداواة أجسامهم وقواهم. أما برلين فإنها على العكس من هذا وذاك لأن المدن الحديثة جدا تشبه الفتيات اللائي في السابعة عشرة من عمرهن فهل على نضارتهن وحداثتهن لم يستوفين شروط الكمال. أنا من يدخل برلين من عشاق الفنون يشهد فيها مجموعة قد يأتي على رؤيتها في مدة قصيرة ولكنه مع ذلك يراها مملوءة بأسباب المرغبات في البقاء ويهتم لها كل من يحب الحياة ويعتقد في المستقبل.

---

(١) كتاب «برلين» لجول هوره Gules Huret: Berlin.

قال وأن برلين لتزيد كل يوم اتساعًا بما ينشأ فيها كل سنة من عشرات من الشوارع الحديثة حتى إن البيت لا يكاد ينجز بناؤه حتى يسكن وحذرًا من رطوبة البناء يوقدون فيه مدة ثمانية أيام نارًا كثيرة قوية فيحف البناء ويخلص النازلون فيه من الخطر. وفي برلين شوارع طولها ١٢ كيلو مترًا ولا تجد من يفاخر بها. وهذا مما يعجب منه لما فيه من الجرأة والثقة بالنفس والاعتماد على المستقبل والاحتياط وحسن الأسلوب الذي يتطلبه مثل هذا العمل. إذا رأيت هذه الشوارع ظننت نفسك في أميركا تزور مدينة حديثة من مدنها. والبلدان التي كانت تعد ربضًا وضاحية لبرلين مثل شارلو تنبرغ ويلمز سدروف وبانكوف وريكسدروف وغيرها أصحبت بما لها من الحدائق والحقول بيوتًا ومخازن وأماكن عامة حتى اغتنى من الأراضي من كان بالأمس يزرع البطاطا والشوندر في أرضه فأصبح من أصحاب الملايين بما باعه منها وقد بلغ ثمن المتر الواحد من الأرض في حي المخازن الكبرى خمسة آلاف فرنك ذهب والمتر الذي كان يباع في الضواحي بعشرة ماركات أصبح يباع بثلثمائة فرنك.

يصرف العملة والمستخدمون أيام الآحاد في الضواحي ولذلك تغص البحيرات والغابات والشوارع بالعامة أما الخاصة ممن يحترمون أنفسهم فلا يخرجون في ذاك اليوم ليتركوا المجال لغيرهم وأجور التنقل في السكك الحديدية والتراموايات رخيصة للغاية وتجتمع الأسر البعيدة والشبان يتغنون بأناشيد عسكرية حماسية والنظافة بادية على الجميع والنظام يتدفق من أطرافهم وكذلك حسن الذوق والأدب. ولا يلتفت أحد إلى أحد بل كل امرئ مشتغل بنفسه وإذا رأى الإنسان أحد معارفه من بعيد حياه أحسن تحية وربما سلموا على الغريب سلام تعظيم واحترام يفعل ذلك رجالهم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ويحمل كل واحد مظلته ورزمة بالقماش المشمع فيها خبز وحلويات وقهوة وسكر ويبتاعون

للقهوة من المطعم ماء حارًا بفلس أو فلسين فيطبخون فيه قهوتهم ومنهم من يذهب إلى حانات الجعة ومنها ما يسع عشرة آلاف متنزه ومن الحدائق في الضواحي ما تضرب فيه الجوقات الموسيقية.

وفي أي ساعة دخلت المطاعم والحانات والمقاهي في برلين تجد فيها أناسًا وأسرات مع إن الأسرة الألمانية عرفت بحبها لبيوتها وكنها كالأسرة الإنكليزية. والحقيقة أن هذه الأسر التي نشاهدها ساكنة في أماكن بعيدة تضرب لها موعدًا في أحد هذه المحال لتتزاور مع من تحب ثم ينصرف كل واحد من أعضائها إلى عمله.

وحدثني الثقة أن الألماني يدعو صاحبه بإلحاح إلى تناول الجعة معًا وعند أداء قيمة ما يشربان يدفع كل منهما عن نفسه ولسان حالهم المثل الإفرنجي: «كل لنفسه والله للجميع» بمعنى أن الدعوة تكون للمباسطة والمفاكهة فقط لا ليكرم أحدهما الآخر بشيء من المال يغرمه وكأس يشربها بل قد تأصلت فيهم هذه العادة بعد الحرب الأخيرة فأصبح الشاب والشابة إذا تصاحبا ينفق كل منهما على نفسه في دقيق النفقة وجليلها وكلاهما يستمتع بصاحبه خلافًا لعادة الأمم كلها في أن الرجال قوامون على النساء. والرجل ولاسيما في الغرب إذا لقي المرأة التي يعرفها معرفة بسيطة يتولى إكرامها وإطعامها وليس من العادة أن تنفق هي على طعامها وشرابها إذا صحبت الرجل مهما كانت منزلته منها.

الألمان يحبون الزهور للغاية فمنذ شهر أيار ترى الزهور مبسوطة على الأبنية والدور والفنادق غنيها وفقيرها من أول برلين إلى آخرها وفي حي العملة يتنزه الإنسان في الصيف بين حائطين مزهرين علوهما عشرون مترًا وكلها من الزهور المختلفة والبلدية تكافئ من يحسن زراعة الزهور ويتوفر على خدمتها أكثر من غيره ولذلك صح أن تسمى ألمانيا لا برلين

وحدها «مملكة الزهور العطرة والورود المعرشة» لأن الزهور لا تعدم منها إلا عند كلب الشتاء وتجليد المياه. قالت مدام دي ستايل: ترى الحدائق جميلة في بعض بلاد ألمانيا كما هي في إنكلترا والعناية البالغة التي تصرف أبدًا في الحدائق تدل على شدة ولوع القوم بالطبيعة. تجد في إنكلترا دورًا بسيطة للغاية قامت وسط الحدائق الأنيقة وصاحب الحديقة يهمل العناية بمسكنه ويزين حديقته وبستانه. هذا التأنق وهذه السذاجة إذا اجتمعتا فلا توجدان حقيقة على نسبة واحدة في ألمانيا ولكنك ترى في مجموع الفقراء وأصحاب الإقطاعات ضربًا من ضروب الحب للجمال الذي لا يلبث أن يورث الحريص عليه ذوقًا ولطفًا لأنه المنبع الحقيقي لهما. هذا بعض ما عرفته وعرفه غيري في برلين من أسباب الراحة والهناء. أما التي يرى مثلها في كل بلدة أوربية من التمثيل والغناء والرقص فهو فحم في موضوعه أيضًا فيه الروح العسكرية والنظام الغريب. وكم من دار تمثيل أو مقهى أو مرقص يشبه قصور الملوك. وأسأل الله السلامة إذا وقعت إلى مسرح من مسارحهم أو مرقص من مراقصهم فترى جمال الصناعة إلى جمال الطبيعة إلى جمال الهندام والنظام فيهرك ما ترى وتسمع وتقدر في نفسك حالة القوم قبيل الحرب قبل أن يفقدوا رجلًا من رجالهم أو درهمًا من أموالهم أو شبرًا من أرضهم وديارهم.

ألمانيا الاقتصادية

١١٣

اختلت بعد الحرب جميع القواعد الاقتصادية في الممالك الأوربية ولحق من ذلك بلاد ألمانيا قسط وافر لما أخذه ولا يزال يستوفيه منها دول الحلفاء من الغرامات والتعويضات ولذلك يصعب إعطاء حكم سليم على هذه الأمة وعلى ثروتها من النقد وغاية ما تحدث به من هذا القبيل

شؤون لها وقعت قبل الحرب وبه يحكمون عليها. والحاضر مها انحط تجد فيه شيئًا من روح الغابر.

قالوا إن العمل قوة توجد نجاح الأمة وتزيده [1] ونعني بذلك العمل اليدوي كما نعني العمل العقلي الذي يقوم به العلماء.

الإنسان منتج العمل وفي الحكومات هو الشعب. ونتيجة العمل إنتاج الثروة ويزيد ربح العمل بقدر تنظيم الأدوات الفنية وزيادة الربح في العمل يتجلى في الأمة بأرقام محصولاتها وحركتها الاقتصادية وغاية العمل في دائرة الاقتصاد والاستهلاك ويتألف من زيادة ريع المحصول على النفقة اللازمة مقدار دخل أمة وزيادة دخل أمة على استهلاكها يمثل زيادة ثروة الأمة وطموح الأمة في اقتصادياتها هو نجاحها بزيادة عملها ثم بزيادة دخلها بحيث تستطيع تحسين حالتها الحيوية وأن تقوم بحاجياتها المادية والعقلية وترفع مستوى نجاحها.

إن حركة الشعب في بلاد هو العامل الأول في تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعقلي. ونمو الشعب في مملكة يكون بزيادة قواه العاملة وقوته السياسية وتوسعته مسائله الاجتماعية والعقلية والأدبية. ونمو أمة يستلزم زيادة دخل العمل الذي يضمن لها ما يلزم لبقائها كان سكان البلاد التي تدخل اليوم في أراضي جمهورية ألمانيا سنة ١٨١٦ - نحو خمسة وعشرين مليونًا فأصبحوا سنة ١٨٧١ أحد وأربعين مليونًا وفي سنة ١٨٨٨ ثمانية وأربعين مليونًا وبلغوا في إحصاء قبل الحرب ستة وستين مليونًا ومن ذاك العهد بلغت زيادة الواردات نحو ٨٠٠٠٠٠ بالنسبة لعدد السكان. وتكثر هذه النسبة في ألمانيا عن سائر ممالك أوربا

---

(١) نجاح ألمانيا الوطني من سنة ١٨٨٨ إلى ١٩١٣ لهلفريش.
Helfferich: La prospétilé nationale de l'Allemagne de ١٨٨٨ à ١٩١٣

ماعدا روسيا. فنشأت قلة هلاك الناس من تحسين التغذية والحالة الصحية وتقليل الأعمال الشاقة.

التفتت ألمانيا لأول نهضتها إلى الزراعة وكانت إذ ذاك بحالة نستطيع معها أن تخرج من صادراتها ولا سيما الحنطة إلى البلاد المجاورة كإنكلترا وهولاندة وبلاد السكانديناڤيا فكثر المال بين أيدي المزارعين ولا سيما في شمالي ألمانيا وتبسط القوم في القرى فكثرت النفوس كثرة هائلة وتوفرت المقايضات والمواصلات وزادت الطرق وكثرت سرعة البراد. وقد أنشئ في ألمانيا سنة ١٨٣٥ أول خط حديدي بين نورمبرغ وفورت وبعد عشر سنين بلغ ما مدّ منها ٢١٣١ كيلو مترًا وبعد سنة ١٨٤٨ أي عقيب الأزمة الكبرى التي أصيبت بها البلاد استعادة ألمانيا قوتها وانهال عليها المال وزادت أسعار الأراضي بعد نزولها وظلت ألمانيا هكذا في ازدياد بأعمالها الاقتصادية إلى حرب السبعين فأسست في خلال ذلك بعض مصارفها المهمة وعدنت مناجمها واشتغلت معاملها وأنشئت خطوطها الحديدية وبعد تلك الحرب كثرت فيها الأعمال الاقتصادية وتأسست الشركات. وكانت السنين التالية أعوام رخاء ونماء لما يعهد لها نظير في تاريخ الاقتصاد الألماني.

إن القاعدة الكلية في مسألة جمع رؤوس الأموال على الأسلوب الحديث والاستكثار أبدًا منها وتنمية مساحة المعامل والمصانع والمعاهد على أنواعها وجمع جيوش متكاثرة من العملة واستخراج كمية أكبر من البضائع قد تحقق في ألمانيا على صورة باهرة فنمت مصارفها في برهة قليلة على نسبة خارقة للعادة وكذلك أسباب المواصلات ومشاريع صلاتها وتجارتها على الخطوط الحديدية والطرق النهرية والبحرية ومكاتب بريدها وبرقها وهاتفها وصناعاتها الكبرى من كل نوع وكثرت خطوطها الحديدية حتى بلغت سنة ١٩٠٠ - ٩٦ ألف كيلو متر كان دخلها

إذ ذاك نصف مليار مارك ذهبًا في السنة وقد صرف عليها ١٤ مليارًا وهكذا نجحت في كل فرع من فروع العمل والإنتاج.

قال لشتنبرجه: إن القرن العشرين زاد في استيلاء الإنسان على الأمور زيادة كبرى فعمل ونجح في عمله ما فيه إدخال الحياة تدريجيًا في طور العقل ووفر الثروة المادية توفرًا كبيرًا وحل مشكلة إعاشة ستين مليونًا من البشر في أرض ألمانيا على حين لم يكن في هذه البقعة نفسها أوائل القرن التاسع عشر ما يقوم بإعاشة أكثر من خمسة وعشرين مليونًا وعلى صورة كانت أشق مما هي عليه اليوم فاستحالت مملكة فقيرة زراعية إلى معمل كبير مجهز بالعدد الصناعية والتجارية التامة إلى التي ما بعدها. وهي تقوم بفضل حذق عملتها ورؤوس أموال أغنيائها وثروتهم المحصلة والألمان يعجبون وحق لهم العجب بما فيهم من صفات الاجتهاد والثبات في العمل والنزاهة في العلم والنظام وحسن التدريب والترتيب خصوصًا وهي صفات مكنتهم من إحراز مقام عال بين الأمم الصناعية الحديثة ومن مجاراة الممالك في الجهاد العام اهـ.

نعم إن ارتقاء الصناعات الألمانية قد جعل ألمانيا المعمل الأكبر للعالم إذا وقفت حركته وقف العالم وقد ظهر ذلك عقبي الحرب فلما كانت ألمانيا والممالك الوسطى في أوربا محصورة كان العالم في ضيق شديد حتى إذا فتحت حدودها وصدرت مصنوعاتها انفرج العالم وأي فرج. خذ لذلك الكتب فإن ألمانيا وحدها تطبع نصف ما يطبع منها في العالم بأسره ونصف هذا النصف أي ربع كتب العالم تطبع في ليبسيك فلم يكن في أوائل القرن الماضي عدد المصنفات الجديدة التي تصدر في ألمانيا سوى ٣٩٠٠ - فأصبحت سنة ١٩٠٠ - ٢٤٧٩٢ وفي سنة ١٩٠٥ ٨٨٦ و٢٨ وفي سنة ١٩٢١ - ٣٤٥ و٣٢ كتابًا على حين طبعت أميركا في هذه السنة ٣٢٩ و٨ كتابًا وإنكلترا ٦٢٦ و١١ كتابًا. وكان في ألمانيا سنة

١٩٠٥ - ٧١٥٢ كتبيًا يصدرون إلى البلاد الخارجية كتبًا قيمتها مائتان وتسعون مليون مارك. وقد أصدرت ألمانيا إلى إنكلترا فقط خلال ثلاثة أشهر عقيب الهدنة ١٨١٨ من الكتب ما قيمته خمسمائة مليون مارك وفي ألمانيا زهاء ثمانية آلاف صحيفة يومية وشهرية وأسبوعية.

ولا عجب فقد قيل إن علم الاقتصاد كان قديمًا يستند فقط إلى العرف والتجربة وما النجاح الهائل الذي أحرزه العلم الاقتصادي الحديث إلا منبعث من انتشار العلوم الطبيعية انتشارًا خارقًا للعادة ولتطبيق النتائج العلمية على العمل الاقتصادي فإن العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الكهربائية وهي من متعلقات العلمين السابقين قد تسابقا في هذا المضمار وأثر كل منهما جد التأثير في تبديل الأدوات الاقتصادية وكان ذلك بفضل المفكرين والعلماء من الألمان الذين فتحوا في هذه العلوم طرقًا جديدة وجددوا اتساع العلوم الطبيعية بما اكتشفوه من قانون حفظ القوة ولم يكتف الألمان من هذا العلم بنظرياته المجردة بل صار هذا الشعب المشهور بأنه شعب شعر وعلم خلال القرن الأخير أمة عملية موجدة وهذا الإشتراك بين الذكاء والعلم والإرادة قاد ألمانيا إلى أرقى درجات النجاح.

كان من نتائج انتشار العلوم الطبيعية وارتقاء العلم في نواميس الحركة منذ القرن الثامن عشر أن يتوسع في استعمال الأدوات كأدوات الحياكة والصناعات المكانيكية وآلات الاستخراج والتعدين والمضخات وغيرها وباستخدام القوى الجديدة المحركة من البخار أولًا والكهرباء آخرًا ومن استعمال القوى المفجرة عم استعمال الأدوات وانصرفت الهمم إلى إتقانها لا جرم أن آلة البخار اخترعت في القرن الثامن عشر ولكنها لم تكمل إلا في القرن التاسع كمالًا كثر معه استخدامها في الجملة. وبعض الترقي الذي حدث في البخار مثل زيادة إحمائه والتوربين هما من

مكتشفات العهد الأخير. وساعد ألمانيا على ارتقائها غناها بمعادنها ففيها الحديد والذهب والفضة والقصدير والكاولين وغيرها من المعادن. ولم تكن المجاري الكهربائية منتفعًا بها حق الانتفاع في الأبعاد الشاسعة وبدأت الحركة باختراع التلغراف الكهربائي نحو سنة ١٨٣٠ ثم باختراع الهاتف بعد ثلاثين سنة وفي أيامنا اخترع التلغراف والهاتف اللاسلكي. وكان لعلماء الألمان وأهل الصناعات منهم اليد الطولى في هذه الاختراعات وفي إكمال البرق والهاتف واستعمالها استعمالًا عمليًا وقد راعوا في كل ذلك ولا سيما في انتقال القوة الكهربائية والغازية والمحركة إلى الأبعاد الشاسعة قلة النفقة والاقتصاد من عمل الأيدي وبذلك بدأت المستنقعات والبطائح في بلاد ألمانيا تجفف وتعود صالحة للزراعة.

وإن التوفيق الذي وقع في إمكان جمع قوة ضخمة وذلك باجتماع القوة البخارية وتوزيع القوة الحادثة منها من محطة مركزية إلى عدد كبير من المراكز المختلفة قد فتح لصنع الآلات ميدانًا للعمل لا نهاية له فأنشئت أدوات لم تكن تعرف للتعدين والحديد والنسج والورق والزراعة وما يتبعها وعمل عدة الألكحول والجعة والسكر والصناعات الكيماوية وساعد ذلك كل المساعدة على ازدياد أسباب النقل بحرًا وبرًا وعلى سير السيارات والعجلات الكهربائية وعربات الركاب والبضائع وأسباب النقل في الماء في قوارب متحركة بذاتها حتى السفن التجارية والبوارج الحربية الضخمة واختراع المحرك الخفيف ذي الوقود قد مكن من اختراق الهواء في الطيارات والمناطيد وبهذين الاختراعين حققت الآمال التي طالما حامت حولها أفكار بني الإنسان منذ ألوف من السنين.

وانتشار الكيمياء أكمل على أنفع وجه الاختراعات الطبيعية والكهربائية فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية ودرس المادة تأليفها وتبدلها درسًا علميًا قد أثر في الحياة الاقتصادية عندما ظهر علم فسيولوجيا

النبات والكيمياء الزراعية وهي الأصل في النظرية الحديثة للسماد وبذلك ارتقت الزراعة إلى حد لا نهاية له في ألمانيا. ولئن كان أساس هذه العلوم قد وضع في النصف الأول من القرن التاسع عشر ولكنها لم توضع موضع العمل الحقيقي إلا في الثلاثين سنة الأخيرة.

ولما عرفت مكانة الحامض الفوسفوري والبوتاس والأزوت لحفظ القوة المنتجة في التربة وزيادتها وكانت هذه المواد مهملة إلى ذلك العهد أصبح لها شأن مهم وقيمة غالية. وفي ألمانيا معادن مهمة من البوتاس تكاد تكون منقطعة القرين في الأرض. وقد شرعت ألمانيا تحسن الانتفاع مما ضمته أفلاذ تربتها من المعادن في الصناعة والزراعة على مقياس سارت فيه سيرًا عظيمًا وإن ألمانيا بما تستخرجه من المواد القطرانية هي في الدرجة الأولى بين الأمم لارتقاء أساليبها العلمية وأهم ما تستخرجه من القطران ألوان الأنيلين والأليزادين والمستحضرات الصيدلية مثل الأسبيرين والغيناسيتين والسكارين وسائر أنواع الزيوت القطرانية.

هذه نبذة في حال ألمانيا الاقتصادية وجهادها في مضمار الحياة المادية وقد ساعدها على ما هي فيه مزج كل شيء بالعلم وكل علم بالعمل بحيث يتراءى لك أن سماء بلادها وأرضها تعمل عملًا متساوقًا متقنًا.

العلم والعمل
١١٤

قال أحد الألمان لرجل من الفرنساويين إننا من عدة وجوه متأخرون عنكم فقد كانت بلادنا التعسة مدة ثلاثة قرون مساحة حرب أوربا. أتذكرون أن الفرنسيس كانوا إذا فكروا في مسألة عرش النمسا وغوستاف

أدولف إذا أحب أن يصبح رئيس حزب البرتستانت ولويز الرابع عشر إذا نشأت له بعض صعوبات مع الإمبراطور كانوا كلهم ينزلون أرضنا ويقتتلون على أديمها فتخرب على الدوام فكنا فقراء بينا كنتم معاشر الفرنسيس آخذين بأسباب النجاح والترقي. قلنا ومعظم تخريبات الحرب الأخيرة لم تكن هذه المرة في أرض ألمانيا بل في بلاد الحلفاء من الفرنسيس والبلجيك والروس فتغيرت تلك النظرية.

وقد تداركت ألمانيا ما فيها من نقص وحمت نفسها وبسطت سلطانها بالمدرسة والثكنة. وجعل اليوم المعمل بدل الثكنة ولا يزال الألماني كما كان قبل الحرب إلا قليلًا يعيش موسعًا عليه ويأكل كثيرًا ويؤوى إلى مسكن حسن للغاية والعامل فيهم يكتسي أحسن من ثياب صاحب الأملاك في الأمم الأخرى ويستحم على الأقل مرة في الأسبوع. ومن المدن ما تعطي لأعضاء بلدياتها رواتب الوزراء. وفي كل محل ترى صناديق الضمانة تعمل عملها مع المرضى والزمنى والشيوخ كما تشاهد ملاجئ للناقهين وعشرات من المعاهد تشبهها. وليس في الطرق شحاذون والفقراء يؤخذ بأيديهم ويعالون بعض الشيء أو يستخدمون. ومن الناس في ألمانيا من يبتاعون أحيانًا بعض رفاهيتهم بالدين ولكثير من البيوت أثاث حسن لم يؤد أهله ثمنه. وكثير من مدنهم كانت تقترض ملايين لينشئ بها دور تمثيل وتنصب في ساحاتها التماثيل والنصب فالألماني يستمتع بالحياة وربما تعجل الرفاهية.

ولقد وضعت الحكومة يدها في ألمانيا بعد الحرب على المساكن الفارغة في المدن فصارت لا تكريها إلا لمن كان له عيال تؤثرهم على غيرهم من العزب فحملت بذلك الناس على التزوج من طرف خفي ثم لما امتلأت الدور في بعض المدن أعلنت أنها لا تتعهد بعد الآن بمسكن لصاحب أسرة يتطلبه منها فأخذ الفتيان في بعض الإمارات ولا سيما في

بافاريا يتزوجون في الثامنة عشرة من عمرهم حتى يولد لهم ويسدوا نقص الأمة ويستعيضوا عمن فقدت من أبنائها في الحرب وبذلك أصبحت ألمانيا تزيد في السنة نحو مليون نسمة وناهيك بهذه الزيادة بعد عشرين أو ثلاثين سنة. وكل من يصلح للعمل في المعمل أو في الحقل ينال رزقه في الحال ولذلك قل أن ترى في ألمانيا عطلًا من عمل أو رجلًا ضاقت عليه أوجه الحيل لاستحصال معاشه.

كانت الهجرة قبل الحرب كثيرة من ألمانيا إلى أميركا وغيرها وزيادة المواليد على الوفيات كانت تسد الخلل وما زال بضعة ملايين من الألمان في شمالي أميركا محتفظين إلا قليلًا بلغتهم ومشخصاتهم ولهم هناك جرائدهم ومدارسهم. ولألمانيا منذ القديم معرفة باستعمار الأرض وتكثير النسل حتى أعطي ملوك بروسيا أراضي أربعمائة ألف مهاجر فرنساوي وسالسبورغي وسوسنباني ممن كانوا يغادرون أرضهم هربًا من الاضطهاد الديني في بلادهم الأصلية فأسكنوهم في البلاد القليلة السكان في بروسيا الشرقية فأصبحوا ألمانًا مع الزمن واليوم نرى حكام ألمانيا يحاولون إرجاع قسم من سكان المدن إلى الأرياف والأرباض ليتوفروا على الزراعة ولا يحملوا المدن فوق طاقتها.

من كان ينزل ألمانيا قبل الحرب الأخيرة لم ير غير جند يتنقل، وضباطًا تنزل وترحل، كأن البلاد في حالة حرب فلما ثارت الحرب العامة وغلب ذاك الجيش الألماني العجيب بتدريبه وقوته على ما شهد له بذلك خصومه أصبحت لا ترى للجندية تلك الروح التي بثتها بروسيا في ست وعشرين إمارة ألمانية ضمتها إلى صدرها وجعلتها بعد حرب السبعين الفرنساوية الألمانية مملكة متحدة الأجزاء قوية الدعائم. بل قد عادت تلك القوة على الكمون فقد أوقفت ألمانيا بعد الحرب معامل السلاح والتدمير والأساطيل البحرية والهوائية وقلبتها معامل صناعية وارتقاء

الصناعة الألمانية كان علة الحرب أو إحدى عللها. وكيف تترك إنكلترا الأولية في الصنائع لألمانيا كما كانت لها الأولية بجيوشها البرية وكاد يكون لها التقدم في البحرية لو طال السلم بضع سنين أخرى ولم تنشب تلك الحرب الضروس. والتربية كما قال ميلتون لا تعد صالحة إلا متى جعلت المرء كفؤًا لجميع أعمال السلم والحرب.

قال غوستاف لوبون: ما من ينكر على الألمان ذوقهم في العمل ونباتهم وفكرهم في النظام ووضع الخطط اللازمة له ولاسيما في الأعمال المشتركة. وقال بلغ من ارتقاء الألمان في النشوء الصناعي الحديث أن برزوا في قليل من الزمن من مستوى منحط في الجملة إلى أول درجات المدنية. وقال أيضًا: استخدمت إنكلترا الحرب لتوسع مملكتها إلى أقصى ما يتصور من العظمة وتملي على الشعوب الضعيفة إرادتها وتستبدل في أوربا فضل تصدرها بتصدر الألمان. وقال أيضا: لا يروق إنكلترا أن ترى في قارة أوربا دولة قوية تهددها فقد كانت سنة ١٨١٥ هذه الدولة دولة فرنسا وعلى رأسها نابليون وفي سنة ١٩١٥ كانت تلك الدولة ألمانيا وعلى رأسها غليوم.

نشأت الروح البروستية من أربعة عوامل أساسية: «الثكنة» و «المدرسة» و «تأثيرات الفلاسفة» و «حكمة المؤرخين». عوامل رئيسة عملت عملها عدة أجيال فأتت بتأثيرات مهمة يصعب معها نزع فكرة التسليح من نفوس الألمان بعد أن أصبحت عقيدة ثابتة فيهم حتى قال لوبون: إن الألمان لا يعدلون عن هذه العقيدة عقيدة حمل السلاح أو ينزع المسلمون عن الإسلام. وليس في تاريخ العالم شيء من المعتقدات نزع من نفوس معتقديها بقوة السلاح ولا بالبرهان العقلي فإن الألمان ينسبون جزءًا من تفوقهم الاقتصادي إلى التسليح. يقول «لا يبنز» الفيلسوف الألماني: يتأتي بالتربية تغيير ذهنية شعب في أقل من قرن. وهذا الحكم لا

يصح في الشعوب التي ثبتت تراكيبها وكان لها ماض طويل فإن روح عنصر تمثل شيئًا من معنى البقاء والديمومة وفي التربية تتوجه ملكة الأمة إلى معنى معين ولكنها لا تتبدل.

بعد حرب الثلاثين سنة نزل سكان ألمانيا إلى النصف وبحروب نابليون بهظت الديون عاتق المدن قرنًا من الزمن وأفلس ألوف من البيوت الكبيرة وكان العروسان بعد واقعة يينا يجعلان في يديهما خاتمين من حديد بدل الذهب علامة الخطبة وقد نقشا عليه: أعطيت الذهب لأحصل على الحديد.

قلنا إن أول قوة من قوى ألمانيا الحديثة قوة المدرسة فقد كان فيها بحسب إحصاء سنة ١٩٠٦ - ٦١,١٩٨ مدرسة ابتدائية فيها ٩,٧٧٩,٣٥٨ تلميذًا ولها الآن إحدى وعشرون جامعة لا يقل تلامذتها عن ٦٥ ألفًا هذا عدا المدارس الوسطى والصناعية والزراعية والمدارس الفنية العالية ومدارس العميان والزمنى والمعتوهين والصم والبكم والمصابين بالصرع ومدارس الليل للبالغين وغيرها مما يدعو إلى تعليم وتربية. وتقسم المدارس في ألمانيا طبقتين مدارس التربية والمدارس الخاصة أو الصناعية ويدخل في الأولى المدارس الابتدائية والوسطى للذكور والإناث وهي ثلاث درجات مدارس القرى (من الصف الأول إلى الرابع) ومدارس المدن من سبعة إلى ثمانية صفوف والمدارس الوسطى في المدن الكبرى مع تعليم لغة أجنبية (٩ صفوف) والمدارس الثانوية هي مدارس الذكور ذات تسعة صفوف وأربع لغات أجنبية ومدارس الإناث مع أربع لغات أجنبية ومدارس أخرى ذات تسعة صفوف ومنها ما يدرس ثلاث لغات أجنبية ومنها لغتين والمدارس المنظمة على طريقة فرنكفورت والمدارس الثانوية للبنات مع لغتين أجنبيتين وهي ذات تسعة أو عشرة صفوف هذا ما عدا المدارس الصناعية وما عدا مدارس

المعلمين والمعلمات التي تناهز ٣٠٠ مدرسة عالية ووسطى ولا يقل تلامذة المدارس الدنيا والوسطى والعليا على اختلاف فروعها وأسمائها عن عشرة ملايين وناهيك بذلك من قوة لا مثيل لها في المغرب اللهم إلا في الولايات المتحدة.

بدأت ألمانيا [1] في أوائل القرن التاسع عشر بقيام الفيلسوف فيختى وهيجل لإصلاح التعليم وما أنشأه من الأوضاع العلمية التي حملت الحكومة على تولي إدارة التعليم بدل الكنيسة وأخذها على عاتقها تنسيقه ومراقبته ونشره على اختلاف درجاته ورأت الأمة من واجبها أن تحمي المساكين والضعفاء خاصة وتدفع عنهم عوادي الهلاك وأسواء الفساد الأدبي وتمد إليهم أيدي المعونة في الأزمات وتقيهم مقعدات العجز والزمانة فكان نجاح التعليم العام وتنظيم التضامن الاجتماعي أول ما بذلت الحكومة الألمانية عنايتها به فبعد أن كانت المدارس اللاتينية والكليات تخرج في القرون السالفة رهبانًا ولاهوتيين نزعت عن التعليم صبغته الدينية فأصبحت مجامع علمية لا يتصدر فيها اللاهوتيون ولا الفلاسفة واللغويون كما كانوا أوائل القرن الماضي بل التصدر فيها لرجال العلم والأطباء. ثم نزع التعليم من يد الكنيسة بتحريض بستالوزي أحد كبار علماء التربية فيهم (١٧٤٦ - ١٨٢٦) وأخذت تلقي في نفوس التلاميذ الاعتماد على النفس وحب العمل وتبث فيهم القول بحب الذات أو بالشخصية الحرة المستقلة وأخذت المدارس تشرب طلبتها محبة الوطن كأنه دين ثان وذلك بفضل العناية التي صرفت لتعليم اللغة الألمانية ولا يزال للكنيسة إلى اليوم تأثير مهم في ألمانيا ولاسيما في دائرة التعليم الابتدائي والظاهر أن ألمانيا لا تنوي الآن نزع النصرانية من المدرسة حتى إن أرباب الأفكار الحرة وهم بعيدون عن كل معتقد لا

---

(١) ألمانيا الحديثة لهنري لشتبرجه Henri Lichtenberger: L'Allemagne moderne.

يرون بأن نزع الصبغة الدينية من التعليم في ألمانيا هو من الممكن أو مما يرغب فيه وهم معتقدون بأنه متى أصبحت المدرسة «كافرة» لا دين لها يحول قسم وافر من سكان البلاد ولاسيما الكاثوليك وجوههم عن المدارس العامة وينظمون لأبنائهم مدارس خاصة لتعليمهم الدين الذي يرونه ضروريًا لهم.

زالت الحواجز التي كانت تحول دون أصناف التعليم وبطل اعتبار اللغة اللاتينية لغة إجبارية لكل من أراد التهذيب العالي وانتزع من المدرسة المدنية على التدريج ما كان لها سابقًا من صبغة مدرسة لاتينية وغدا التعليم على اختلاف درجاته أكثر تشبعًا بالروح الأدبية أو الفلسفية وأقل تمسكًا بالنظريات وقامت بجانب المدرسة الأدبية مدارس أحدث من مدارس الفلسفة الحقيقية والحسية وزادت العناية بتعليم العلوم واللغات الحية فكانت وافية بحاجات أهل المدن الصناعية أو التجارية ونشأت بالقرب من الكليات في كل مكان مجامع علمية ما زالت على ارتقاء ونماء وقد جرى بين الناس مجرى المثل قولهم بأن المعلم الألماني كان هو الظافر الحقيقي في معركتي سادوثا وسيدان وأن غلبة ألمانيا أتتها في الحقيقة من سر تقدمها في مضمار العلم والتهذيب. ولئن قالت فئة من العارفين بأن ألمانيا بالغت وأكثرت في نشر العليم فإن أهل الاعتدال منهم مازالوا موقنين على الجملة بأنه لا تحرز المكانة العليا في إيجاد العالم نحو التفوق والسلطة إلا الأمم التي تحسن أن تضمن لفتيانها تعليمًا متينًا وتهذيبًا راسخًا بما تنظمه من المدارس المتقنة وما تكونه من البيوت الناجحة في شؤونها الاقتصادية والسالمة من شوائب مفاسد الأخلاق.

يرى العارفون أن تأويل الارتقاء الذي فازت به ألمانيا أتى من إسراعها قبل جميع الأمم في وضع قانون التعليم الإجباري ومن عنايتها بتخريج

أساتذة عارفين ما أمكن في جميع فروع التعليم. وبالتعليم فتحت العقول واستوت (المقتبس م ٢ ص ٤٠٤) لقبول الأفكار الحديثة فرق شعور الأفراد ومرنت قواهم وامتد ذكاؤهم وفويت عقولهم وقل الاختلاف بين الطبقة العالية والطبقات النازلة في المجتمع وذلك في الأمور الذهنية فقط فخرج عاميهم من غفلته وتغفله وصقل ذكاؤه ورق إحساسه وبدأ يفكر في غير الضروريات المادية في حياته اليومية واتسع أمامه ميدان النظر وامتد أفق الغايات السامية واهتم بالاطلاع على ما يحدث في العالم وقد زادت بارتقاء ألمانيا في صناعاتها وتحسين زراعتها ورفاهية الأمة وحسنت الأخلاق وسعدت الحياة وأصبحت داخلية المدن إلى اللطف والذوق يتوفر فيها الزخرف والبهرج والنظافة المفرطة يلبس العملة منهم أجمل الثياب وأنظفها ويسكنون في أبنية جديدة ويعيشون مرفهين بالجملة. وانتشرت الديمقراطية في المدن أسرع من القرى حيث يهتم السكان للزراعة والقيام على الماشية وساكن المدن أكثر علمًا وحركة وحضارة. والفلاح في العادة من المحافظين وعامل المدن ديمقراطي.

هذه نتف من حال العلم والعمل في ألمانيا والفضل الأول في تسلسل العلم في أبنائها جيلًا بعد جيل لما منحه أمراء البيت المالك في ساكس للآداب من أشرف أنواع المعونة والاستقلال منذ عهد الإصلاح الديني ولا حرج إذا قلنا أن ليس في بلد في الأرض انتشر فيها التعليم كما انتشر في ساكس وشمالي ألمانيا فهناك نشأ المذهب البرتستانتي وحرية البحث والنظر منذ ذاك العهد بشدة. قالت مدام دي ستايل هذا وأوردت أمثلة على انتشار العلم في عهدها في تلك البلاد يدهش لها سامعها وقالت إن الكتب منتشرة بحيث إن الحجار بل جميع طبقات العملة إذا أحبوا الراحة تجد كتابهم بأيديهم يطالعونه وأن ليس من مدينة مهما صغرت إلا ولها

خزانة كتب مسبلة على المطالعة وفي كل مكان رجال عظام يرغب في محادثتهم للاستفادة منهم.

وقالت: ليس للآداب الألمانية ما جرت العادة بأن يدعى بالعصر الذهبي أي القرن الذي كانت فيه الآداب مرتبة بارتقائها لحماية زعماء الأمة فإن ليون العاشر في إيطاليا ولويز الرابع عشر في فرنسا وفي القرون القديمة بركليس وأغسطس قد أطلقا اسميهما على عصريهما ولك أن تعد عهد الملكة حنه أزهر عصور الآداب الإنكليزية ولكن هذه الأمة الألمانية التي تقوم بنفسها ما كانت قط مدينة لملوكها برجالها الأعاظم.

مدارس ألمانيا
١١٥

قال أحد علماء الفرنسيس للعلم العملي عند الألمان شدة ونفوذ لا تجد مثلهما في أمة من الأمم فإن جميع طبقات المجتمع يشتركون فيه من الوزير إلى صاحب الحانة ومن الصيرفي الجهبذ إلى غلام المقهى. وقال آخران نجاح ألمانيا الصناعي من العجائب. وقال أحدهم الألمان كجيش منظم فيه من كل أصناف العاملين فالجندي جندي والضابط ضابط والقائد قائد والطاهي طاه ولا من ينازع الآخر في عمله أو يتطاول إلى بلوغ مداه. وقال غيره: لا جدال في أن ألمانيا بلد تعمل فيه الآلات الطابعة في المطابع العلمية عملًا كثيرًا. وذكر أحدهم [1] أن السائح الذي يجتاز ألمانيا يدهش في العادة من أنه لا يرى بيتًا قائمًا وحده في الأراضي الزراعية بل إن جميع المساكن في الحقول منضمة بعضها إلى بعض

---

(١) من مقالة لأحد رجال الفرنسيس في كتاب ألمانيا العاملة عرباها لمجلة المقتبس ج٥ ص٥١٥.

بحيث يتألف منها أحيانًا مدن وهذا مما يدل على فكر الاشتراك المتأصل في العنصر الجرماني الذي يستغرب حال شخص يريد الابتعاد عن أخيه. وهناك شيء آخر وهو أن معظم حكومات ألمانيا تحظر إنشاء المساكن بعيدة عن مراكز القرى حتى لا يحرم الأولاد من الاختلاف إلى المدرسة في الأيام الممطرة العاصفة ويسأل الوالدان عن تأخر ولدهما إذا تخلف عن المدرسة فإذا تخلف أحدهم يجب على أقربائه أن يبينوا معذرته وإلا فيجازون أشد الجزاء. وعلى رؤساء المعامل الذين يستخدمون في الخلاء عملة أو موظفين أن يضمنوا لأولادهم حملهم كل يوم إلى مدرسة القرية القريبة وإذا كثر العملة في بقعة بعيدة تؤسس في الحال مدرسة عامة وتكون في العادة بإعانة من صاحب المعمل وكان من أثر هذه العناية أن قل عدد الأميين في ألمانيا بحيث لا تجد واحدًا في الألف على أنهم لم يكتفوا بتعليم المبادئ فقط بل إنك لا تدخل قرية ولا معملًا ولا بيتًا إلا وتجد الجرائد والكتب في الأيدي تتلى ويستفاد منها بين جميع الطبقات.

للتعليم الابتدائي والأوسط في ألمانيا ميزتان لا نظير لهما في سائر الممالك وهي أنه لا يبعد المتعلم عن العيشة البيتية بين ذويه فيفضلون طريقة المدارس الخارجية على الداخلية أي أن يتعلم التلميذ في المدرسة في النهار ويجيء في الليل يبيت في دار أبيه وهذا التعليم سلم للتعليم الصناعي الذي تختلف درجاته وتراه نظريًا وعمليًا في آن واحد. هذا إلى ما هناك من دروس الأشياء والمجاميع النفيسة التي تراها في المدارس الألمانية والتعليم بالنظر وبالذهن والعمل والنزهات المفيدة وغير ذلك من أنواع التربية. وما من ألماني إلا ويتعلم شيئًا من التعليم الصناعي ففي هذه البلاد التي يكاد الناس كلهم يعملون قد وقع في النفوس أنه لا يجوز لأحد أن يتعاطى صناعة من الصنائع المقررة قبل أن يتعلمها بالنظر والعمل. وهذا ما أدى إلى إنشاء كثير من المعاهد الملوكية والإمبراطورية

والبلدية والخصوصية تقصدها الأمة فتستقي من مواردها قوتها المنتجة والعقلية.

وأعظم هذه المعاهد وأقدمها وأشهرها جامعاتها وعددها إحدى وعشرون جامعة. وكانت كل إمارة من الإمارات الألمانية فيما مضى تحاول أن تكون لها جامعة فأقدمها جامعة هايدلبرغ أنشئت سنة ١٣٨٦ وأحدثها كلية فرانكفورت أسست سنة ١٩١٣. وقدم الجامعة عنوان شرف لها. ومن أشهر جامعات ألمانيا جامعة ليبسيك أنشئت سنة ١٤٠٩ وهي تفاخر بأن من جملة أساتذتها الفيلسوف لا يبنز ومن جملة طلابها كيتي الشاعر وفاكنر الموسيقار. وكل جامعة تنقسم إلى شعب أربع وهي الإلهيات (على المذهب البرتستانتي والكاثوليكي) والحقوق والطب والفلسفة وهذه أربعة فروع (أ) الفلسفة المجردة وعلم التربية والمنطق (ب) علم اللغات والآداب (ج) التاريخ والجغرافيا وتاريخ الصنائع والموسيقى (د) السياسات وعلم الاقتصاد (هـ) الرياضيات والطبيعيات (وهي الرياضيات وعلم الفلك والحكمة الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الأرض) وهاك أسماء هذه الجامعات وتاريخ تأسيسها: برلين ١٨٠٩ مونيخ ١٤٧٢ ليبسيك ١٤٠٩ بون ١٨١٨ هالله ١٥٠٢ برسلاو ١٧٠٢ فرايبورغ ١٤٥٧ غوتنغن ١٧٣٧ مونستر ١٧٧١ هايد لبرغ ١٣٨٦ ماربورغ ١٥٢٧ توبنغن ١٤٧٧ يينا ١٥٥٨ كنغنبرغ ١٥٤٤ كيل ١٦٦٥ ورتسبورغ ١٤٠٢ كيش ١٦٠٧ أرلانكن ١٧٤٣ كرابغسوالد ١٤٥٦ روشتون ١٤١٩ فرانكفورت ١٩١٣.

وهذه الكليات [١] مستقلة حرة ولكنها منظمة بنظام واحد. والجامعات مهما كانت وجهتها في تعليمها نظرية أو عملية لا تنافس في إعداد مهندسين وصناع والمباحث التي يستفيد منها أمثالهم يرونها في المجامع الكيماوية والعلوم الطبيعية في المدارس الصناعية هي التي يتخرج فيها أرباب الهندسة والصناعات وهذه المدارس تابعة لكل إمارة تخرج كل سنة ثلاثة آلاف مهندس يدرسون فيها أربع سنين هذا عدا من يتخرجون من المدارس الثانوية الصناعية ويحرز لقب «دكتور» تلامذة المدارس الصناعية العالية كما يحرز المتخرجون في الجامعات. ولقب دكتور أشرف الألقاب وأعلاها في ألمانيا، والألمان أحرص الأمم على لقب دكتور حتى إنك إذا لم تطلق هذا اللقب الشريف على من ناله عدَّ ذلك منك سخرية وفي ذلك دليل كبير على ميل هذا الشعب للعلم والتلقب بألقابه.

وفي هذه المدارس يتجلى ميل الألمان للأخصاء فيعلمون ما يعلمه غيرهم من الأمم فردًا واحدًا لخمسة أفراد قائلين إن الذهن لا يتسع لإكثار المواد عليه. والألمان لا يحرصون على تعليم الهندسة لأذكى أذكيائهم بل يريدون أن يجعلوها قريبة المنال من كل أحد وهم يستعملون كل الطرق التي يرونها نافعة لئلا يتعبوا الفكر على غير طائل بإغراقه مدة ساعات في حل قضية ولذلك ترى الأساتذة يأخذون تلامذتهم إلى معامل خاصة ليطلعوهم بالعمل على ما ينبغي لهم الاطلاع عليه من الآلات والأدوات. وكل معامل المدرسة وغرفها وحجر كتبها وصفوفها منارة بالكهرباء أو بالغاز على صورة لا تضر بصحة العيون حتى إنه ليقل جدًّا عدد الحسر في الألمان لشدة العناية بالعيون. وهكذا لا تمر بقرية ولا قصبة ولا مدينة

---

(١) الجامعات الألمانية في القرن العشرين لكروشته R.Cruchel: Les Universites Allemandes an XX e siècle.

ولا عاصمة في ألمانيا إلا وتجد فيها مدارس صناعية كبيرة وصغيرة على نفقة الحكومة أو البلديات تعلم الصناعات المختلفة. ومن هذه المدارس ما هو أشبه بقصور الملوك منه بالمدارس لما حوى من المرافق والردهات والأروقة والساحات والأدوات.

من الكليات نشأت الانقلابات الكبرى في الفلسفة والدين والعلم (المقتبس م ٦ ص١٣٧) ومنها نشأت الوحدة الألمانية وكان الألمان إلى ذاك العهد أمة فكر وشعر يقولون في أنفسهم أنهم تركوا البر لجارتهم فرنسا تتصرف فيه على ما نشاء والبحر لإنكلترا تسرح فيه وتمرح ولم يبق لهم إلا الاحتفاظ بالسماء منزل العقل. والوحدة السياسية التي كان يراها بعضهم من الخيال قد تحققت من طريق العلم والعمل بفضل الجامعات التي كانت مركز الحياة الوطنية. والغاية من هذه الجامعات أن لا تخرج علماء صرفًا ولا رجال صناعات ممتازين بل أن تهذب طلابها تهذيبًا يتيسر لهم معه أن يستعدوا لدخول المجتمع والتصدر فيه فليست الغاية إذًا أن تخرج تلك الكليات أساتذة وحكامًا ورجال دين للحكومة ولا أن تعد محامين وأطباء للأمة بل أن تعلمهم تعليمًا عمليًا وتلقنهم الخطة التي يجب عليهم أن يسيروا عليها وتقفهم على أساليب البحث والنقد وتقوى فيهم ملكة أخلاق العلماء كالعفة وخلو الغرض وسعة الفكر وتلقنهم شيئًا من العلوم المساعدة وأن يطلقوا رائد الطرف إجمالًا في الميدان الذي يجب عليهم أن يجروا فيه وبالجملة تؤهلهم إلى أن يتموا هم بأنفسهم ما بدأ به أسلافهم.

يتعلم الطالب المتخرج في جامعة ألمانية ما هو ا لعلم إذا اقترن بعلم خاص. فلا يكتفي بشهادة ينالها فيحق له بها أن يقضي أو يشفي أو يعلم أو يلقن الدين لمواطنيه بل ينبغي له أن يتمرن سنة في الفرع الذي يريد الإخصاء فيه ثم يقدم فحصًا بعد أن تكون المدرسة قد أعدته للنظر

الإجمالي في الحياة العلمية. ولرجال الدين والأساتذة والمحامين والقضاة والموظفين والأطباء في ألمانيا الذين ينشأون من الجامعات طبقة خاصة ومنزلة سامية بين قومهم لا ينالها إلا الضباط ولكن الصيارف والتجار وأرباب الصناعات والأملاك مهما بلغوا من الغنى والذكاء وخدموا المصلحة العامة هم بمنزلة دون أولئك الذين تخرجوا بأساتيذ الجامعات. وتناغى القوم في الأعمال الحرة لقن طبقات الأمة الألمانية أن أرباب الصناعات والتجارات وهم من طلاب المال والغنى لا يعيشون مهما بلغوا من الذكاء إلا للثروة ولذلك تكون منزلتهم في الأنظار دون منزلة العاملين بأفكارهم وعقولهم.

تضمن الجامعة الألمانية للطالب فيها تهذيب العقل من جهة وتربية الإرادة والخلق من جهة أخرى وذلك بإطلاقها حرية الطالب فيها فتعامله معاملة رجل حر عاقل له حق التصرف بأمواله ولسان حالها يقول: «اعمل ما يروقك واعلم فقط أنك ستجني ما زرعت» وفي الأناشيد الألمانية شيء كثير يشير إلى أن حرية الطالب أثمن شيء وأنها من أوصافه الخاصة به. فالفتى لا يحضر دروس الجامعة للحصول على معارف تنفعه لاحتراف حرفة في المستقبل وما هذا الطلب إلا ثانوي بل إن الغاية التي يسعى وراءها في سنيه التلاب في الجامعة هو أن يصبح رجلًا وتكون له شخصية. يعينه على ذلك أساتذته وأترابه. ومن هنا نشأت فائدة جمعيات الطلبة لأن الطالب يتعلم فيها أمرين مهمين الطاعة واحترام الناس له. والطلبة المتقدمون يطبعون على ذلك الطلبة المتأخرين أو المحدثين بمحافظتهم على قواعد لهم يسنونها فينبعث في الطالب شعور الشرف وعزة النفس في الحياة المشتركة وتقوى إرادته على الصدمات فهو إذا خلص من سلطته في منزله بين أبويه يكون لتلك الجمعيات عليه شيء من السلطة الأدبية فبالجامعة لا يصبح رجلًا عالمًا ومهذبًا فقط بل صاحب

أخلاق. قال أحد العارفين إن الجامعات الفرنسوية تنقصها الحرية والجامعات الإنكليزية ينقصها العلم وفي الجامعات الألمانية لا ينقص هذا ولا ذاك.

قالت مدام دي ستايل: إن بلاد ألمانيا التي ارتقى فيها البحث والنظر ارتقا بعيدًا يسوغ أن تعد وطن الفكر ومن المحال أن لا يكون كتاب الألمان وهم أكثر كتاب أوربا علمًا ونظرًا مستحقين ساعة من العناية للبحث في آدابهم وفلسفتهم. وذكرت أن العلماء كانوا يشتغلون في عهدها ثلاث عشرة ساعة في بعض بلاد ألمانيا على أسلوب ونظام وتساءلت عن النتيجة التي يحصلون عليها في بضع سنين. وقالت: امتلأ شمالي ألمانيا بجامعات هي أكثر كليات أوربا علمًا وما من بلد حتى ولا إنكلترا توفرت فيه أساليب التعلم وتهذيب القوى مثلها هناك والجامعات الرتستانتية أرقى من الجامعات الكاثوليكية وجميع المجد الأدبي الذي اختصت به ألمانيا يرجع إلى هذه المعاهد. وقال أحد كتاب الفرنسيس إن تربية الجامعات الألمانية تبتدئ حيث تنتهي تربية عدة أمم في أوربا.

قام مجد ألمانيا قديمًا بمن نبغ فيها من الفلاسفة ثم بمن نبغ فيها من القواد والجند ومجدها اليوم مناط إلا قليلًا بأرباب الصناعة والتجارة من أبنائها. حاجة المدنية الحديثة ماسة للأخصاء في العلوم والتفرد في الصناعات وألمانيا لا تجهل أن قوتها في جهاد الأمم السلمي بمن لديها من الأخصائيين الكثيرين الذين لا نظير لهم عند الأمم الأخرى بكثرتهم وتنوعهم. فقد كان كيتي يرى ضرورة الاختصاص الذي به فقط يصبح المرء عضوًا نافعًا في المجتمع فإن حسن المعرفة وإحسان عمل شيء واحد يورث ارتقاءً كبيرًا أكثر من أن يعمل المرء نصف عمل ويشغل نفسه في مئة مسألة. وإن أول واجب على الإنسان أن يتعلم صناعة واحدة تعليمًا حسنًا فالمتوسطون بذكائهم يكون منهم أرباب صنائع وأرباب

الذكاء الواسع يصبحون رجال التفنن حتى إن النابغة نفسه يرى في الشيء الوحيد الذي يحسن القيام به رمزًا لكل ما يعمل حسنًا وإشارة لكل جهاد نافع ومثمر.

إن ألمانيا تفاخر وحق لها الفخر بأنها موطن كبار الفلاسفة أمثال «كانت» و «ليسنغ» و «ليبنز» و «شوبنهور» و «فيختي» ومن الشعراء «كيتي» و «شيلر» وأن من ربوعها قام الإصلاح الديني فقلب لوتيروس بدعوته الغرب كل مقلب وأنها وطن «ورتمبرغ» مخترع الطباعة أول محسن للمدينة.

أخلاق الألمان

١١٦

عرفت من أخلاق الألمان في الحرب الأخيرة كما عرف كثيرون غيري من الأتراك والعرب يبوسة في الطباعة لم تعرف في أخلاق النمساويين والمجريين مثلًا وذلك لأن معظم من وردوا على بلادنا لذاك العهد كانوا ضباطًا والجند أشداء الشكيمة صعب مراسهم، وأهل بروسيا من بين الألمان خاصة يشتكي من شدتهم حتى المتحدون معهم أمثال أهل بافاريا. ولعل لاختلاف المذهب دخلًا في هذا الاشمئزاز لأن بروسيا برتستانتية وبافاريا كاثوليكية أو لأن بروسيا هي التي سيطرت على ألمانيا ووحدت كلمتها. وكيف كان الحال فالأمم الأوربية لا يصح عليها الحكم خارج بلادها بل يحكم عليها بما تُرى عليه في أرضها وعقر دارها.

قالت مدام دي ستايل: يجب على من أراد أن يعرف بروسيا أن يدرس سيرة مؤسسها فريدريك الثاني الذي كان يجمع إلى خشونة الجندي رقة المدني ويمزج روح الجندية بالعدل المدني وكان من القيد في محل

والحرية في آخر بحيث يعجب به كل من يقرأ سيرته ويرى آثاره في أمته. كان فيلسوفًا تخرج بفلسفة القرن الثامن عشر الفرنساوية فعدلت فيه الاستبداد الذي فطر عليه الحاكم المطلق. وكان لا يشق عليه أن يسمع كلمة السوء توجه إليه فيترك الناس وحريتهم يقولون فيه ما يشتهون. وكان هذا من غرائبه. وقد أعطى المحاكم حريتها بحيث كانت تحكم على أقرب الناس إليه وكثيرًا ما نحكم في مسائل سياسية تخالف إرادة الملك ومن المتعذر إدخال الظلم إلى محاكم ألمانيا. قالت إن في الألمان بعض الاستعداد لاختراع أساليب تؤهلهم للتخلي عن السياسة للأخذ بالعرف ولكن إذا كان يراد إحقاق حق أو إدارة مصلحة لا سبيل لأن يدخل في عقولهم غير مبادئ العدل فإن فكر النظام فيهم دع استقامة قلوبهم يطالب بالعدل كأنه يدخل النظام في كل شيء.

وقالت أيضًا: الألماني هم بالإجمال مخلصون وصادقون وندران يرجعوا عن أقوالهم والغش صنعة لا أثر لها عندهم وهي غريبة عنهم وإذا حدث أن تسلل الغش إلى ألمانيا فذلك حسدًا من أهلها للأجانب فيقتدون بأخلاقهم لكي يظهروا مثلهم في الحذق وحتى لا يكونوا أنفسهم مغشوشين ولكن الشعور الحي وطيبة القلب تؤدي في الحال بالألمان إلى أن يشعروا بأن لا قوة إلا ما جاء من طبيعة المرء وإن اعتياد الحشمة لا يجعل في الإنسان استعدادًا للاحتيال ولو أرادة. وإذا شوهدت في الأمم اللاتينية سياسة غريبة في الحذق للتملص من جميع الواجبات فالأمة الألمانية ولها الفخر في ذلك ليس لها استعداد لهذه الليونة الجريئة التي تلين كل الحقائق لأجل المصلحة وتعبث بجميع العهود أمام كل النظريات. وما الألمان إلا أمة عرفت بالقدرة على العمل وفطرت على حب النظر والفكر وهما خاصيتان ملازمتان لها.

وقال جناب شهاب الدين: ما من صنف من الناس يحتقر الصنف الآخر في ألمانيا بل جميع الطبقات متساندة ويحاول الألمان أن ينظروا إلى أصحابهم وأعدائهم على نسبة حقيقية ويعرفون أعداؤهم معرفتهم لأصحابهم ولا ينظرون إلى أحد بمجهر الشعر والحس كأن يعطوا أصدقائهم درجة تفوق استحقاقهم ويضعوا أعداءهم إلى دركة هي دون مرتبتهم الحقيقية فكما يقيس الألماني أخاه ويفصله ويزنه ويعاينه ويحلله هكذا يعمل مع غير الألمان.

وقال لشتنبرجه: للألمان مرونة في الفكر تسهل عليهم إدراك ما تنتجه قرائح الأجانب وعدم محاباة فطرية تهيئهم لفهم بقية الشعوب والحكم عليهم بأسلوب شامل ونظام عام ينظر فيه إلى الكفاآت والهبات. وقال أيضًا: الألمان يعجبون وحق لهم العجب بما أنصفوا به من الجد والنبات والاستقامة في العمل والنظام والترتيب خاصة.

وقالت مدام دي ستايل أيضًا: للألمان في الآداب عناية بالغة بما يأتي عن طريق الأجانب كما لهم عناية بسياستهم وقليل من الأوهام الوطنية. إن من الصفات الحسنة في المرء إنكار ذاته واعتبار الآخرين ولكن وطنية الأمم يجب أن تكون إلى حب الذات والأنانية. إن إعجاب الإنكليز بأنفسهم قد كان له شأن عظيم في قيام جامعتهم السياسية ولطالما كان حسن ظن الفرنسيس بأنفسهم العامل النافع في نشر نفوذهم في أوربا. والكبر الشريف الذي عرف به الأسبانيول قد جعل منهم فيما مضى ملوكًا على جزء من العالم.

إن الحس في الألمان - على ما قاله فوليه - كالحس في الإنكليز من نوع البلغمي الحاد النصف دموي وهو بطيء التأثر. فالشعور والإدراك في الألمان قليل مضاؤهما ورقتهما. فكما أن التأثرات تطول إثارتها في

الجملة تجدها إذا هاجت إلى الشدة والدوام فإحساسهم بطيء واضطرابهم شديد وهذا معدل ما يحكم به عليهم. والإدراك الجرماني مزيج من الحقيقة والخيال فتجد فيه ميلًا شديدًا إلى الماديات مثل حبه لرخاء العيش وأميالًا خيالية يكون منها القنوط وجمع الفكر والغناء. إن للطبيعة والمناخ تأثيرًا في إدراك الشعوب يدعوهم إلى السرور أو الانقباض والألماني متقلب من نفسه يستغرق ساعات في السرر القليل الغلظة وله ساعات من السويداء وكثيرًا ما يكون متشائمًا لا متفائلًا وليس في فطرته إجمالًا أن الطبيعة صالحة والمرء طيب فيحذر ويراقب ويتهم غيره ونفسه ويرى الجهة السوداء في الأشياء والطبيعة إلا بليسية في الإنسان.

الألماني متشبع بفكرة الخطيئة الأصلية وبضعفنا الطبيعي عن بلوغ الخلاص والسلامة وهو على شيء من الخشونة فيه استعداد للرحمة ولا يشعر بحاجة إلى الاجتماع كما هو الحال في الإفرنسي بل يكتفي بنفسه مختارًا ولا يجد فيه باعثًا جوهريًا على أن يبوح بذات نفسه ويبث عاصفته وله غرام تكنه جوانحه لا على طريقة سكان الجنوب الصفراويين العصبيين بأمزجتهم وهو محصور في بعض أفكار في الحب أو البغض وفي دائرة خاصة من الطمع الشخصي. وعلى الجملة فإن الألماني يولع بعمل يعلق عليه بعض الشأن أو بعض المهمات التي تختلف مكانتها أو بعض المبادئ الأخلاقية والفلسفية والدينية والوطنية.

الألماني كالإفرنسي متحمس ولكن بغير طريقة هذا. الفرنساوي حاد يهيج ويطفح. أما الرأس الجرماني فيحمي ويشتعل في داخله ببطء ولكن بصورة متصلة فهو كنار فحم أرضي قد ينبعث منه دخان أحيانًا لإكثار أغصان تلتهب التهابًا شديدًا بل كنارتين أما الإنكليزي فإن الإحساس العملي قد نظم إدراكه تنظيمًا بحيث ترى حماسته في شعره لا في سلوكه.

الألماني يكتم حقده فهو حقود منتقم ويظهر ما في نفسه لمن يكرهه فهو يبغض البولوني والروسي واليهودي ويصرح ببغضه لهم أما بغضه لعدوه الموروث أي الفرنساوي فأدهى وأمر.

ذكاء الألماني كإحساسه بطيء في حركته ثابت مستقر وكثيرًا ما يكون متثاقلًا عاريًا عن المرونة والرقة ولا يهتم للأشكال والفروق بل يبدو متينًا مقاومًا ثابتًا حرًّا متعلقًا كل التعلق بأهداب الحق. الألماني يعمل فيما اتجهت همته إليه بنشاط ليس وراءه غاية وبحث طويل فليس هو من أرباب البديهة بل إن فكره يدور ويرجع طويلًا في أصعب المسائل. قال كيتي: إن الألمان يحبون أن يبينوا ما عملوا. وقال شيلر: إن الألمان لا يكذب بعضهم بعضًا أصلًا فمن العبث أن نقدم إليهم أطعمة جيدة فلكي يتناولوها بشهوة يودون أن يسألوا عن أسمائها. ويظهر انكماش الألماني وبحثه المتصل البارد من ذوقه في التوسع في العلم ودرس اللغات. والألماني كما قال روبرتسون تاجر بالجملة والمفرق فيما يختص بالعلم. وقال لايبنز إن الخلق المتأصل في الألماني هو حب العمل وهي صفة ثمينة للعلم والفلسفة. إن حب البحث والاختراع والتركيب والبناء خاصة جوهرية في العقل الجرماني. وكم من ألماني لو أن المولى مسك بيمينه الحقيقة وبشماله البحث عنها لكان قال كما ذكر ليسنغ. يا رب إني آثرت البحث ومفتاح الحقيقة بيدك وحدك.

إن رأسًا منظمًا كل التنظيم مضافًا إلى مزاج رزق كمية صالحة من التأني تنشأ منه حركة معتدلة في مجرى الأفكار تقوم منها الممثلات الخارجة والأفكار المتممة أمام الفكر. فالتفكر في هذه الحالة يصبح طبيعة ثانية. ولقد اشتدت حياة التفكر في الألماني حتى إنه ليقتنع بها أحيانًا. وليس الألماني ممن يكتفي بالبسائط بل يحب النظر في القضية ونقيضها فقد كان بسمرك يقسم العالم إلى قسمين مختصرين أحباب

الإمبراطورية الألمانية وأعداؤها. والألماني أيضًا يحب الترتيب إلى طبقات ويحب منها ما كان ملتبسًا مشتبكًا. ويحب أن يصف أفكاره طبقات وعلى نظام بحسب المناسبات المجردة لا المعقولة ليتيسر له بعد ذلك أن ينظم أعماله على حسب مبادئه وهو في العادة ينظر في مبدأين أو ثلاثة تراه لا يحب اختصار ساحة النظر بل يحب أن يرى أمورًا كثيرة في وقت واحد ونظره واسع مضطرب ويرتاح إلى المتناقضات والمبهمات وأعماله تشعر بعمله وطول مراجعته الكثيرة للكتب في الخزائن.

وأهم ما في الخلق الألماني الإرادة وهي خلق جدير فيه بالاحترام. فإن النشاط والدؤوب هما من الصفات الأولى فيه ومنه نشأ الصبر في احتمال المصاعب الملازمة للنجاح والمواظبة والتنظيم والتعلق بالواجب وكان من ذلك منشأ الشخصية التي عرف بها الجرماني والمصدر الأكيد لنشاطه الدائم. الألماني مزيج من قوتين إحداهما وحشية والثانية بنيت على الفكر والتأمل وفيه الشدة البربرية والتعليم الراقي وفيه حب الشهوات وحب العبادة والتصوف وحب القتال وحب الدين والصلابة المعقولة والشعور العقلي فهو من المولعين بالحقائق وبالخيالات في آن واحد أو كما قال نيتشه الفيلسوف الألماني: «إن للروح الألمانية معابر ومجازات وفيها مغاور ومخابئ وخلوات ولها غرام بكل مجهول. الألماني يعرف الطرق السرية التي تؤدي إلى الفضاء والخلاء فكما أن شبيه الشيء منجذب إليه هكذا الألماني يحب الغيم وكل ما هو قاتم وجديد وفيه إظلام ورطوبة وغشاوة يرى آية في التحقيق ويتعلق بكل ما لم يبت شيء في حقيقته وهو في دور الجنين وعلى أهبة التأليف والنمو. وليس الألماني موجودًا بنفسه بل يوجد ولذلك كان الإيجاد هو العمل الحقيقي في الألماني وكما له في الدائرة الكبرى للأفكار الفلسفية».

الألماني شخصية مفطورة على الطاعة ومن لا يحترف حرفة ولا يعرف بلقب من الألقاب لا يعد فيهم شيئًا وفيه بعض جفاء حتى قال بسمرك يومًا أننا معاشر البروسيين لم نرزق قريحة تحببنا إلى الخلق. وهم يحترمون كل الاحترام المعنى الداخلي في الأمور وقلما يحفلون بالصور الخارجية وكثيرًا ما نرى الألماني جلفًا فلا يصرف وقته في إلباس ما يقتنع فيه شكلًا لطيفًا لأنه لا يعلق مكانة مهمة على هذا الشكل وكثيرًا ما أهمل الحرية السياسية لأنه كان موقنًا أن حرية فكره لم تمسس. قال فوليه الذي لخصنا عنه ما تقدم: لا يعدم الألماني ملجأ على الدوام وأعني به شخصيته.

مثال من مزارع ألمانيا

١١٧

بلغ من انتشار العلم في ألمانيا بين عامة الطبقات أن خصبت الزراعة بادئ بدء بالعناية الكبرى وهاك ما كتبه هوره الكاتب الفرنساوي في وصف مزرعة أحد أشراف الفلاحين في سيليزيا من بلاد بروسيا ومنه تدرك أن أمة بلغ غرامها هذا الحد كيف لا تغني وتسعد قال ما ملخصه: قد يظن ظان أن أشراف الفلاحين في ألمانيا هم دون أشراف المدن بمعارفهم ورقة شمائلهم ولطف مأتاهم والحقيقة أنه لا ينقصهم شيء من ذلك. توفروا على استثمار مزارعهم فكانت زراعة ألمانيا بهم وبفلاحيها تأتي بمورد لا يقل عن أربعين في المئة من اللازم لعيش ألمانيا والباقي تناله من صناعاتها. وثلاثة أرباع سكان ألمانيا يعيشون في المدن والثلث فقط يعيش في الحقول وندر أن يكون الفلاح مالكًا ولاسيما في ألمانيا الشمالية حيث تكثر الأملاك الواسعة بيد شخص. هذا وثلث سكان فرنسا

يعيشون في المدن التي يربو سكانها على أربعة آلاف نسمة والثلثان الآخران يعيشان في الحقول لأن من الفلاحين أصحاب أراض.

وصلت إلى المكان الذي واعدني إليه ذاك البارون لأزور مزرعته فرأيت في المحطة خادمًا ينتظرني وله عربة تساق على خط حديدي فأخذنا نقطع الحقول والمروج حتى وصلنا إلى منزله الذي جمع بين لطافة الحديث وجلال القديم وفي وسطه برج قامت حواليه أربعة أبراج وسقف القصر من القرميد ومن كل جهة سرادق ذو طبقتين لهما نوافذ تشرف على الحديقة وهي من أجزاء المزرعة والأشجار الضخمة تغطي بأغصانها وظلالها أبراج القصر وفي داخله ثلاث قاعات إحداها حوت الظرف الجديد الساذج وهناك غرفة المائدة فرشت بالخشب الأبيض ودهاليز وأدراج مزينة بعظام الأيائل وحمر الوحش.

انتهيت إلى مكتب الشريف الريفي فرأيت بجانبه آلته الكاتبة وأوراقه في أضابيرها وآلاته الهاتفة مربوطة مباشرة مع كل قطعة من ملكه وهناك مقويات فيها السندات والوصولات والمكاتبات والإحصاءات. وفي جانبها خزانة كتبه ومعظمها زراعي يبحث في عمران الأرض وتربية الماشية واختيار السماد وقد طبع لوحات ذات عمد ليقيد فيها الحاصلات وفحواها وصفتها وأساليب زراعة الأرض ووارداتها وغلة كل بيعة من الحبوب والحيوانات. فيكفيه أن يفتح سجلًا ليعرف بالدرهم ما صرفه على البذار والسماد ونفقات الحرث والحصاد والدرس والتعشيب وثمن حاصلاته والربح الصافي من أرضه.

وهناك ميزان يزن فيه القمح والجاودار وفي جانبه آلة لقطع حبات الشعير والحكم على نوعها وآلة أخرى تشبه الأنبيق يتحقق بها إذا كان الأرض تحتوي القدر اللازم من الكلس وفي فناء الدار آلة للمطر وأخرى

للحرارة يراد منهما الوقوف على الجو والمقابلة بين اختلافاته ومعدل نزول الأمطار التي سقطت خلال السنة مع الإشارات المشابهة لها في أنحاء أخرى ليرى فيما إذا كانت هذه الأحداث الجوية متناسبة مع جودة المحصول. وفي جانبها لوحات كتب عليها يومًا فيومًا تبدل الحالات الجوية في ذاك المكان منذ سنين. وإذ كانت المزرعة بعيدة عن المدينة كثيرًا أقام البارون صاحبها في أحد أطرافها معملًا لتوليد الغاز لإضاءة قصره بالأسيتلين.

تتألف مزرعته من ٢٠٠٠ هكتار من الأرض خاصة بزراعة الحبوب كالحنطة والقرطمان والجاودار والشعير والشوندر و٨٠٠ هكتار غابات و٥٠٠ هكتار مروج و٥٠٠ هكتار بحيرات و٥٠٠ هكتار بور أي أن مساحتها تربو على أربعة آلاف هكتار من حيث المجموع.

وبعد تناول الطعام والتنزه قليلًا في أحد مماشي الحديقة الوارفة الظلال ركبنا عربة مع صاحب القصر فقال لي وهو باسم: ترى الآن أننا لا يلحقنا عار البطالة فإن عملي منوع يشبه عمل وزير الدولة وإدارة هذا الملك وحدها تحتاج إلى عمل متواصل فإن تقارير المزارع المختلفة ترد عليّ كل أسبوع فمنها ما فيه أن كمية كذا من البطاطا قد أرسلت إلى معمل النشا ومنها أن كمية كذا من الشوندر تحتوي كذا من السكر ترسل غدًا إلى المعمل ومنها أن آلة حديثة للزراعة جرت تجربتها في أرضنا فبعثوا يبلغونني نتيجة تجاربها ويجب على النظر في حسابات الاستثمار والبحث في كل شيء فأكون تاجرًا وزارعًا وصانعًا معًا لأنني أستخدم بنفسي بعض الغلات كالبطاطا مثلًا ومع هذا لا أستطيع أن أتولى كل عمل فلنا مفتشون كفاة لكل فرع من فروع الزراعة تعين الحكومة أو الولاية بعضهم وآخرون تدفع لهم نقابات أصحاب الأملاك رواتبهم وندفع نحن مشاهرات بعضهم. وهكذا تجد غنمي يفتشه موظف عهد إليه

تفتيش إلقطعان في المملكة كلها وهو الذي يقدم لأصحاب الأملاك التيوس اللازمة للتناسل وتكون مختلفة بحسب جنس الغنم. ولي مفتش لغاباتي عينته غرفة الزراعة في الولاية وآخر للألبان التي تجمع من عامة اصطبلاتي وحظائري. وهذا التفتيش نافع للغاية وذلك أن لبن البقرة إذا لم يكن فيه سمن كاف يزاد في علفها وتراح. ومفتش السقي يبحث عن أقنية السقيا وعن المجاري الكبرى وعمّا إذا كان الزرع جيدًا أو خرجت فيه الأعشاب الرديئة القاتلة له. وهناك مفتش يبحث عن الأبقار وتناسلها وآخر عن الخيول المطهمة.

وصلنا إلى حقول فيها أحجار من المحبب «كرانيت» فقال لي صاحبنا إنه لا يكفي خمش الأرض في الحرث بل إن السكة البخارية تخرج إلى سطح الأرض كل ما يتخللها من الأحجار التي نجمعها لنبلط بها الأماكن اللازمة أما السماد فإنه يغير كل سنة ماعدا البوتاس الذي يبقى سنتين وثلاثًا وإني أنفق في السنة من ٥٠ إلى ٦٠ ألف فرنك ثمن السماد الكيماوي والنشادر الذي نستعمله غال أيضًا.

وهناك انبسطت أمامنا حقول البقول المنوعة وأراني صاحبي عن بعد مزرعة صغيرة فقال: هذا نموذج المزارع العادية. مزرعة مساحتها السطحية ١٥٠ هكتارًا من جيد التربة زرعت كلها ولها غابة صغيرة على الرابية وفي المنحدر بيوت بعض الفلاحين وحقول الغلات والبطاطا والشوندر. ويعيش في جوار هذا المالك كما يعيش في جوار معظم كبار المالكين أناس أحرار من صغار الفلاحين يملكون قطعًا صغيرة من الأرض يعيشون كما يعيش الفطر في ظل بلوطة ولا من ينغص عليهم عيشهم ومن يملك من عشرة على عشرين هكتارًا من الأرض يشتغل لحسابه الخاص وتعينه أسرته ومن يملك هكتارًا أو اثنين يؤجر نفسه

مياومة للسيد المالك العظيم ومن المزارع ما أثقلته الديون بحيث لا يوازي دخلها فائدة ديونها.

أما الأشراف فلهم غرام بالأرض ومنهم من يستطيعون أن يستثمروا أموالهم في الصناعة وغيرها بفائدة ٦ أو ٧ في المئة فيؤثرون أن يستثمروها بأنفسهم في أملاكهم ولا تأتيهم بأكثر من اثنين ونصف في المئة فترى الواحد منهم إذا ورث أباه وأخاه يبادر لحضور دروس الزراعة كأحد الطلبة سنتين ثم ينقطع بجمله إلى الزراعة وإلى تربية البهائم ومتى مات الأب يرث البكر من أولاده ملكه. وفي الغالب أن الملك هنا لا يقسم لأنه مؤلف من حظائر وإهراء ومحطات يستحيل فصل بعضها عن الآخر وعلى البكر أن يقدم لإخوته وأخواته ما يوازي حصتهم نقدًا وإذا لم يكن عنده نقد يرهن ملكه وإذا لم يجد رهنًا يضطر إلى بيعه ومعظم أرباب الأملاك الواسعة يورثون البكر من أولادهم فيسقى الملك كله له بمعنى أن الوالد إذا لم يكن اقتصد مالًا في حياته يبقى أولاده بدون فلس بعده وربما بقي أكثر الأولاد فقراء لأنهم إذا أخذوا نقدًا فيكون جزئيًا لا يكفيهم ليعيشوا ومن هنا ترى معاهد كثيرة في ألمانيا أخذت على نفسها إعاشة البنات الشريفات ممن تقدمن في السن ولم ينلهن من آبائهن ما يستطعن به أن يعشن فلم يلبثن بعد العز والرفاهية أن يعشن عيش القلة والفاقة. وألمانيا الآن في صدد تغيير هذا النظام الجائر.

رأينا في طريقنا راعي الغنم وراعية البط والأوز وقال صاحب المزرعة إن جميع اللبن المستخرج من بقراته يبعث به إلى المعمل القريب لاستخراج الزبدة والجبن وجميع ما عنده من البهائم يطعمه بمطعوم الأمراض التي يخشى أن تصيبها ولاسيما الثيران والخنازير. وأراني الأنبار. ومما قاله إن سعر الحبوب تعينه لجنة أحدثها الفلاحون وصادقت الحكومة عليها واللجنة تسهر على أن تكون الأسعار التي تذكر في

الصحف هي الأرقام الحقيقية وتختار الحكومة لمراقبة السوق أناسًا من أرباب الأملاك وآخرين من التجار.

حاذينا حقولًا واسعة مزروعة بطاطا فقال صاحب المزرعة إنني أنفق في الخريف نحو ثلاثة آلاف فرنك علاوة على المقرر في الأجور لقلع البطاطا من مزارعي وأجرة العامل فرنك في النهار وغلتي من هذا الصنف خمسة ملايين كيلو وبعد أن آخذ منه بذاري وما يلزم للمزارعين عندي أعمل منه نشا لأن عصارة النشا سماد للأرض ولا أعمل منه الكحولا لأن عصارته غير نافعة وقد كثرت عليه الرسوم. وغلتي ٧٠٠ ألف كيلو من الجاودار و٣٠٠ ألف كيلو من الحنطة والشوفان والشعير. أما الشوندر فأنا مرتبط مع نقابة زراع الشوندر وأنا من أعضائها ولها معمل سكر من أكبر المعامل في ألمانيا فنبعث لها به بعد أن يحلل المعمل نموذجات منه يرسل لنا بكشف يبين لنا درجات السكر المستخرج من كل صنف من أصنافه وفيما إذا كنا قصرنا في تسميده وتربيته لنكون من قابل على بصيرة.

وبالقرب من معمل النشا قامت بيوت جديدة للعملة بنيت من الآجر وكل بيت فيه مخدعان أرضيان وعقد (قبو) للبن والبقول وغرفة في الطبقة الأولى وأنبار عام لعدة من الأسر يضع فيه كل واحد في ناحية معينة غسيله وفي مقابل هذا الحي اصطبل للخنازير والماعز.

وعدد من يعملون في هذه المزرعة من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ شخص يدخلون في ١٢٥ أسرة وفي أيام الحصاد يستجلب كثير من العملة زيادة على الموجود ويدفع لكل مزارع مئة مارك (١٢٥ فرنكا) في السنة نقدًا يتناولها على أربعة أقساط ويجب أن يكون الرجل متزوجًا والمرأة تعين زوجها في الصيف أيام الحصاد وفي الخريف في استخراج البطاطا وفي

الشتاء في درس القمح وإذا لم يكن للعامل زوجة يجب أن يكون له ولد في سن صالحة ليعمل ومتى عملت المرأة يدفع لها في اليوم ٧٥ سنتيما في الشتاء وفرنك وربع في الصيف لأن النهار يكون أطول. والعامل يأخذ في السنة ١٢٥٠ كيلو من الحبوب المختلفة كالشعير والحنطة والجاودار و٣٠٠٠ كيلو من البطاطا وحطبًا وفحمًا يساوي ٦٠ ماركا ولكل واحد ١٢٥٠ مترًا مربعًا من الأرض يزرع فيها بقولًا من مثل الملفوف والشوندر وعلق بهائمه وتكون في العادة عنزة وبقرة وأحيانًا يقوم صاحب الأرض بتغذية عنزتين وبقرة لكل مزارع عنده أو يعطيه لبنًا يوازي ما تخرجه له بقرتان وعنزة ويعلف كل عامل في زريبته خنزيرين يبيع في العادة الواحد ويملح الثاني يستعمله في طعامه. وله الحق أن يربي دجاجًا يجعله في محله وإذا مرض المزارع أو العامل تدفع عنه أجرة الطبيب وثمن الدواء وإذا مات أو أحد أسرته يصنع له نجار المزرعة تابوته وخشبه من صاحب المزرعة ولا تدفع أسرته إلا أجرة القس. والمزارعون ممتنون من عيشهم لأن ما يأخذونه من الغلات يكفيهم ولهم غرام بأكل البطاطا والدهن وقلمّا يتنالون اللحم لأن العملة البولونيين وأكثر المزارعين منهم لا يتناولون اللحم وإذا استأجرناهم خصوصًا بعد عودتهم من الخدمة العسكري يتطلبون اللحم إذ يكونون قد اعتادوا تناوله في الجيش. وإذا شاخ المزارع يستبقيه سيده ويطعمه ويؤويه فيدفع السيد عن كل عامل يستخدمه ١٠ دوانق (بننغ) في الأسبوع وهو يدفع مثلها لصندوق المتقاعدين أي ٥ ماركات في السنة وفي آخر السنة يحول هذا المبلغ لاسمه في صندوق التوفير.

وعلى صاحب المزرعة أن يدفع ضريبة على ريع أملاكه وضريبة لمقاطعته وضريبة لمديريته ورسمًا للمدارس وآخر للكنائس يدفع ثلثها السكان وثلثيها صاحب المزرعة وهو عرضة على الدوام للتفتيش

والانتقاد يوجهه إليه مفتشو العمل وحذرًا من وقوع حوادث في المعمل والمزارع والحقول يجب علينا أن نضع السلالم على الجدران وأن تجعل درجاتها معققة وعربات العلف تكون مقطورة على صورة كذا ولا نجد في ذلك غضاضة علينا لأننا نرى في هذه العناية مبدأ حسنًا. والقانون قانون تجب الطاعة له.

ووصف الكاتب مزرعة بجانب مزرعة مضيفه ابتاعها منذ اثنتي عشرة سنة وضمها إلى مزرعته الأولى وجعلها لصيد الدراج وغيره. وهو يأخذ دخلًا وافرًا من أسماك بحيراته قال: ولقد أخذت أعلم بعد أن رأيت ما رأيت في مزرعة هذا الشريف أن الزراعة الألمانية ليست من عمل الفلاح أو الشريف العطل بل من أعمال مثل هذا الرجل المولع بالترقي والمتوفر على تربية الماشية والنظر في الهندسة الزراعية والأحداث الجوية وطبقات الأرض والعامل والمربي للصيد والأسماك والصياد والتاجر الخبير وعلمت حب البروسي لأرضه وما يبذله من الجهاد العجيب الذي جعل من رمال بومرانيا وبطائح براندبورج غابات مدهشة وحقولًا خصيبة وقدت قدر الذكاء في اختيار الأساليب النافعة والشعور بالرقي والذوق في الإبداع وفكر التضامن والجهاد الممزوج بالصبر الطويل الذي أكره الطبيعة الشحيحة في تلك الأرض على أن تعطي بعض المواد التي يكنها صدرها وكل شيء يحسن الانتفاع به فالأرض غير الصالحة للزراعة تجعل فيها غابات والبحيرات تطم وتردم أو توسع وتحفر بحسب اللزوم وكل سنة يجدد صاحب المزرعة مئات الألوف من الأشجار المثمرة وغيرها ومنها ما ينتفع منه ابنه وكل يوم يعمل عملًا جديدًا ويبتدع أو يفكر في طريقة يتفنن بها للانتفاع أكثر من أرضه.

قال العالم الفرنساوي وقد دامت زيارتي أرض الشريف الألماني ست ساعات في المركبة ولم نر كثيرًا من أنحائها وأثنى على حسن وفادة

الألمان لضيوفهم وقال إن إقراء الضيف عندهم لا مثيل له في أوربا اللهم إلا روسيا. ولا عجب في عمل الألماني فقد خلق وفطرته تقول له لا تقف يريد المزيد دائمًا. وهل يمل من البطالة بعد قضاء بضعة أسابيع في الراحة. أما الإفرنسي فيريد أن يستمتع بالحياة بأسرع ما يمكن ويبذل لذلك جهد والإنكليزي ينتظر إرثه بأن يعمل قليلًا مكثرًا من الألعاب الجسمية والرياضات البدنية والأمريكي يود لو ينال أكثر من جاره أما الأسبانيولي فهو أشبه بالشرقي يحلم بكأس من الشكولاتا يكرعها وبلفافة من التبغ يدخنها في كل أيام حياته.

هذا ما تلقفناه من كتاب برلين وقد طبع قبيل الحرب العامة وما ندري إذا كانت الحرب قد زادت في هم المزارعين من تلك الأمة بعد أن اشتدت ضائقتها على مواد الغذاء يوم حصرت من جهاتها الثلاث وتعذر إرسال الغلات إليها إلا من سهول المجر المشهورة بحبوبها وكانت قلة التغذية عندها من جملة الدواعي في إلقاء السلاح وطلب الصلح من الحلفاء.

الصحة في ألمانيا
١١٨

الاهتمام بالنظافة ظاهر الأثر في كل مكان من بلاد ألمانيا والحشمة وجمال الهندام العام هما جماع الشعور اللطيف الذي يحس به الغريب في مدنها. وإذ كان هذا النظام عامًا في جميع الأعمال والإدارات والدور الخاصة نشأ منه شعور بالرفاهية وحسن اللقاء وجمال الذوق. تتنزه في الشوارع اللطيفة التي تزين وتطهر كل يوم بين أناس يكتسون أجمل الثياب ولا ترى عليهم إلا إمارات السعة حتى في إحياء العملة وأنت على ثقة إذا

ركبت الترام والقطار من أن أحدًا لا يبصق وتركب في الدرجة الثانية والثالثة وأنت على يقين من البعد عن القذارة في المركبات أو الاختلاط المضر بالركاب وقد اتخذت جميع أسباب الحيطة حتى لا يقع ما يكدر وقد عينت حقوق كل فرد وواجباته تعيينًا صريحًا فإذا حدث أشكال يقتص لذلك النظام العادل.

هذه الحالة في النظافة العامة على كثرة حسناتها للفكر والأعصاب قد نشأت من انتباه الحكام ومن خضوع المحكوم عليهم للأوامر فلك بعد هذا أن تعلق صحيفة على حدود ألمانيا تكتب عليها: «هنا تطبق مفاصل القانون». ومن أجل هذا أتى تفوق الألمان على غيرهم في هذا المعنى تفوقًا لا ينازعهم فيه منازع في أمور الصحة العامة وتطبيق القوانين لأن للبلاد المتمدنة قوانين واحدة تقريبًا والاختلاف في التطبيق فقط وهذا سببه خضوع الأفراد وبفضل معاونة الأمة للحكومة في ألمانيا معاونة فائقة سريعة تقدم علم الصحة تقدمًا لم يعهد في بلد كما هو فيها. كان مونتسكيو يقول إذا دخلت بلدًا لا أسأل عما فيه من الشرائع بل أسأل عمَّا طبق منها.

وبعد فيقال على الجملة أن ليس في المدن الكبرى في ألمانيا غبار أصلًا والرش متواصل في كل ساعة لا يقف إلا ليترك المجال للكنس وكما أن ليس نمت غبار فليس هناك وحل. ومتى أمطرت السماء تنصر مياهها إلى المجاري ويمسحها المساحون بآلات من المطاط وفي برلين وجميع المدن تجد أناسًا في الشوارع واقفين لالتقاط السرقين والقمامات. والسيارات الرشاشة ترش أربعين كيلو مترًا في الساعة من الطرق الواسعة وبدورة خفيفة ترش ساحة كبرى مهما عظمت دع التراموايات الرشاشة التي ترش الشوارع الرئيسة والطرق المعبدة لتسهل تنظيفها وكسحها إن كان ثمت قمامات أو ورق. ومن غفل من المارة وهو نادر جدًّا وألقى

ورقة ولو صغيرة على الأرض يجد من يرده إلى الصواب وينبهه إلى التقاط ورقته ولو كانت ورقة الترام ووضعها في الصندوق الخاص بها. وفي الخريف يكنس الكناسون بمكانس ميكانيكية ما يتساقط من أوراق الأشجار في الشوارع والحدائق والمتنزهات والأماكن العامة ويعهد بتنظيف الأرصفة في العادة إلى أصحاب الأملاك فلا يخالف القانون منهم أحد وصاحب الملك مسؤول عنك إذا مررت برصيفه وتزحلقت بقشرة برتقالة أو وقعت فاندقت عنقك وتفاديًا من الوقوع في مثل هذا الخطأ يعهد صاحب الملك بتنظيف الرصيف أمامه إلى شركة تتقاضاه في الشهر ثلاثة ماركات ويضمن نفسه من كل ما يصيب إنسانًا أمام محله من المصار.

لتسهيل النظافة العامة تتفنن البلديات في استجادة طرق جمع القمامات ووضع لوائح منوعة دقيقة وابتداع أدوات عملية لكسح القمامات على أيسر وجه. ومن أدهش الطرق التي عمدت إلى اتخاذها بلدية شارلو تنبرغ من إحياء برلين أنها اضطرت كل مالك أن يكون لديه على الدوام ثلاثة صناديق عالية يضع المستأجرون في الأول الرماد والغبار وفي الثاني الورق والعلب والمقوَّى وفي الثالث جميع فضلات المطبخ من بقايا اللحم والعظام والبقول والخبز وذلك لأن هذه البلدية رأت ذات يوم أن من الجنون أن تترك لإدارة القمامات مثل هذه الفضلات التي يتيسر الانتفاع بها فابتاعت خنازير وهي تغذى الآن ألوفًا منها بما يفيض من السكان من هذه الفضلات والبلدية تتولى رفع هذه القمامات على حساب المستأجرين بأجرة زهيدة بواسطة عربات تطرح من صناديقها ولا يحدث منها غبار ولا غيره أما القمامات فإنهم يجرون عليها تجارب ليفصلوا البوتاس عن حامض الفوسفور والنشادر لتباع من المزارعين سمادًا كيماويًّا.

وإن مدينة برلين لتنفق مالًا طائلًا على كنس المدنية ويتولي الأمر عشرون ألف كناس وجنائني ويقبض الواحد ثلاثة ماركات ونصف مارك في اليوم (وهذا قبل الحرب) وتزيد مياومته ربع مارك كل ثلاث سنين وإن مدينة متوسطة الشأن مثل ميانس التي يبلغ سكانها مئة الف نسمة لتصرف كل سنة ٧٠٠ ألف فرنك على تنظيف الشوارع. وهكذا تجد كل إدارة عامة من مثل السكك الحديدية والفنادق تنفق مبالغ على تنظيف زجاجها ومقاعدها وأثاثها ورياشها والبلديات تهتم بصحة السكان حتى إنها كثيرًا ما تقضي بالهدم على بناء قديم مراعاة للصحة وتُنسى مكانته التاريخية أو تتناساها. وكل دار يراد بناؤها في بروسيا يقدم مصورها إلى الشرطة أولًا والناس يشكون والمهندسون يتذمرون من شدة هذه المطالب.

ولذلك ترى صاحب الملك إذا أراد بناء شيء أن يرسل مصوره قبل سنة من الشروع في بنائه وإذا صادف أن المصور المقدم ليس فيها لغرفة الخادم القدر اللازم من الهواء لا يرخص ببناء البيت فيجب أن يكون لكل طبقة علو متوسط وأن يكون لصحن الدار مساحة تحسب على قدر علو الأبنية تضمن دخول الهواء ونفوذ النور وبعض الأراضي تبقى بلا بيع لأنها ليست من الفساحة ليبنى بها بحسب قانون الشرطة والشرطة تتصعب اليوم بالسكنى في الطابق السفلى تحت سطح الأرض وكان ذلك مألوفًا من قبل وإذا سمح به فلا يكون إلا إذا ثبت أن هناك كمية من الهواء وللسقف بعض العلو وبعض النوافذ. وتقضى أوامر البلديات أن تكون ميضآت المعامل طاهرة كافية وإذا لم تكن كذلك تجبر الحكومة صاحب المعمل أن تكون كلها مستوفاة من كل وجه.

لاحظ الناظرون أن المرء كلما تقدم نحو الشمال يجد الاهتمام بالنظافة بالغًا حده وأن شعوب الجنوب قذرة وأن للفلامنديين ولوعًا بالغسل والمسح يكاد يكون كالمرض المستحكم، ومع هذا فقد قضت

الحال في ألمانيا أن تستعمل الشدة في القانون لتطبيق قواعد الصحة وإذا كان استعمال الحمامات آخذًا بالانتشار سنة عن سنة فذلك بفضل ما تبذله جمعية أخذت على نفسها الدعوة إلى النظافة وهذه الجمعية برئاسة طبيب مشهور في برلين وله تأثير في جميع ألمانيا فتدعو جمعيته إلى عقد المؤتمرات وتنشر المنشورات وتبث دعاتها تحمل من مدينة إلى أخرى دعوتها وتعطي المديريات ما يلزمها لإنارة العقول مجانًا وتمد إليها يد المعاونة بلا مقابل ويشترك في هذه الجمعية وزراء وأمراء وعلماء. ويهتم بها كبار الحكام اهتمامًا زائدًا وهي عبارة عن ١٤٠٠ عضو يدفعون تقاسيط، وقد نجحت هذه الجمعية بأن قضت على جميع المدن الألمانية تقريبًا أن تجعل لها حمامات بلدية وكثير من القرى لا تحرم من هذه الحمامات وقد أخذت الجمعية تصرف اهتمامها إلى القرى.

ولا تنشأ مدرسة بدون قاعات للاستحمام وقد لاحظ الأطباء أنه منذ أخذ الطلبة بالاستحمام أصبح آباؤهم أكثر نظافة من قبل وأنشأوا يختلفون إلى الحمامات عن رضى وشعار هذه الجمعية: «حمام في الأسبوع لكل ألماني» وبفضل هذا العمل الذي أسس منذ بضع سنين أنشأ كل جندي وكل نوتي يستحم مرة في الأسبوع. وإنك لترى شركات السكك الحديدية وإدارات المعامل وجميع أرباب المشاريع الضخمة تبادر إلى تسهيل أمر الاستحمام على العملة كل أسبوع وتعطي أنواطًا من الفضة إلى كل مجموع أو فرد يستحقون المكافأة مقابل تنظفهم وقد جروا على مثل هذه الطريقة في الولايات المتحدة وفي أسوج فأخذت الحركة نحو النظافة في ازدياد.

وكثير من مدن ألمانيا تحتوي اليوم على محال لاستحمام الغوغاء أحدثتها البلديات وجعلت فيها أحواضًا من الماء الجاري ومنها ما يتغير



مرتين في اليوم ومقاصير للاغتسال بالماء الحار أو البارد ومستحمات وغير ذلك.

وأماكن الاستحمام في برلين وهمبورغ وهانوفر ومونيخ قصور حقيقية. ومن المدن الصغرى مثل غوتنغن وسكانها ٣٥ ألفًا ما له حمامات أكثر استعدادًا وحسنًا من حمامات العواصم ويكلف الانغماس في ماء الأحواض عشرة بنن (أي جزءًا من عشرة أجزاء من المارك) وهي أبدًا في حالة معجبة من النظافة ويبدو ماؤها الأخضر الأزرق صافيًا كمياه البحيرات ويقضي على من يسبحون فيه أن يعركوا أبدانهم كلها بالصابون وأن يرسلوا الماء عليها قبل نزولهم إليها والمقاصير نظيفة صحية مزينة بالستور الوردية وهناك معلمون يلقنون من يريد دروسًا في السباحة ويختلف عمق الحوض في العادة من ٧٥ سنتيمترًا إلى ٣ أمتار و٢٥ سنتيمترًا ممَّا يتيسر معه الانغماس في الماء كما يريد السابح وطول الحوض من ٤٠ إلى ٦٠ مترًا.

وتكون الحمامات الحارة في مقاصير من القيشاني لها مستحمات جميلة مستحدثة والحمام يكلف ٦٠ ينن في الدرجة الأولى و٢٥ في الثانية ويتولى شؤون الحمام أناس لهم مهارة في أيديهم ورشاقة في حركتهم، ولا يجد الداخل في الدهاليز والأدراج المصنوعة من الحجر والمرمر ذرة من الغبار، وإن حمامًا واحدًا في برلين ليستحم فيه في اليوم ثلاثة آلاف إنسان دع المضخات (الدوش) ويبلغ فيها عدد المستحمين ليلة بعض الأعياد الكبرى سبعة آلاف وبعض الحمامات يستحم فيها كل السنة مليون شخص ويتناول أولاد المدارس في برلين والمدن الصغرى بطاقات مجانية أو ذات أسعار طفيفة تخولهم دخول الحمامات.

وقد أوصى المسيو موللر في مونيخ بمليوني فرنك لإنشاء مكان للاستحمام العام فأضافت البلدية إلى ذلك ٥٠٠٠٠٠ فرنك فتم العمل وقام البناء على شاطئ الأيزير في آخر ممشى فيه أشجار ضخمة فإذا دخلت إلى هذا الحمام صرت إلى مكان فرش بالرخام وبنى بالقيشاني اللامع وفيه وفي أحواضه من التأنق واللطف شيء كثير كما أن فيه من الطهارة والنظافة ما تقر به عيون المستحمين. وأقامت بلدية مونيخ حمامًا مجانيًا في الصيف استقت ماءه من الأيزر وهو يتغير مرتين في اليوم ومنها حمامات شمسية مجانية.

نظافة الطعام كنظافة الأجسام معتني بها كل العناية في بلاد ألمانيا فلها إدارة اسمها إدارة صحة المأكل تراقب اللحوم وتفحصها بالمجهر فإذا وجدتها مريضة أو مضرة تغرم بائعها وذابحها وكذلك السكر فإنك إذا أخذت قطعة منه واشتبهت في كونها من الجنس العاطل تأخذها إلى معمل مكتب الصحة وفي الحال يحللها ويحكم على بائعها بالعقوبات الشديدة. ولا يشرب أحد في برلين إلا من الآبار الأرتوازية التي قد ينفق على الواحد منها ثمانية ملايين فرنك. ولا تسل عن مراقبة الصحة للألبان فكل يوم ينبث كثير من المفتشين يستوقفون مركبات الحليب في الشوارع ويوزن فإذا رأوه مطابقًا لما قضت به الصحة فيها وإلا فيكفتونه في الشارع ويعاقبون حامله بأشد العقوبة ولذلك ترى الغش قليلًا جدًّا في هذه الأصناف. وفي برلين معامل كثيرة للألبان منها معمل كبير يصله كل يوم من الضواحي على بعد مئة كيلو متر ١٤٠ ألف لتر من اللبن فيعقمه في معمل كبير فيه ألفا عامل وكل هذا اللبن يوزع على المنازل في ٢٥٠ مركبة.

لم تكتف الحكومة والمجالس في ألمانيا بتحسين أسباب الصحة العامة والسهر على نظافة المساكن وجودة المواد الغذائية بل تراها تحمي

الصحة العامة بواسطة إدارات المراقبة الطبية التي تعمل على الدوام بكل ما فيها من قوة بفضل ذمة الموظفين الذين عهد إليهم التوفر على العمل فإذا حدثت مثلًا إصابة بالجدري أو الخناق أو التيفوئيد أو الطاعون أو الكوليرا لا تلبث أن يبلغ أمرها مكتب الصحة ففي الحال يعطي الأمر بالتطهير ويخف الطبيب الرسمي إلى الدار الملوثة يتولى جميع أساليب التطهير في أسرع من لمح البصر. وفي المدارس إدارة البحث الطبي تعمل على الدوام فتفحص جميع الأولاد في كل وقت وإذا لاحظت أقل مرض أو انحراف طرأ على ولد تعزله عن رفاقه وتطبه في الحال والذين تأصل فيهم المرض تبعث بهم إلى البحر في الغابات أو إلى المصاح. وقد أنشأت جمعية الصليب الأحمر ستين مصحًا من مثل هذه وتساعد عدة جمعيات في الإنفاق عليها ويمدها كثير من المدن بالمال.

والعناية بالغة في الحذر من مرض السل فتراقب المدارس جدّ المراقبة بواسطة أطباء مفتشين لهم اختصاص بهذا المرض مشهود لهم به وهم في خدمة هذا الديوان لا يسوغ لهم أن يظنوا أحدًا غير أبناء المدارس يبحثون في صحة التلامذة بصورة منتظمة ويعطي كل تلميذ ورقة كل مدة تنبئ بأنه سالم من هذا المرض حتى يبلغ سن الرشد ويدخل في الخدمة العسكرية وهكذا يقضي التلميذ مدة دراسته وهو يتقلب بين أيدي الأطباء يبحثون في صدره وقامته ووزنه وغدده وأسرته وما كان فيها من الأمراض إلى غير ذلك مما يقضي التنبه له بالقضاء على المرض من أساسه.

ويعزل المصابون بالسل وفقر الدم والخنازير وعلة القلب والصرع والهستريا كل واحد واحد عن الآخر ويعلم في مدرسة الهواء الطلق وسط غابة في صاحبة برلين وهذه المدرسة تفتح أبوابها في نيسان وتغلقها في كانون الثاني وهي على غاية من السذاجة في بنائها ومرافقها ويكثر في

إرجائها النور والهواء ولهم نوافذ متحركة ذات مقاعد من خشب جعلت بقدر قدّ الولد. والمدرسة عبارة عن أكواخ منظمة يريدون منها أن يعيش الطفل ف سذاجة ويرجع إلى الفطرة الأولى في حالته ويعتنون في المدرسة بتنظيف الجسم من رواء الغاية وفي هذه المدرسة يدخل الذكور والإناث على حد سواء.

في ألمانيا ٢٥ مجمعًا علميًا لصنع مطعوم الجدري ولذلك لا يموت أحد فيها بهذا المرض ولها مجامع عملية تنظر في ارتقاء الدروس العلمية وانتشار علم الصحة دع مجامع كوخ ومجامع الصحة في المملكة التي تبحث بمن فيها من العلماء في الأبحاث البكتريولوجية المنوعة مثل فحص الشاي والقهوة ومنافعهما ومضارهما ومثل البحث في المرض الزهري الذي كانت الحكومة السبب في اكتشاف دوائه ومنها جمعيات تبحث في مياه الأنهار التي تلوثها المعامل.

والمستشفيات في برلين من أنظف ما رأى الراؤون وأكثرها استعدادًا خذ لذلك مستشفى فيركوف العالم الكبير فإنه بدئ بإنشائه سنة ١٨٩٩ ونجز في سبع سنين وكلف ٢٥ مليون فرنك على أرض مساحتها السطحية ٢٧ هكتارًا وهو على طريقة جعلت سرادق ففيه ٦٢ بناية ويسع ألفي مريض وحجمه كحجم مستشفى همبورغ وهما أعظم مستشفيات ألمانيا وفيه ٩٥ طبيبًا و٣٧٥ ممرضة وممرضًا وعدد الخدمة ٣١٢ وفيه جميع أنواع الراحة وفيه تتولد القوى الكهربائية والدفء وغير ذلك.

تاريخ المشرقيات في ألمانيا[1]

١١٩

كان نهوض الدروس العربية في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر وإن كانت اللغة العربية قد درست في المدارس الألمانية في القرون السابقة ولكن تدريسها لم يكن على أسلوبنا هذا بل كانت الغاية منه تفسير الكتب العبرانية. وكان بعض المدرسين من الألمان في القرن الثامن عشر قد ابتدأ ابتداءً حسنًا في العلوم العربية ومن مشهوريهم يوحنا يعقوب ريسكه المتوفى سنة ١٧٩٧ في ليبسيك الذي نشر تاريخ أبي الفداء ونقله إلى اللاتينية وغير ذلك من الكتب العربية ومنهم أولاف غوستاف تيكسن المدرس في الجامعة الروستوقية ومؤلف كتاب جليل في النقود العربية. ولم يشتهر الألمان في هذا العهد كبير اشتهار في أمور الشرق غير أن النمساويين كانوا في تجارات وصلات سياسية مع الدولة السنية العثمانية وعلى هذا نهضت في فينا الدروس التركية التي جددها العلامة فون هامر المتوفى سنة ١٨٥٦ وكان هو أيضًا محبًا للآداب العربية ونشر كتابًا جسيمًا في تاريخها لكنه لم يبلغ الغاية فيه لنقص تعمقه في أسرار العربية.

كان في ابتداء القرن التاسع عشر العلامة المشهور سلفستري ذي ساسي يدرس العلوم العربية في المدرسة الشرقية في باريز وهو مجدد الدروس العربية في أوربا خصوصًا علمي الصرف والنحو فقصد باريز بعض الطلبة الألمان ليأخذوا عنه العربية منهم مالينوخ لبرخت فليسز (١٨٠١ - ١٨٨٨) ومانيوخ إيفلد (١٨٠٣ - ١٨٧٥) فكانا هما مؤسسي

---

(١) كتب لنا هذا الفصل بالعربية صديقنا العلامة الأستاذ بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية المشهور فله منا الشكر الجزيل.

الدروس العربية الجدية في ألمانيا فقد أصبح الأول مدرسًا للغات الشرقية في مدينة ليبسيك والثاني شغل مثل هذه المهمة في غوطنغن. فحرر إيفلد الكتب الجليلة في الصرف والنحو والعروض العربي ونشر فليشر الكتب العربية مصححة غاية التصحيح منها تفسير القرآن للبيضاوي. ونقد أيضًا العلوم العربية خصوصًا كتاب النحو لشيخه دي ساسي نقدًا مفيدًا وألف فيه كثيرًا من الرسائل الجليلة ثم أسس الجمعية الشرقية الألمانية التي نشرت مجلتها المشهورة وكثيرا من الكتب العربية المشهورة لاسيما كتاب الكامل للمبرد لمصححه ريت الإنكليزي ومعجم البلدان لياقوت تصحيح وستنفيلد وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح يان وكتاب الآثار الباقية للبيروني تصحيح سخاو.

قصد طلبة الألسنة الشرقية مدينتي غوطنغن وليبسيك فكان من مشاهير تلامذة إيفلد تيودروس فولدكه المولود سنة ١٨٣٦ الذي كان مدرسًا في مدينة ستراسبورغ منذ سنة ١٨٧١ إلى أن فتحها الفرنساوية سنة ١٩١٨ فألف فولدكه تاريخ القرآن الذي جدده في الطبع الثاني فريدريك شوالي وصحح دواوين بعض شعراء الجاهلية وترجم من تاريخ الطبري الجزء المتعلق بالدولة الساسانية وحرر غير ذلك من الكتب الجليلة في اللغات السامية خصوصًا السريانية. ومن تلامذة فولدكه إدوارد سخاو مؤسس المدرسة الشرفية في مدينة برلين وبروكلمان مؤرخ الآداب العربية وناشر كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة خليفة سخاو في المدرسة البرلينية وغيرهما من المستشرقين المشهورين في ألمانيا وغيرها.

ومن أشهر تلامذة إيفلد يوليوس ولهوسن (١٨٤٤ - ١٩١٨) خليفته الثاني في مدرسة غوطنغن وله من الكتب المشهورة تاريخ اليهود وتاريخ الدولة الأموية وكتاب جليل في دين العرب في الجاهلية وطبع الجزء الثاني من ديوان هذيل الذي كان نشر الجزء الأول منه كوسغرتن المتوفى

سنة (١٨٨٠) فكانت همة تلامذة إيفلد وهمة تلامذة تلاميذه في نقد تاريخ العرب ودينها وآدابها لكن فليشر وتلامذته كانوا متخصصين أكثر منهم في النحو العربي ونقد اللغة ومن مشاهير تلامذة فليشر العلامة توربكة (١٨٣٧ - ١٨٩٠) الذي نشر كتاب درة الغواص للحريري والقسم الأول من المفضليات. ومنهم أوغست مولر (١٨٢٨ - ١٨٩٥) مؤرخ الدول الإسلامية وغيرهم كثير من المستشرقين المشهورين.

ومن تلامذة دي ساسي في ألمانيا ماعدا إيفلد وفليستر كثير منهم غوستاف فلوغل (١٨٠٣ - ١٨٧٠) الذي نشر كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة وكتاب الفهرست لابن النديم وألف رسائل كثيرة في تاريخ الآداب العربية وويلهلم آلورد (١٨٣٨ - ١٩٠٢) الذي صحح دواوين الشعراء الستة والأصمعيات ودواوين الرجاز العجاج ورؤبة والزفيان وصنف فهرست المخطوطات العربية في دار الكتب البرلينية في عشرة أجزاء جسيمة فانتشرت العلوم العربية في جميع المدارس الألمانية ونهضت نهضة جليلة فنشر منذ ١٢ سنة غير مجلة لجمعية المشرقية الألمانية المجلة الخصوصية في تاريخ الإسلام التي أنشأها كارل ماينوح بكر المولود سنة ١٨٧٦ وهو الآن من النظار في وزارة المعارف في برلين.

الممالك الجديدة

١٢٠

قالوا إن القومية هي أن يقوم أهل عناصر من أصل واحد لهم تقاليد ولغة مشتركة فيؤلفون مملكة واحدة سياسية. وهذا المبدأ قد قلب العالم الأوربي رأسًا على عقب مدة تربو على ألف سنة فتحاربت شعوبها كلها

حتى تؤسس ممالك كبيرة من القوميات الصغيرة. أما السادة الجدد في العالم فينزعون اليوم إلى غاية تخالف تلك وهي أن يحرروا الممالك الصغيرة من سلطة الممالك الكبيرة التي خضعت لسلطانهم. يريدون اليوم أن ينفضوا أيديهم من سلطان الغريب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم.

وحدث أن الشعوب المحكوم عليها إذا كانت مؤلفة من عناصر مختلفة أن يضطهد القوى منها الضعيف. وحوادث كثيرة تبين درجات هذا الاضطهاد فقد رأينا آخر إمبراطرة النمسا لما عفا عن المجرمين السياسيين يوم جلوسه خرج من المطابق ثمانية عشر ألف سجين اعتقلهم الحكام الذين كانوا من العنصر السائد.

ليس في أوربا عنصر خالص من الدخلاء بل فيها مجموعة عناصر تكونت بالهجرة أو بالمحيط الواحد أو بالمصلحة المشتركة أو بالدين المتحد فتمازجت مع الزمن وألفت عنصرًا بعينه. وأكثر هذه العناصر اختلاطًا العنصر الإنكليزي الذي تألف من أجناس وأجيال مختلفة وكان هو ولغته المفتحة الصدر لكل جديد أول الشعوب الأوربية التي ألفت أمة منظمة تعرف نفسها [١] وقد ساعد الإنكليز على ذلك أمران موقعهم الجغرافي والنظام الشديد الذي أخضعهم إليه الفاتحون الأجانب من أهل الدول المنظمة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثاني عشر. ثم جاءت فرنسا وكونت قوميتها.

---

(١) فلسفة العهد الحديث الدكتور غوستاف لوبون Gustave Le Bun. Psychologyie des temps modernes والقومية ونقيضها لرامساي موير Ramsay Mur Nationalisme et mterunnationalisme والمقابلة بين الوقوميات لأرنولد فان كرنيب Arnold Van Crenneb: Craite comparative des nationalites.

بيد إن مبدأ القوميات لم يقل أحد الساسة به إلا بعد الثورة الإفرنسية الكبرى أواخر المئة الثانية عشرة للميلاد وفكرة القومية حديثة في الجملة والفضل للفرنسيس في أول منم دعا إليها ثم لماريني (١٨٧٢) الإيطالي أول عامل في الدعوة إلى الوحدة الإيطالية وسرت دعوته إلى الأمم المشتتة والقوميات المبعثرة فاستفادوا منها ثم للحركات القومية التي لفتت أنظار أوربا من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٧٠.

فلا بدع إذا قلنا إن الإنكليز والأيكوسيين والفرنسيس كانوا في مقدمة شعوب أوربا بل العالم الذين تشبعوا بروح القومية وانتهوا بتنظيم ممالك وتوطيد أركان جامعات وكلهم من عناصر مختلفة وأجيال من الناس كثيرة. ثم تألفت أسبانيا والبورتقال وهما أيضًا من عناصر متباينة جدًا وقد أخذا درسًا في قوميتهما من حربهما الطويلة مع العرب وفهما معنى الوحدة بزعامة رؤساء مستبدين ملؤوا صدورهم كبرياء حتى حملوهم على أن يفتحوا الفتوح في الخارج.

لا جرم أن العوامل في تأليف القوميات كثيرة منها الوحدة الجغرافية ووحدة العنصر واللغة والدين والاشتراك في المصالح الاقتصادية وكل أمة تتحد لابد لها من أحد هذه العناصر لقيام أمرها وليس وجود أحد منها بعينه ضربة لازب. وقد تألفت في القرن الماضي سبع دول ثنتان. منها كبيرتان وهما ألمانيا وإيطاليا فنادى كل منهما بوحدته وقد قامت الأولى بصنع أهلها أنفسهم وقامت الثانية بمعاونة دعاة القومية في الأمم وبهمة رجالها أما الدول الخمس الصغيرة فهي اليونان وبلجيكا وصربيا ورومانيا وبلغاريا.

ولنا أن نقسم تاريخ أوربا السياسي إلى دورين. عمر الدور الأول ألف سنة تألفت خلالها الممالك الكبيرة من القوميات الضعيفة والثاني وهو

حديث تداعت فيه أركان الممالك التي أسست ببطء كروسيا والنمسا والعثمانية وانقسمت إلى ممالك وتجزأت أجزاء من القوميات ولقد كان اندماج الممالك الصغيرة في ممالك قوية على ما يظهر من النواميس الثابتة في التاريخ فإن فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا التي كانت فيما مضى مؤلفة من ولايات منفصلة هي نموذج من هذا النماذج ولم يكن عامًّا على إطلاقه إذ وجدنا قرب تلك الممالك الكبيرة ممالك صغيرة كهولاندا وأسوج والدانيمرك وسويسرا قد نجحت بالاحتفاظ باستقلالها، وتزعم أنها ستحتفظ به أبد الدهر.

وإن الدول الثلاث روسيا والعثمانية والنمسا المستبدة التي طالما قاتلت مبادئ القومية قد قتلت بها فتمزقت كلمتها بعد أن كانت تحكم مائتين وخمسين مليونًا من أجيال الناس في أوربا وآسيا ومن كان يظن أن الحرب العامة التي نشب أوارها سنة ١٩١٤ ووضعت أوزارها سنة ١٩١٨ تنشأ منها ممالك جديدة، وتتألف قوميات فقد انسلخ من جسم ألمانيا والنمسا وروسيا مملكة كبرى وهي جمهورية بولونيا التي كانت تلك الدول الثلاث تقاسمتها بينها في القرن الثامن عشر وسكانها ثمانية وعشرون مليونًا ونشأت أربع جمهوريات في شمالي روسيا وهي جمهورية فنلندا واستونيا وليفونيا وليتوانيا ونشأت جمهورية أوكرانيا في الجنوب الغربي على شواطئ البحر الأسود. وكذلك جمهوريتا أذربايجان والكرج جنوبي قافقاسيا.

وانبتر من جسم الدولة العثمانية سورية وفلسطين والعراق والحجاز واليمن ومن النمسا انفصلت المجز مؤلفة من مئة ألف كيلو متر مربع ونحو ثمانية ملايين من المجريين وكذلك جمهورية التشكوسلوفاكيا المأهولة على الأكثر من الصقالبة كالتشك في بوهميا والمورافيين والسلوفاكيين وهي ١٤٥٥٠٠ كيلو متر مربع ونحو ١٤ مليونًا من السكان،

ومملكة اليوغسلافيا، وهي مؤلفة من الصربيين والخرواثيين والسلوفيين. وهي مملكة الصرب القديمة أضيفت إليها مملكة الجبل الأسود والبلاد السلافية في الجنوب من النمسا القديمة مثل البوسنة والهرسك ومساحتها ٨٠ ألفًا وسكانها ١٠ ملايين ومملكة رومانيا التي اتسع حجمها في بلاد المجر والروس التي غالب سكانها رومان ومساحتها ٣٠٠ ألف كيلو متر وسكانها ١٣ مليونًا. وأصبحت النمسا القديمة جمهورية صغيرة ينزلها العنصر النمساوي أو الألماني ومساحتها ٨٢ ألف كيلو متر وسكانها ٦٢٠٠٠٠٠ وهذا أفظع أنواع البتر في الممالك.

وأخذت إيطاليا إقليمي الترانتن وفريول وجزءًا من إقليم إيستريا وتوسعت اليونان من الأراضي البلغارية والعثمانية وأضيفت إلى البلجيك أراضي أو بن ومالميدي وأخذت الدانيمرك من ألمانيا جزءًا من شلشويق هولستاين بلادها القديمة واسترجعت فرنسا ولايتي الالزاس واللورين ففقدت ألمانيا عشر ممالكها قبل الحرب. وانقلبت جمهورية بعد أن كانت ملكية مقيدة وفقدت تركيا سبعة ملايين من السكان وانفصل عنها جميع البلاد العربية وانقلبت روسيا إلى جمهورية اشتراكية مؤلفة من العنصر السلافي فقط ويخرج منها بضع جمهوريات كبرى، وانقرض آل رومانوف قياصرة روسيا وطرد آل هوهنزولرن امبراطرة ألمانيا وآل هابسبورغ امبراطرة النمسا وفصلت الدولة العثمانية الدين عن السياسة فأصبح خليفة فروق ولا سلطان له على الأمور الزمنية وسلطته روحية صرفة.

كان القطار قبل هذه الحرب يجتاز بنا في الرحلتين السالفتين زهاء عشرين ساعة في أرض إمبراطورية النمسا والمجر فقطعنا المسافة من حدود بافاريا إلى حدود إيطاليا هذه المرة مجتازين بأراضي النمسا في ساعات قليلة وفقدت النمسا بلادها الصناعية وبلادها الزراعية وأصبحت فينا الجميلة عاصمة لا ريض لها إلا قليلًا تجوع وتعرى وكانت عاصمة

خمسة وخمسين مليونًا انفصلوا عنها باسم القومية وكانت تعاملهم بالشدة كلما رفع دعاتهم رؤوسهم للمطالبة بحقوقهم الطبيعية فلما أمكنتهم الفرص قلبوا لها ظهر المجن.

آثار العرب في إيطاليا
١٢١

رسخت أقدام العرب في جنوبي إيطاليا ولا سيما في جزيرتي صقلية وسردانية أيام كان المسلمون كما قال ابن خلدون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر (يعني بحر الروم) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنرقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية على جزيرة جنوة مرات فتنقلب بالظفر والغنيمة ... والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فنوقع مملوك الفرنج وتثخن في ممالكهم كما وقع في أيام بني أبي الحسين ملوك صقلية القائمين بدولة العبيديين وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرمانية لا يعدونها وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد بفريسته اهـ.



ولقد أبقت العرب في البلاد التي حكمت فيها زمنًا مصانع كثيرة من قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة كما قال الإدريسي وكثيرًا من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والجامع الأعظم في بلرم عاصمة صقلية الذي كان بيعة في الزمن الأقدم وأعيد على حالته في سالف الأزمان وصفته الآن (في عهد الإدريسي) تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات وذكر ابن حوقل أن في بلرم ثلثمائة مسجد ونيفًا وقد كثرت الجوامع في أكثر المدن مثل قطانية ولم يبق الآن [1] من تلك الأبنية الفاخرة التي شيدها العرب شيء غير أن في بلرم أو في غيرها من مدن صقلية مباني وقصورًا اقتفى مهندسوها مثال المباني الفاخرة التي شيدتها الأمم الممدنة المعاصرة للعرب ومن تلك المباني قطران جليلان اسم أحدهما قبة واسم الآخر زيزا ولعل أصله في العربية عزيزة (أو زيزاء) فكانت مباني العرب هذه مثالًا لمن خلفهم من سائر الأمم فحذا الخلف في أبنيتهم حذوها.

وفي متاحف إيطاليا وخزائنها سيوف وآلاف نقلت من الشرق ولا تزال محفوظة فيها. وأهم ما في إيطاليا من آثار العرب كتبهم المحفوظة في خزائن ميلانو وورومية وغيرهما من العواصم الإيطالية ولم تبرح شواهد بعض القبور المكتوبة بالكوفي أو بالقلم النسخي ماثلة في تينك الجزيرتين. نورد مثالًا منها لما نشره المستشرق أماري الإيطالي [2] ومنه يستدل على ارتقاء الأدب العربي على ذاك العهد.

من ذلك ما كتب على شاهدة قبر في بلرم:

---

(١) محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوربا وخصوصًا بإيطاليا للعلامة إغناطيوس جويدي.

(٢) الكتابات العربية في صقلية Amari: Le epigrafi arabiche di Sicilica.

لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء ولكم في رسول الله أسوة حسنة. هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي عرف بابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

انظر بعينك هل في الأرض من باقي ... أو دافع الموت أو للموت من راقي

الموت أخرجني قسرًا فيا أسفي ... لم ينجني منه أبوابي وإغلاقي

وصرت رهنًا بما قدمت من عمل ... محصى عليّ وما خلفته باقي

يا من رأى القبر إني قد بليت به ... والترب غبر أجفاني وآماقي

في مضجعي ومقامي في البلى عبرٌ ... وفي نشوري إذا ما جئت خلاقي

وفي كتابة أخرى: بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وعزاء ...

وكتب على شاهدة قبر في نابلي:

وكيف يلذ العيش من هو سائر ... إلى جدث يبلي الشتات منازله

ويذهب رسم الوجه من بعد ضوئه ... سريعًا ويبلى جسمه ومفاصله

وكتب على قبر رجل اسمه يسين بن علي بن يعيش توفي عام أربع وسبعين وستمائة:

بعدت فما في العيش بعدك طيب ... وغبت عن الدنيا فلست تؤوب

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ... لقاؤك لا يرجى وأنت قريب

ووجهك يبلى كل يوم وليلة ... وودك لا ينسى وأنت حبيب

عليـك سـلام الله مـا ذر شـارق ... ومـا اهتـز فـي دوح الأراك قـضيب

وكتب على شاهدة في بلرم: هذا قبر إبراهيم بن خلف الديباجي توفي سنة أربع وستين وأربعمائة وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الصراط حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. على ذلك حيي وعليه توفي وعليه يبعث إن شاء الله رحم الله من دعا له بالرحمة والمغفرة آمين رب العالمين.

ومن القبريات المسيحية ما كتب بالعربية أيضًا:

توفيت أنه أم القسيس أكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله المزوزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة يناطاليه وانكبردة وقلورية وصقلية وأفريقية معزة أمام رومية الناصرة للملة النصراهنية صرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من أوسة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الأعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجيد إلى هذه الكنيسة خنت مخايله يوم الجمعة أول ساعة العشا. العشرين مائة سنة أربع وأربعين وخمسمائة وبني على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة حنت إنه على اسم أم مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين. وفي أول الكلام إشارة الصليب.

الحضارة الغربية

١٢٣

يجدر بنا وقد انتهى بنا نفس الكلام على ممالك أوربا العشر التي زرناها وخبرناها بما رأيناه وسمعناه وقرأناه عنها منذ وعينا على أنفسنا ما

فصلناه للقارئ فنأتيه بنبذة تدلنا على ما قامت به في الجملة كل أمة من هذه الأمم من العمل النافع لهذه الحضارة الغربية الحديثة التي بهرنا خبرها ومخبرها وأن نبين منشأها والسر في وصولها إلى هذا الحد فنقول: يمكن إرجاع الأمم الرئيسية في أوربا إلى ثلاث عناصر مختلفة. العنصر اللاتيني والعنصر الجرماني والعنصر الأسكلافوني فالعنصر اللاتيني هم الطليان والفرنسيس والأسبانيون والبورتقاليون وقد ورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم. والألمان والسويسريون الإنكليز والأسوجيون والدانيمركيون والهولانديون هم من الشعوب التوتونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الإسكلافونية. قالت مدام دي سنايل إن الأمم التي كان تهذيبها العقلي من أصل لاتيني هي أعرق في المدنية من غيرها ورثت إلا قليلًا من ذكاء الرومان ومهارتهم في إدارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بإنشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية ولما جاءت أمم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الأمم أخلاق البلاد التي افتتحتها. وهذه الملاحظات تختلف ولا شك باختلاف الأهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلًا في إيطاليا آثارًا لا تمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب أن قويت العادات العسكرية وفكرة الإقدام على العظائم في الأسبانيين. ويقال بالإجمال إن هذا الجزء من أوربا الذي اشتقت ألسنته من اللسان اللاتيني وامتزج منذ الزمن الأطول بسياسة رومية تقرأ في صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما غبر من الزمن وثنية. ولما كانت الأمم الجرمانية قد قاومت سلطة الرومان لم تتشبع بالمدنية إلا مؤخرًا دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية. فلم تلبث في الحال أن انقلبت من نوع من البربرية إلى مجتمع مسيحي. أما مدنية الإسكلافونيين فهي أحدث المدنيات وأسرعها من سائر حضارات الشعوب ولذلك لا تزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الإبداع والاختراع.

لا جرم أن الحضارة عمل الأمم [1] بأسرها ومصادرها منوعة وذلك أن للأمم التي رأيناها في هذه القارة والتي لم نرها فيها وفي غيرها تمدنًا عامًّا نشأ من المدنية القديمة وانتقل إلى جميع الممالك النصرانية وكلها تعمل على تحسينه. ولهذه الممالك بأسرها نفس الأدوات للعمل وعين الطرق في الصناعة ومثلها في باب وسائط النقل، ولهم كلهم معامل وآلات بخارية وسكك حديدية وأسلاك برقية وكلهم يستثمرون معادنهم وأرضهم. وجميع البلاد الممدنة مرتبطة بشبكات من السكك الحديدية وبطرق بحرية يمخر البخار عبابها وبأسلاك البرق والهاتف وأسلاك بحرية واتحاد بريدي عام في البر والبحر وبريد جوي في الطيارات، ويتقايضون حاصلاتهم ورءوس أموالهم وهم على اتصال بينهم أبدًا، والصحف تنقل حوادث العالم أجمع يومًا بيوم وساعة بساعة.

وقد كاد طرق الحياة أن يكون واحدًا في الأقطار الممدنة ففي كل مكان تجد مدنًا كبرى ذات شوارع مخططة وساحات عامة وأسواقًا مبلطة حفت بأرصفة وتشهد العجلات والحافلات والسيارات وأضواء الغاز والكهرباء ومجاري المياه القذرة والمياه الجيدة المجلوبة من الأماكن البعيدة، ولئن كان بعض الفلاحين في تلك الأمم ولاسيما في أوربا الشرقية قد احتفظوا بعاداتهم فإن مصطلح أهل الطبقة الوسطى من الناس متحد في اللباس والزي والتمثيل والصحافة والأندية والبورصة. والأفكار تنتقل من بلد إلى آخر على أسرع وجه والعلماء في كل صقع يعملون بأسلوب واحد ويشتركون في خدمة العلم ويعقدون مؤتمرات عليمة دولية. والتصوير والنقش والهندسة والموسيقى عامة تتناولها الشعوب

---

(١) تاريخ المدنية الحديثة لسنيوبوس Ch. Sengnobos: Histoire de la Civilisatian Contemporaine وكتاب السياسة لبلونشلي Blunlsehli La Politique وكتاب الحياة الاجتماعية وتقلباتها لبرويسل Ernest Man Brnyssel: la vie sciate et ses evolutions.

كلها. ولم تبق غير الآثار الأدبية مقصورة على كل أمة برأسها لتخالف اللغات ولكن بالترجمة ينقل في الحال ما فاضت به قريحة نابغة فامتازت به أمة على غيرها وتقتبس الأمم المتحضرة بعضها من بعض أسلوبها السياسي فقد أدخلت الأمم أسلوب الحكم الدستوري مستعيرة له من حكومة إنكلترا وقوانين الثورة الفرنساوية.

وقد جعل في حكم المشاع كل ما تتألف منه حياة الشعوب المتهذبة من صناعة وتجارة وحياة عملية وعلم وفنون وأخلاق سياسية. ومع هذا لم تمتزج تلك الأمم وظلت على تنافسها مدفوعة بعوامل قديمة من الأحقاد والحفائظ يتجاذبها عاملان متناقضان المدنية العامة المشتركة التي تدفع الشعوب إلى أن يشعروا بالتضامن والتقارب والمنافسات والأحقاد التي تستدعيها الوطنية فتنبذ بها إلى العزلة. وإلى معاملة الغير معاملة الأعداء. ومصير العالم مناط القوة التي يرزقها أحد هذين التيارين.

تعيش الطبقة الوسطى في الغرب بما بلغته من الغنى وأسباب الهناء والرفاهية عيشًا لم يحلم به أهل الطبقة العليا في الأعصار السالفة فتتمتع بألوف من طرق الراحة من مثل سرعة المواصلات وجودة الطرق واستجادة الفنادق والحمامات البحرية والرحلات للنزهة والصحف والمجلات ودور التمثيل والغناء والمتاحف والطرق المبلطة المنارة المكنوسة وروح هذه المدنية «العلم» الذي كان في القديم أداة من أدوات الظرف للخواص ومنذ وضعت أساليبه وتحققت نتائجه دخل في طور عملي وأصبح قائد الصناعة والتجارة وبقواعده أخذت السياسة تنظم وتدور وأصبح لجميع طبقات الشعب أداة تربية العقل والخلق وغدت المدارس ودور الكتب من المعاهد العامة. والحكومة تتولى إنشاء المدارس الابتدائية ولم يبق من أصول الأنظمة القديمة إلا نظام الأسرة والتملك وسقطت العادات التي كان يستمتع بها بعض الأفراد، فلم يبق

لطبقة على طبقة امتياز والعالم سواء في الاستمتاع بالحق والخضوع للواجبات وأصبح اعتبار العملة والزراع كاعتبار المالكين. وقد جعلت عامة هذه التبدلات الحياة منوعة سهلة حرة. وما قط جمعت المدنية حولها عالمًا أكثر من اليوم يتناولون أسباب الهناء على السواء فتبدل كل شيء في الحياة المادية والعقلية والاجتماعية وأصبحت جميع الأمم تحكم نفسها وعليها تبعة عملها بعد أن كان معظمها تحت سلطان حاكم يدعي أنه ظل الله في الأرض يستمد بزعمه من قوة سماوية تحكم عليه فيحكم بها على الناس.

فمن أين استمدت المدنية الغربية وما هي العوامل التي أثرت فيها فبلغت هذا النظام الذي لم يسبق له مثال في المدنيات القديمة؟ فالجواب على ذلك بحسب رأي بلونشلي الألماني أن المدنية الحديثة التي تنشرها اليوم أوربا وابنتها أميركا في أنحاء العالم قد اشتقت من مصادر ثلاثة وهي أولًا: المدنية القديمة اليونانية الرومانية وأثر اليونان باد في الفلسفة والشعر والهندسة والنقش. وأثر المدنية الرومانية ظاهر في الحقوق الخاصة والسياسة والتاريخ والهندسة. والعامل الثاني النصرانية التي قوت محبة القريب وسنت الشفقة على البائسين أيا كانوا وأنشأت كثيرًا من ملاجئ الإحسان وكان لتأسيس الكنيسة وانتشار سلطتها تأثيرًا بالواسطة. وإذا كان الناس في الغرب اليوم أقل تدينًا وتعلقًا بالمعتقدات من أهل القرون الوسطى فإن الإحسان وحب الخير عند المسيحيين أصبحا أكثر شمولًا وأوفر عائدة مما كانا في سالف الإعصار.

ثالثًا إن الجرمانيين رفعوا مستوى المصدرين السالفين وبدلوا فيهما ولاسيما ما كان له علاقة بحب الحرية وحسن الأخلاق واحترام البشر. وليست هذه المصادر الثلاثة على اتساعها هي المعول عليها وحدها في المدينة الحديثة فإن كل أمة من الأمم المعاصرة قامت نحو الحضارة

تبسط من العمل والنجاح ومنهم الطليان الذين ورثوا المدنية القديمة مباشرة وأوجدوا قبل غيرهم لسانًا وبيانًا وطنيًا مجددًا وبلغوا غاية التأنق في تزيين المدن ونشروا تجارتهم وألفوا أول قانون تجاري. ونهضة الفنون زينت إيطاليا بمصانع مخلدة من آثار الهندسة والتصوير والنقش وتغلبت على ظلمات القرون الوسطى.

والمدنية مدينة بأقل من ذلك للأسبانيين والبورتقاليين فإنهم إذا طردوا المسلمين خارج أوربا فذلك بثورة التعصب وبالقضاء على مدنية العرب الزاهرة. وأهم ما قاموا به من الأعمال الصالحة اكتشافاتهم ما وراء البحار ونجاحهم في الشؤون البحرية وكان لآدابهم شأن عظيمن بيد أن استبداد الأمراء ورجال الكهنوت قد قضيا للحال على هذا الترقي الباهر وكان لتينك المملكتين شأن إلى أواخر القرن السادس عشر ولم تلبثا أن هاجمتها طغمة اليسوعية المشؤومة - على قوله - فحولوا القوى التي اقتبسوها من المدنية ليحاربوها بها.

قال وكان للفرنسيس من بين الشعوب الرومانية الكعب المعلى في خدمة المدنية فإن هذا الشعب العظيم يشعر من نفسه أكثر من غيره لأن يعمل في الخارج مدفوعًا بعامل فكر المدنية فقد كان لهم مما بلغوه من الرشد وعرفوا به من البديهة وحب التجدد في الأفكار وحذقهم في بسطها للناس وسلامة ذوقهم ولطف مأتاهم وسلاسة لغتهم وغناها ما أهلهم لأن يكونوا مدة قرون في رأس المجتمع الأوربي. وقد زادت في نفوذهم وحدة دولة وطنية قوية ذات عاصمة بديعة من بين العواصم. فالمجتمع الفرنساوي كان كالمشرف الملقن لعامة المجتمع المهذب وكان لفرنسا من آداب عصر لوزير الرابع عشر والقرن الثامن عشر ومن أفكار الثورة ونبوغ نابوليون ضمانة في هذا الشأن طال معه تفردها بالأولية في أوربا وتؤخذ على الفرنسيس عدة عيوب مهمة وهي النظر إلى الأشياء نظرًا

سطحيًا والعجب والمزاج الذي يحملهم على الغلو وتجننهم في الإبداع والتغيير وهذه النقائص قد عبثت بمركزهم العالي، ولكن ما أنتجته قرائحهم يستحق شكر العالم.

أما الشعب الإنكليزي الممزوج من عناصر جرمانية ورومانية كالشعب الإفرنسي ولكن على صورة معكوسة وكذلك أخته الفتاة أميركا فقد اشتهروا في ميدان السياسة وكانت لهما اليد الطولى في تأليف الحكومة الدستورية فسعيا لترقية المبدأ في الحكومة الملكية المقيدة وتأليف المجالس النيابية وقيام الجمهورية لا جرم أنهما كانا يهتمان خاصة بحرياتهما الوطنية ومصالحهما العامة ولكنهما كانا ولا جدال المثالين الأولين في عالم السياسة الحديث، وإلى هذين الشعبين يرجع الفضل على الحرية وما جهزت به من الأسلحة المشروعة والضمانات الحقوقية.

وكان لأميركا عمل عظيم في باب حرية الوجدان والفصل بين الدين والسياسة والإنكليز أرقى من الفرنساويين من حيث الشعور بالتقاليد واحترامها فقد بنوا بناءهم السياسي على أسس تاريخية مضمونة على حين قلمّا سلم الفرنسيس إلا في قلب كل ما كان لهم ليقيموا البناء من جديد. ولإنكلترا وأميركا الفضل الأعظم في ترقية الفنون العلمية والصناعات والبحرية والتجارة في العالم. وما من شعب يشبهها من حيث البحث عن الطرق العملية حتى كادت تنقلب هذه الصفة فيهم أحيانا إلى أنانية باردة في التقدير والسرد. والعلم مدين للإنكليز والأميركيين بشيء كثير من النجاح الذي بلغه. ولئن كان استعداد إنكلترا للفنون الجميلة أقل من استعداد غيرها فإنها أنبغت أعظم شاعر في العالم.

قال وامتاز الشعب الألماني خاصة بالخدمات التي خدم بها الحرية السياسية والدينية والعقلية فقضى أولًا على سلطة رومية المستبدة، وهيأ

للقوميات مجالًا متسعًا لتتألف جامعتها ويقوم أمرها وحال في القرون الوسطى دون استرسال البابوات في تسلطهم تسلطًا عامًّا. ونادى في القرن السادس عشر بحرية الوجدان وأنار العقول ببيعه وتربيته الحديثة. ثم إن جهاده الدائم في البحث عن الحق وغيرته المتناهية في العلم وعقله المستقل الفعال والميول الأدبية التي فطرت عليها نفسه وتحمسه بالجميل والجيد - كل هذا نشأت منه سلسلة من الأعمال العلمية والأدبية والصناعية والفنية التي نفعت الإنسانية.

وقد جاء زمن ظن فيه الناس أن الشعب الألماني الآخذ نفسه بهذه الأعمال قد نسي أن يجعل له مقامًا في الحركة السياسية الجديدة. وذلك إن مملكة ألمانيا الرومانية قد تداعت أركانها وظهر أن تخالف العناصر والدول والأديان يحول دون توحيدها وتترك الأولية للغريب. وما كانت ألمانيا تظهر بأنها مثيلة لجاراتها إلا في ساحة الأفكار والعقل وكانت حكومتها السياسية أحط منها بكثير، فحال دون اجتماع القوى المتفرقة وربطها برباط محكم ما فطر عليه الألماني من الجفاء في العشرة والتصلب في الرأي والشدة في الشكيمة وإخلاص عدة من القبائل لأمرائهم إلى التي ما بعدها. وقد عرفت بروسيا الاستعداد السياسي والحربي في الأمة الألمانية فقامت الإمبراطورية الألمانية مملوءة قوة ونشاطًا بين أمم أوربا وحاولت تحرير الأمم وأن تنقذ العقول من تربية اليسوعيين البليدة ومن وثنية البابا المعصوم.

هذا ما قاله بلونشلي الألماني في الأمم التي رأيناها وكان لها شأن في الحضارة وقال ولز الإنكليزي (مجلة العرفان م ٨ ج٢) إن نور العلم والمدنية أتانا من طريق العرب لا من طريق اللاتين. نعم إن العرب حملت للأمم الأوربية كثيرًا من أساليب الحضارة أبانوا بها كما في دائرة المعارف الإفرنسية الكبرى أنهم حذاق في صناعة الحرب وحذاق في

صناعة السلم. نقلوها إلى جنوبي إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الغربية ونقل الصليبيون عن المسلمين طائفة صالحة من هذه الطرق مدة حروبهم معهم نحو قرنين في الشام ومصر.

أخذ الغرب عن العرب ما وسعه أخذه والباقي اقتبسه كما قال بلونشلي من المدنيتين الرومانية واليونانية وإذا أنصفنا لا نجد مدنية الغرب إلا تتمة المدنيات القديمة بما فيها من وثنية أقرت النصرانية بعضها ولا تزال إلى اليوم ظاهرة الأثر فيها كما أقر الإسلام بعض عادات الجاهلية. وقد وصل الغربيون بالمدنية إلى هذه الدرجة من الرقي بالعمل والثبات وحسن التنظيم، وأهم ما أنجح مقاصدهم إضعافهم من سلطة الملوك ووضع الحكومات في نظام معين ارتقى بالزمن وتسلسل الفكر في أعمالهم وأنظمتهم الاجتماعية، ثم إن لهواء بلادهم دخلًا كبيرًا في رقيهم دعاهم إلى العمل والإنكماش والحرص والإقدام على العظائم أكثر مما كان من ابن آسيا وأفريقية.

وقد عملت كل أمة في الغرب بحسب موقعها وتقاليدها والأحوال التي طرأت عليها. هذا في الأمم الكبرى أما الأمم الصغرى فقد أحسنت إلى الحضارة على قلة أسبابها فأنشأت لها أمجادًا ربما كانت أعرق فيها من الأمم العظيمة. وربما كانت المدنية أرسخ قدمًا وأشد مرونة في الدانيمرك وأسوج ونروج وسويسرا وهولاندة والبلجيك أكثر من الأمم القديمة العظيمة التي شغلت بالحروب وكاد حبها يمتزج بأجزاء روحها، وأصبحت حياتها وحياة أبنائها معلقة على تحديد سلاحها وتفننا في

سياستها لاستصفاء بلاد غيرها وتكبير رقعة سلطانها وإغفال المعنويات في الأحايين والنظر إلى الماديات فقط [١].

---

(١) قال درابر الأميركي بعد أن وسع العرب ملكهم وأيدوا كلمتهم حولوا أفكارهم نحو المعارف والعلوم فامتازوا فيها وبرزوا على معاصريهم إذ كان من مبدأهم أن يرقبوا ويمتحنوا وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يعتمدوا فيها كتبوه في الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد البطريل على المراقبة والامتحان بواسطة الآلات وذلك ما صيرهم مبتدعي الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتنحير ورفع الأثقال ودعاهم إلى استعمال الربع والاصطرلاب في علم الهيئة واستخدام الموازنة في الكيمياء مما خصوا به دون سواهم وإلى صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتي اصطنعت في بغداد والأندلس وسمرقند وذلك جعلهم أيضًا يوجدون تحسينات عظيمة في قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام العديدة في الحساب وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان. ولم يقرروا في علم الهيئة لوائح فقط بل رسموا خرائط النجوم المتطورة في فلكهم أيضًا مطلقين على دوات القدر الأعظم أسماء عربية لا تزال ترد على كراتنا الفلكية وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها وعينوا الكسوف والخسوف ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة وأدركوا الاعتدالين ولاحظوا أشياء بعثت نورًا هرا على نظام العالم واختص علماء الفلك من العرب باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة وكانوا السابقين في استعمال الساعة الرقاصة لذلك وهم أنشأوا في العلوم العملية علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبرتيك وحامض التريك والكحول وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبية إذ كانوا أول من نشر الغرمكوبيا والمستحضرات المعدنية وهم قرروا في الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام وكان لهم رأي جلي من جهة طبيعة الجاذبية ورأي سديد بالقوات الميكانيكية واصطنعوا في الهيدروسنايك الجداول الأولى للجاذبية النوعية وكتبوا مقالات على عوم الأجسام وغرقها في الماء وأصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان يكون إشعاع يصدر من العين ويمس المرئي فيطهره. أما هم فقالوا إن الشعاع يمر من المرئي للعين وفهموا مسوس انعكاس النور أو انكساره واكتشفوا طريق الشعاع المنحني في الهواء وبرهنوا على أنا نرى الشمس والعمر قبل الشروق وبعد الغروب فإن والذي يدهش كثيرًا أن نتصور أشياء نفتخر أنها من مواليد وقتنا ثم لا يلبث أن

أما الأمم التي استقلت في العهد الأخير كاليونان ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وتشكوسلوفاكيا وبولونيا وفنلندا وغيرها فأكثرها ذات مدنيات قديمة عرض لها ما مزق شملها زمنًا لسلطان جائز قبض بمخالبه على أعناقها واستعادت بعد الحرب حالتها السياسية في الجملة فأصبحت كل واحدة تحيا باسم القومية كما حييت الممالك الكبرى من قبل وكلها تحتذي مثال الدول المنظمة القديمة وتأخذ عنها أحدث الأساليب حتى أصبح بعضها موضوع إعجاب المنصفين من الباحثين مثل يونان ورومانيا وبلغاريا بأنها نهضت في مدة قليلة ما كان منه مثال للشرق في أمة تريد أن تحيا وقد رأينا مصر والأستانة أخذتا بحظ وافر من الحضارة الحديثة وتوشك أن تأخذ سائر البلاد المستعدة، في هذا الشرق القريب - ولاسيما بلاد العرب والفرس - حظها من مدنية تعبت أوربا قرونًا طويلة في نسج خيوطها وقادت بألوف الألوف من البشر لقيام نهضتها وقتلت عشرات الملايين من الجنس الأصفر والأحمر والأسود بل والأبيض لتقيم محلهم المستعمرين من أهلها وعسى أن يكون شأن العرب والفرس من ذلك شأن يابان أخذت عن الغرب ما مست إليه حاجتها ومزجته بمدنيتها القديمة فهي خير مثال يحتذى والسلام.

(انتهت الرحلة الثالثة وبها انتهت الرحلات الثلاث)

نراهم سبقونا إليها فتعليمنا الحاضر على النشوء والارتقاء كان يدرس في مدارسهم وحقًا إنهم وصلوا به إلى الأشياء الآلية وغير الآلية فكان المبدأ الرئيسي في الكيمياء عندهم المظهر الطبيعي للأجسام المعدنية (انتهى معربًا من مقالة في مجلة النعمة بقلم الأستاذ عبده كحيل).

فهرس

الرحلة الثالثة: العربية والإفرنسية ٣
مواطن اللغة الإفرنسية........................ ٧
علائق العرب بالفرنسيس ١١
الأمراء العلماء........................ ١٤
احتفال الفرنسيس بالأدب والعلم ١٧
صفحة من تاريخ فرنسا ٢٢
قصر فونتينبلو........................ ٣٣
الموسيقى الغربية........................ ٣٦
لغة عامة ٤٠
البلجيك ٤٥
عمران هولاندة ٥١
هولاندة والإسلام........................ ٥٦
هولاندة والعرب ٦٠
معاهد إنكلترا ٦٧
المجتمع الإنكليزي........................ ٧٤
النفس الإنكليزية ٨٤
أخلاق الإنكليز وعاداتهم........................ ٩٩
إنكلترا والاستعمار........................ ١٠٧

الأندلس ١٢٥
صدر الكلام ومصادره ١٢٥
تحية الأندلس........ ١٣٣
تقويم الأندلس........ ١٣٦
فتح الأندلس........ ١٤٠
عمران الأندلس ١٤٦
أهل الأندلس ١٥١
تسامح العرب........ ١٥٥
العرب والأسبان........ ١٦٢
العلم في الأندلس........ ١٦٦
تفنن عرب الأندلس ١٨٦
مدينة مجريط ٢٠٠
دير الأسكوريال ٢٠٢
قرطبة والزهراء........ ٢٠٤
مدينة اشبيليه........ ٢١٠
مدينة غرناطة........ ٢١٢
قصر الحمراء ٢١٥
كتابات الحمراء........ ٢٢٤
ذكرى مؤلمة ٢٢٩
جلاء المسلمين وتنصيرهم........ ٢٣٢
سقوط الأندلس ٢٤٠

جبل طارق وطنجة........ ٢٤٦
علم المشرقيات في أسبانيا ٢٤٨
أسبانيا بعد العرب........ ٢٥٢
البورتقال بعد العرب ٢٦٩
برلين ٢٧٥
ألمانيا الاقتصادية........ ٢٨٠
العلم والعمل ٢٨٦
مدارس ألمانيا ٢٩٤
أخلاق الألمان........ ٣٠١
مثال من مزارع ألمانيا ٣٠٧
الصحة في ألمانيا ٣١٥
تاريخ المشرقيات في ألمانيا........ ٣٢٤
الممالك الجديدة........ ٣٢٦
آثار العرب في إيطاليا ٣٣١
الحضارة الغربية ٣٣٤